المثل الأعلى:

الفــــاروق

عمـــر بن الخطـــاب

وأثــره فى تقدم الفكــر الإنسانـــى

أحمد الشنوانى

المحتوى

صفحة

مقدمة الكتاب

"توماس كارليل "كاتب عرف بفلسفته التاريخية، فله فيها طابع خاص، ولتفكيره وتعليله منحى خاص، وهو صاحب تلك الكلمة المأثورة":لم يكن تاريخ العالم، إلا تاريخ عظمائه "فنحن نحاول أن نكتب عن عظيم من عظماء العالم، لعب دوراً هاماً في قلب تاريخ العالم .وفي تغيير خريطة العالم قديماً وحديثاً.

ولسنا نشك أن العبقرية لا تنبت من جدب .ولا نشك أن الزعامة لا تولد من عقم .بل لا بد من ظروف واعتبارات من زمن ومكان ومن بيئة ووراثة.. ...وإذا كانت أثينا وصلت في عصر بركليس إلى ذروة الحضارة فذلك العصر كان غنياً بأترابه ولداته ,وأشباهه ونظرائه ,فإنك تستطيع أن تفهم كيف نبت مثل عمر بن الخطاب وهو من عصر النبى ﷺ وفي زمالة صحابة كأبى بكر وأمثال أبى بكر .وتستطيع أن تستسيغ عبقرية كعبقريته، وشخصية كشخصيته، لتقديرك لعصره، وعصر أثر فيه، فلن تجشمني مئونة التبسط معك في كلمة كهذه في كل مناحي القول الخلقية ببحث في عمر وعصر عمر، وإنما سأعنى لك إلى حد غير قليل في تصويري لك عمر بن الخطاب بالتكلم بصفة خاصة في مناقبه ... تمشياً مع كلمة كارليل وأخذاً بالمنهج التاريخي الأخير، من التنكب بالقارئ وعقلية القارئ عن شحن ذهنه بالحروب والوقائع، وما إلى الحروب والوقائع، من سنين وأيام، ومواقع وقتال، وصلح وسجال، إلى جعل التاريخ قصة .وقصة مجيدة لنواحي خلقية مجيدة، واتخاذ هذه القصة المجيدة أمثولة للاقتداء، ودرساً للاحتذاء، وشخصية فذة للاهتداء ... وإنك لجد عالم أن للسياسة مناحي مختلفة، ولها تعاريج ولغات، ولأبطالها مميزات متباينة .فلسياسة الختل أبطال ولسياسة الشدة أبطال. ولسياسة اللين أبطال. فيجب أن يكون لسياسة الأخلاق أبطال... وسنرى في أى مرتبة نضع عمر من بين هؤلاء جميعاً.

وقد يكون من حقك علينا -عزيزى القارئ -أن نلفت نظرك إلى بيت من الشعر الإنجليزى، يحفظه طلبة التاريخ الدستورى وهو ما ترجمته" :دع البله يتحاجون عن أحسن أنواع الحكومات، ولتعلم أن خيرها نوعاً ما كان أدقها إدارة".

فخل عن ذهنك الآن أنواع الحكومات، وانس إلى حين قليل الأسماء الحديثة التى تطرق أذهاننا الفينة بعد الفينة، من حكومة برلمانية ملكية، إلى جمهورية، دكتاتورية ... وخل عن ذهنك الأسماء القديمة من إمبراطوريات أتوقراطية أو أرستقراطية.....

كذلك من حقك علينا -عزيزى القارئ -أن نقول لك أن العظمة لم تحتكرها أمة من

الأمم، ولم تختص بها دولة دون أخرى. ولم تكن بميزة زمن على زمن، ولا بوقف على عصر دون عصر، بل هي مشاعة الجميع .فهل لك أن تبحث عنها عند الجميع، وأن تنال من عنايتك ودرسك وإمعانك وفحصك على قدر سواء ...سواء أكانت فى فرنسا أم إنجلترا أم ألمانيا، وسواء أكانت فى بلاد العرب المقفرة وصحاريهم المحرقة .وسواء أكانت عن بوذا أم "كونفشيوس"، وسواء أكانت عن مسلم أم غير مسلم، ذلك لأنك يا صاحبى فى عصر يخضع للذهنيات الفذة، ويذعن للعقول الجبارة، ويقدس العبقريات النادرة ...فلننشد هؤلاء إنى وجدوا، ولندرس هؤلاء إنى كانوا.

****

وصية ميت ولكنه حى .حى فى ضميره وفى وجدانه .حى فى يقينه وفى إيمانه ... وهو وأن كان ميتاً فهو خير من ألف حى .وهو أن كان حياً فأكثر تقديراً لحساب الله من ألف ميت ...تلك هى وصية ابى بكر فى اختياره عمر بن الخطاب.

يقول أسيد بن حضير حينما سأله ابو بكر عن عمر ..وأبو بكر كان دستورى النزعة، جبلت نفسه الخالصة لله، وحب خلق الله، على الإستشارة والنزول على رأى الجماعة ... يقول أسيد" :اللهم أعلمه الخير بعدك، يرضى للرضى، ويسخط للسخط، الذى يسر خير من الذى يعلن، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى قلبه منه."

ويجيب عثمان بن عفان أبا بكر" :أنت أخبرنا به "...فقال أبو بكر" :علىّ ذلك يا أبا عبد الله أخبرنى عن عمر "فقال" :اللهم علمى له أن سريرته خير من علانيته، وأنه ليس فينا مثله."!

ويروى لنا الطبرى أن طلحة بن عبيد الله دخل على أبى بكر وقال" :ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته، فقال أبو بكر :بالله تخوفنى !! أقول :اللهم أنى استخلفت عليهم خير أهلك ...ابلغ عنى ما قلت من ورائك ...ثم لم يكتف بذلك بل قال أثناء مرض وفاته لعبد الرحمن بن عوف حينما وجد الخليفة مهتماً، وبشره أنه بحمد الله أصبح بارئا" :...أما أنى على ذلك لشديد الوجع، ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد علىّ من وجعى، أنى وليت أموركم خيركم فى نفسى، فكلكم ورم من ذلك أنفه، يريد أن يكون له الأمر من دونه، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل وهى مقبلة، حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج، وتألمون الاضطجاع على الصوف، كما يألم أحدكم الاضطجاع على شوك السعدان، والله لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه فى غير حد، خير له من أن يخوض فى غمرة الدنيا، ألا وأنكم أول ضال بالناس غدا فتصدوهم عن الطريق يميناً وشمالاً ...يا هادى الطريق إنما هو الفجر أو البحر !...فأجابه عبد الرحمن بن

بين رجلين .إما رجل رأى ما رأيت فهو معك، وإما رجل خالفك فهو يشير عليك برأيه، وصاحبك كما تحب ...ولا نعلمك أردت إلا الخير ، ولم تزل صالحاً مصلحاً، مع أنك لا تأسى على شئ من الدنيا..."

ولست أرتاب أنك تقدر -عزيزى القارئ -تلك الاعتبارات السامية، وتلك المعتلجات النفسية الشريفة، التى حدت بشخصية فذة فى حلم أبى بكر ورقة حاشيته، وسعة عطفه، وأدبه مع ربه ونفسه والناس جميعاً، حتى يلتهب أواره، وتضرم ناره، لا فى سبيل عمر وإحقاق مكانة عمر، بل فى سبيل المصلحة القومية العامة، وفى سبيل نصرة الزعامة الكاملة الصحيحة.

ولعلنا لا نعدو الحق فى قليل أو كثير، إذا افترضنا فى غير مبالغة ولا إغراق، بل نزولاً على المنطق وما يرضى المنطق، إذا قلنا أن نشوء هذه المصلحة القومية العامة، ونصرة الزعامة الكاملة الصحيحة هى هى بنفسها التى حدت بالنبى محمد ﷺ وسلم بطل الرسالة والهداية، وما أنتجتها الرسالة والهداية من عرفان وإيمان، ومناقب حسان، وخير عميم لبنى الإنسان، حتى سأل ربه الذى يعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويعطى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ....سأله "اللهم أعز الإسلام بعمر ."!

****

أعرف أنك تحب عمر بن الخطاب من كلام هؤلاء جميعاً .فمن نبى كريم يسأل ربه إعزاز دعوته بعمر، أو بأحد العمرين كما فى رواية أخرى .إلى خليفة عظيم لا يرى أثناء حياته وفى مماته غير عمر يركن إليه، ويذب عنه، ويشيد بذكره، وينضح عن كفايته ومواهبه، ومن صحابه أبرار ليس لهم من طماعية فى الازدلاف، وليس فى أخلاقهم شئ من ألوان الملق والخداع، وجبلوا جميعاً على الصراحة والصدق .كما جبلوا على الرجولة وما فى الرجولة من بطولة وفروسية ومناصرة للحق -لا يرون من رجل للموقف والساعة إلا فى عمر .ولم يستطيعوا أن يقولوا شيئاً يثلم صفحته، أو ينتقص من شخصيته إلا ما ذهب إليه أحدهم فى إجابته لأبى بكر" :هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة "...بيد أن هذه الناحية قد أصابت أبو بكر المحجة فى تعليلها حيث يقول : "ذلك لأنه يرانى رقيقاً، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو فيه."....

أعرف أنك تحب عمر بن الخطاب من كلام هؤلاء جميعاً .ولست أرتاح لك أن تتعصب لعمر من غير أن تعرف عمر.

"محمد بن مسلمة "أحد الصحابة المشهود لهم بالتقوى والصلاح، المعروف بالتدقيق والتحقيق، مع زهد وورع، ...كان يشغل وظيفة مفتش عام على الولاة فى أيام عمر بن

والتحقيق، مع زهد وورع، ...كان يشغل وظيفة مفتش عام على الولاة فى أيام عمر بن الخطاب، وقد أثبت الطبرى عنه مهمات عديدة نهض بها تبين مبلغ عناية عمر بن الخطاب باستتباب العدل وإقامة صروحه، ويكفيك أن تنظر فى حوادث سنة ٢١هـ وما كان منه مما ينتهى بك إلى الجزم بشدة مراقبة عمر لعماله أخذاً بناصر الضعيف من القوى، وإرغاماً للقوى بإحقاق حق الضعيف، وجرياً للعدل، ونفاذاً للحق... بل كان يعنى أجّل العناية بأمر العبيد، ويحفل أيما احتفال بألا يفرق عماله فى المعاملة بينهم وبين الأحرار ولا غرو فهو صاحب تلك الكلمة الهائلة التى صرح بها فى وجه ابن عمرو بن العاص حين اعتدائه على أحد المصريين :"كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً" فلا غرو إذا حدثنا الأسود بن يزيد فى الطبرى قال :"كان الوفد إذا قدموا على عمر سألهم عن أميرهم، فيقولون خيراً، فيقول... هل يعود مرضاكم؟ فيقولون نعم، فيقول ...كيف صنيعه بالضعيف وهل يجلس على بابه؟ فأن قالوا لا عزله".....

بل أكثر من هذا....

فقد بلغ من رقة قلب عمر، ومبالغته فى الحرص على راحة رعيته ......رعيته البعيدة والقريبة على حد سواء، ما يسرده علينا الطبرى فى حوادث سنة ١٧ هجرية عن عامل الأهواز الذى نزل جبل الأهواز، وجشم الناس المتاعب والصعاب فى الاختلاف إليه، وأن عمر بن الخطاب بعث إليه مؤنباً اتخاذه هذه "الفيلا "فى مصيف كئود يشق على من رامه وكتب له ما نصه" :أما بعد، بلغنى أنك نزلت منزلاً كئوداً لا تؤتى فيه إلا على مشقة، فأسهل ولا تشق على مسلم ولا معاهد، وقم فى أمرك على رجل تدرك الآخرة، وتصف لك الدنيا، ولا تدركنك فترة ولا عجلة، فتكدر دنياك وتذهب اخرتك."

أما وصاياه العمال لإجراء العدل، والتمسك بروح العدل، فكثيرة .كثيرة جداً، وإليك مثل بسيط من مئات الأمثلة المترعة بها كتب التاريخ العربية جميعاً .إليك مثل عادى .هو كتاب عادى كتبه عمر إلى أبى موسى مما أثبته الطبرى وغير الطبرى"، قال فيه" :أنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجه، فأكرم من قبلك من وجوه الناس، وبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف فى الحكم وفى القسم "ويقول أبو رواحة :كتب عمر بن الخطاب إلى العمال" ...اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء، قريبهم كبعيدهم، وبعيدهم كقريبهم .إياكم والرشا والحكم بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب ....فقوموا بالحق ولو ساعة من النهار."

بل أكثر من هذا.

فقد خطب الناس عمر فقال" :يا أيها الناس إنى والله ما أرسل عمالاً إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، ويقضوا بينكم بالحق، ويحكموا بينكم بالعدل، فمن فعل به شئ سوى ذلك فليرفعه إلىّ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه ...قيل فوثب عمرو بن العاص وكان من مستمعى خطابته فقال يا أمير المؤمنين :أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته، فأدب بعض رعيته، إنك لتقصه منه؟... .قال عمر :أى والذى نفس عمر بيده إذاً لأقصنه، وكيف لا أقصه منه، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه !...ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم، ولا تجمهروهم فتفتنوهم، ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم، ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم." .....

فأنت ترى من هذا كله وهو قطرة من بحر، صدق وصف صعصعة بن صوحان لعمر ابن الخطاب وقد سأله معاوية أن يصفه له فقال" :كان عالما برعيته، عادلاً فى قبضته، عارياً عن الكبر، قبولاً للعذر، سهل الحجاب، مصون الباب، متحرياً للصواب، رفيقاً بالضعيف، غير محاب للقريب، ولا جاف للغريب."

***

العبقرية الصحيحة سرها غير علانيتها، أو تحمل علانيتها غلاله قليلة من فيض سرها .والعبقرية الصحيحة أعمال أكثر منها أقوال، أو تكون أقوال أصحابها مرآة مصغرة لأصل جليل رائع، والعبقرية الصحيحة كثيرا ما يخطئ الناس فى تفهمها، لأنها فريدة فهى فوق مستوى العقلية العامة، ولأنها جبارة فى نأيها عما تواضع عليه الناس من تفكير وتقدير...، ولأنها طموحة للكمال دءوبة على بلوغه، قوية الإرادة عنيفتها مع أعدى أعدائها ...وما أعدى أعدائها إلا نفسها الخاطئة يوم تكون خاطئة، وبيئتها الخاطئة ...لأن العبقريات الصحيحة تحب الخير العام وتنشده لنفسها وللمحيط الذى تعيش فيه .وتمقت الشر العام لنفسها وللبيئة التى تعيش فيها.

نقول إن أعدى أعداء العبقريات الصحيحة هى نفسها الخاطئة، وبيئتها الخاطئة .لأن النفوس الكبيرة تحب الغير حب النفس، ثم هى تمقت للغير ما تمقته للنفس، ثم هى تحارب عند الغير ما تحاربه عند النفس، ولعله بسبب هذه الظاهرة العنيفة من مبالغة فى حب خير "الغيرية "إلى مبالغة فى مقاومة شر "الغيرية "يمكننا أن نفهم تبرير قول من اتهم عمر ابن الخطاب بجنوح إلى العنف، وإن كان هذا الجنوح إلى العنف لا يدل فى أعماقه إلا على الأب الرءوف، ولا يحمل فى طياته إلا قلب الوالد العطوف ...ثم هو كله متفجر رحمة وفيض حنان.

إن عمر الشديد فى تأديب رعيته، كان شديداً أيضاً فى تأديب نفسه وفى تأديب أسرته .
ولعلك قرأت ما أخرجه الحافظ عز الدين الجزرى فى "أسد الغابة ...قال: قال الأحنف بن قيس :كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال :يا أمير المؤمنين، انطلق معى فأعذنى على فلان ...فإنه قد ظلمنى، فرفع عمر الدرة فخفق بها رأسه .فقال :تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم، حتى إذا شغل فى أمره من أمور المسلمين أتيتموه أعذنى! أعذنى ...!قال فانصرف الرجل وهو يتذمر ... قال "عمر "علىّ بالرجل، فألقى إليه المخفقة ...وقال امتثل"اضربنى كما ضربتك "!!فقال لا والله، ولكن أدعها لله ولك .قال ليس هكذا إما أن تدعها لله إرادة ما عنده، أو تدعها لى فأعلم ذلك .قال أدعها لله ...ثم قال الأحنف ..فانصرف "عمر "ثم جاء يمشى حتى دخل منزله، ونحن معه، فصلى ركعتين وجلس فقال مخاطباً نفسه :يا بن الخطاب !كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعيذ بك فضربته، ما تقول لربك غداً إذا أتيته؟" قال "الأحنف"... ثم جعل يعاتب نفسه فى ذلك معاتبة حتى ظننا أنه خير أهل الأرض"...

فأنت ترى أن هذه الرغبة الصادقة فى التأديب كان مصدرها حبه لتأديب نفسه أولا، ثم هى تشمل الناس وتعمهم لأنها غير زائفة ...ثم هى تشمل أهل عمر قبل أن تشمل الناس ولعلك قرأت ما ذكره ابن عساكر فى تاريخه .قال" :كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس، عن شئ جمع أهله فقال :إنى نهيت الناس عن كذا ...وكذا ...وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله، إلا أضعفت عليه العقوبة لمكانه منى"

هيهات أن تقولها إلا عبقرية تسعد بها الإنسانية يوم تولد ويوم تكون الكلمة لها، ويوم تأخذ الناس بأدبها وخلقها وتقويمها وتعليمها!

وهيهات أن تقولها إلا قلوب رحيمة فى أعماقها، برة حدبة فى سويدائها!

هى قلوب رحيمة، وإن كانت عنيفة فى تأديبها لنفسها، ولأهلها وللناس جميعاً، وهم عندها بضعة من نفسها وأهلها ...وهذا العنف فى ظاهرة أن هو إلا رحمة .ورحمة متفجرة فى باطنه.

هى قلوب رحيمة وعبقريات صحيحة، ولعلك تدهش إذا ما رأيت عمر الذى يضّعف العقوبة لأهله، والذى يقتص من نفسه، والذى لا يفرط فى تأديب رعيته لأنها بضعة من نفسه -لعلك تدهش إذا ما رأيته فى موقف آخر ...هو موقفه مع رجل من بنى أسد فقد جاء فى كنز العمال":استعمل عمر بن الخطاب رجلاً من بنى أسد على عمل فجاء يأخذ

عهده فأتى عمر ببعض ولده فقبله ...فقال الأسدى :أتقبل هذا يا أمير المؤمنين، والله ما قبلت ولدا قط .قال عمر :فأنت والله أقل رحمة، هات عهدنا لا تعمل لى عملاً أبدا"

يأبى عمر العظيم .عمر المثقف نفسه وأهله ورعيته بالثقافة الصحيحة .الثقافة المنتجة ...ثقافة العمل والحض على العمل ...ثقافة الخير والأخذ بوجود الخير. يأبى أن يلى هذا الرجل الذى كان اختاره لولاية المسلمين ...والذى ما اختاره إلا لما فيه من كفايات وحسنات ومميزات ...لأنه تعوزه صفة أخرى فى الحاكم، صفة لا ككل الصفات بل أهم من كل الصفات .لأنها متممة لأكمل الصفات ...تلك هى صفة الرحمة.

ولعلك بعد هذا كله تستطيع أن تبرر سر نجاح عمر، وسر التفاف قلوب الرعية حوله.

***

هذا هو أمير المؤمنين عمر، الرجل الذى أنجبته البشرية ورباه الإسلام ..هذا هو الحاكم المؤمن الذى إذا ذكر رؤساء الدول والحكومات منذ فجر التاريخ الإنسانى إلى يوم الدين، كان أعظمهم، وأبرهم، وأذكاهم..

هذاهو الناسك الذى تفجر نسكه حركة، وذكاء ..وعملاً ..وبناء..

هذا هو المعلم الذى صحح مفاهيم الحياة، وأفرغ عليها نوراً من روحه، وكساها عظمة من سلوكه، وكان للمتقين إماماً..

هذا هو عمر فى ذاكرة التاريخ، وفى ضمير البشرية.

هذا هو منارة الله فى الدنيا وهدينه إلى الحياة.

***

وبعد ..فلست أكتب تاريخاً لعمر...

ولا أزيد القراء معرفة بعظمته وشأوه..

ولا أزكى على الله نفسى بالكتابة عن رجل أحبه الله واصطفاه..

إن المحاولة التى أنا بصددها، أكثر تواضعاً من هذا كله..

إن أصغى إلى أمير المؤمنين عمر، لا أكثر ..وأتطلع إليه، لا أقل..

وفى دروب التاريخ سنحاول أن نلتقى بالرجل الذى لم تسعدنا المقادير باللقاء معه فى دروب المدينة المنورة، حيث كانت سجاياه وعظمته تملأ المكان بما لا عين رأت ولا أذن

سمعت من عدالة الحاكمين، وزهد القادرين، ووداعة الأقوياء المتقين..

أجل، هذا ما نحاول فى هذا الصفحات بلوغه ..أن نعيش لحظات فى رحاب عمر، ونأخذ من المشهد المكتوب عوض ما فاتنا من المشهد الحى ..ونلقى السمع والبصر والفؤاد بين يدى هذا القوى الأمين، والمعلم الذى ليس له بين المعلمين نظير، ونقضى فى معينه لحظات ترفع من قدر حياتنا ..وعلى مائدته الخالية من أطايب الطعام، الحافلة بأطايب العظمه سنقضى أسعد وأرغد لحظات حياتنا!!..

أحمد الشنوانى

عمر عدو الإسلام

عمر ناصر الإسلام

".. عمر بن الخطاب عدو الإسلام،
هو هو عمر بن الخطاب ناصر الإسلام،
لا هوادة لأحد من الناس عنده في
حق، عزيز الجانب. قوى العزيمة، منيع
لا ينال، صلب في جاهليته وإسلامه.."

ينحدر عمر بن الخطاب من أصلين فارعين فى الشرف من بيوتات العرب المؤثلة، ويضرب فى أكرم أصلابها وأشرف أرومتها من قريش، فهو من جهة أبيه ينتسب إلى الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب، يجتمع مع النبى ﷺ فى نسبه الشريف. ومن جهة أمه إلى حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم. فهو من قريش أبا وأما فى الذرة والسنام،وكانت لقريش فى الجاهلية مفاخر معروفة، ومكارم معدودة، تنتقل فى بيوتها من جيل إلى جيل ومن بطن إلى بطن، وقد اتصل الشرف من تلك البيوت إلى عشرة رهط من عشرة أبطن، وهؤلاء الرهط هم الذين انتهت إليهم مكارم قريش فى الجاهلية، واتصلت بالإسلام

وعمر بن الخطاب كان من أولئك الرهط، وكانت إليه السفارة فى الجاهلية، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيرا، وأن نافرهم حى لمفاخرة جعلوه منافرا ورضوا به. كما كانت الأشناق، وهى الديات، والمغرم لأبى بكر الصديق، فكان إذا احتمل شيئا فسأل فيه قريشا صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه، وأن احتملها غيره خذلوه. ولعباس بن عبد المطلب سقاية الحاج فى الجاهلية وبقى له ذلك فى الإسلام. ولعباس بن طلحة اللواء، والسدانة مع الحجابة. ولخالد بن الوليد القبة والأعنة، فأما القبة فأنهم كانوا يضربونها، ثم يجمعون إليها ما يجهز به الجيش، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش فى الحرب. كما كان لأبى سفيان بن حرب العقاب وهى راية قريش. وكما كانت الرفادة، والمشورة، والندوة والأيسار، والأموال المحجرة لآلهتهم والحكومة لآخرين. فهذه مكارم قريش فى الجاهلية يتوارثونها كابرا عن كابر، وكان كل شرف من شرف الجاهلية أدركه الإسلام وصله لهم، وقد عرفت مكانة عمر من الشرف فى قريش منزلة ونسبا

ولم يزل اسمه فى الجاهلية والإسلام عمر، وكناه رسول الله ﷺ أبا حفص، وكان ذلك يوم بدر، كما لقبه بالفاروق.

وكان عمر فى قومة مشهوراً بالشدة، قوى الشكيمة، لا يرام ما وراء ظهره، وكانت قريش معادية للرسول ﷺ، عمر وأبو جهل كانا من أشد رجالات قريش عداوة له واضطهاداً، حتى كان المسلمون قبيل إسلام عمر بن الخطاب يجتمعون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم المخزومى فى أصل الصفا، مستخفين لقلتهم ولشدة قريش عليهم، وكانوا لقلتهم فى حاجة إلى الاستكثار من ذوى العصبية والجرأة والإقدام من رجالات قريش ليستطيعوا إعلان دينهم، والذود عن نبيهم

وكان النبى ﷺ يتوقع خيراً للمسلمين بإسلام أحد الرجلين، عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام، فكان يقول: "اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك – عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام" يعنى أبا جهل

مما تقدم تعلم كيف كانت عداوة عمر للإسلام وخصومته للمسلمين، وشدته عليهم، ومنزلته عند الرسول، حتى دعا الله أن يعز الإسلام به، أو بعمرو بن هشام. فاستجاب الله دعاءه، وأعز الإسلام بأحب الرجلين إليه، وهو العبد الموفق عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فأسلم فى ذى الحجة لست سنين من البعثة، قيل وبإسلامه أتم عدة أربعين رجلاً مسلماً، ومعهم ثلاث وعشرون امرأة، وكانت سنه ستة وعشرين عاماً

ولإسلامه قصة عجيبة يحسن إيرادها هنا، وقد وردت فيها روايات كثيرة نورد منها ما أخرجه الحافظ عز الدين الجزرى فى "أسد الغابة" عن أسامة بن زيد عن جده، قال: قال لنا عمر بن الخطاب: "أتحبون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامى؟ قلنا: نعم. قال: "كنت من أشد الناس على رسول الله ﷺ، فبينا أنا يوماً فى يوم حار شديد الحر بالهاجرة فى بعض طرق مكة، إذ لقينى رجل من قريش فقال: أين تذهب يا ابن الخطاب؟ إنك تزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر فى بيتك! قلت: وما ذاك؟ قال: أختك قد صبأت. فرجعت مغضباً وقد كان رسول الله ﷺ يجمع بين الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه، ويصيبان من طعامه، وقد كان ضم إلى زوج أختى رجلين. فجئت حتى قرعت الباب، فقيل: من هذا؟ قلت ابن الخطاب، وقد كان القوم جلوساً يقرأون القرآن فى صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتى تبادروا واختفوا. وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم فقامت المرأة ففتحت لى، فقلت: يا عدوة نفسها قد بلغنى أنك صبون. فأرفع شيئاً فى يدى فأضربها به فسال الدم، فلما رأت المرأة الدم بكت، ثم قالت: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً ما تفعل فافعل فقد أسلمت، فدخلت وأنا مغضب فجلست على السرير، فنظرت فإذا بكتاب فى ناحية البيت، فقلت ما هذا الكتاب؟ أعطينيه، فقالت: لا أعطيك. لست من أهله، أنت لا تغتسل من الجنابة، ولا تطهر، وهذا لا يمسه إلا المطهرون. فلم أزل بها حتى أعطتنيه فإذا فيه "بسم الله الرحمن الرحيم"

فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدى، ثم رجعت إلىّ نفسى فإذا فيها "سبح لله ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم". فكلما مررت باسم من أسماء الله عز وجل ذعرت، ثم ترجع إلىّ نفسى حتى بلغت "آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه" حتى بلغت قوله: "إن كنتم مؤمنين" فقلت أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه منى، وحمدوا الله عز وجل، ثم قالوا: يا ابن الخطاب ابشر فإن رسول الله ﷺ دعا يوم الاثنين فقال" "اللهم أعز الإسلام بأحد الرجلين" إما عمرو بن هشام، وإما عمر بن الخطاب. وإنا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك فأبشر. فلما عرفوا منى الصدق، قلت لهم: اخبرونى بمكان رسول الله ﷺ، فقالوا: هو فى بيت أسفل الصفا وصفوه فخرجت حتى قرعت الباب، قيل: من هذا؟ قلت ابن الخطاب وقد عرفوا شدتى على رسول الله ﷺ ولم يعلموا بإسلامى، فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "افتحوا له، فإنه إن يرد الله به خيراً يهده" ففتحوا لى، وأخذ رجلان بعضدى حتى دنوت من رسول الله ﷺ، فقال: أرسلوه، فأرسلونى. فجلست بين يديه، فأخذ بجمع قميصى فجذبنى إليه، قلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة وكانوا قبل ذلك مستخفين، ثم خرجت فكنت لا اشاء أن ارى رجلاً أسلم يضرب إلا رايته، فلما رأيت ذلك، قلت: لا أحب إلا أن يصيبنى ما يصيب المسلمين فذهبت إلى خالى (يعنى أبا جهل بن هشام) وكان شريفاً فيهم، فقرعت الباب عليه، فقال: من هذا؟ فقلت: ابن الخطاب، فخرج إلىّ، فقلت له: أشعرت بأنى صبوت؟ قال: فعلت؟ فقلت: نعم، قال: لا تفعل؟ قلت: بلى قد فعلت، قال: لا تفعل، فأجاف الباب دونى وتركنى. فلما رأيت ذلك انصرفت، فقال لى رجل، تحب أن يعلم إسلامك؟ قلت: نعم، قال: فإذا جلس الناس فى الحجر واجتمعوا أتيت رجلاً لم يكن يكتم السر، فأصغ إليه، وقل له فيما بينك وبينه أنى قد صبوت، فإنه سوف يظهر عليه ويصيح ويعلنه. فاجتمع الناس فى الحجر، فجئت الرجل فدنوت منه فأصغيت إليه فيما بينى وبينه، فقلت: أعلمت أنى صبوت؟ فقال: ألا إن عمر بن الخطاب قد صبا. فمازال الناس يضربوننى وأضربهم، فقال خالى: ما هذا؟ فقام على الحجر فأشار بكمه فقال: ألا إنى قد أجرت ابن أختى، فانكشف الناس عنى وكنت لا أشاء أن أرى أحداً من المسلمين يضرب إلا رأيته وأنا لا أضرب فقلت: ما هذا بشئ حتى يصيبنى مثل ما يصيب المسلمين، فأمهلت حتى إذا جلس الناس فى الحجر، وصلت إلى خالى فقلت: اسمع، فقال: ما أسمع؟ قلت: جوارك عليك ردّ، فقال: لا تفعل يا ابن أختى، قلت: هو ذاك، فقال: ما شئت. قال: فما زلت اضرب واضرب حتى أعز الله الإسلام.

وروى عن عائشة رضى الله عنها أن عمر لما أسلم قال: يا رسول الله، علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل؟ فقال: يا عمر إنا قليل، فقال عمر: والذى بعثك بالحق نبياً

لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان. ثم خرج فطاف بالبيت، ثم مر بفريق وهم ينظرونه، فقال أبو جهل بن هشام: زعم فلان أنك صبوت، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. فوثب المشركون، فوثب عمر على عتبة بن ربيعة فبرك عليه وجعل يضربه، وأدخل أصبعه فى عينيه، فجعل عتبه يصيح، فتنحى عنه الناس، فقام عمر فجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ شريف من دنا منه حتى أحجم الناس عنه، واتبع المجالس التى كان يجلس فيها، فاظهر الإيمان، ثم انصرف إلى النبى ﷺ وهو ظاهر عليهم، فقال: ما يحبسك بأبى أنت وأمى؟ فوالله ما بقى مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا ظهرت فيه بالإيمان غير هائب ولا خائف. فخرج رسول الله ﷺ، وعمر أمامه وحمزة بن عبد المطلب حتى طاف بالبيت، وصلى الظهر معلنا، قالوا: فنظرت قريش إلى حمزة وعمر، فأصابهم كآبة شديدة. ومن يومئذ سماه رسول الله ﷺ الفاروق، لأنه أظهر الإسلام، وفرق بين الحق والباطل

فقد روى عن ابن عباس قال: سألت عمر: لأى شئ سميت الفاروق؟ فقال: :اسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام، ثم شرح الله صدرى للإسلام، فقلت: الله لا إله إلا هو له الأسماء الحُسنى، فما فى الأرض نسمة هى أحب إلىّ من نسمة رسول الله ﷺ، فقلت: أين رسول الله ﷺ؟ قالت أختى: هو فى دار الأرقم بن أبى الأرقم عند الصفا، فأتيت الدار، وحمزة فى أصحابه جلوس فى الدار، ورسول الله ﷺ فى البيت، فضربت الباب، فاستجمع القوم، فقال لهم حمزة: مالكم؟ قالوا: عمر بن الخطاب، قال: فخرج رسول الله ﷺ، فأخذ بمجامع ثيابه، ثم نترة نترة، فما تمالك أن وقع على ركبته، فقال: فما أنت بمنته يا عمر؟ قال: اشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واشهد أن محمد عبده ورسوله، قال: فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد. فقلت: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال: بلى، والذى نفسى بيده أنكم على الحق إن متم وإن حييتم، قلت: فيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجناه ﷺ فى صفين، حمزة فى أحدهما، وأنا فى الآخر ولى كديد ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت قريش إلىّ وإلى حمزة، فأصابهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسمانى رسول الله ﷺ يومئذ بالفاروق، فرق الله بى بين الحق والباطل. أخرجه صاحب الصفوة والرازى

وعن ابن مسعود قال: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر، وعنه قال: كان إسلام عمر فتحاً، وهجرته نصراً، وإمارته رحمة، لقد رأيتنا ولم نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر،

فما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا

ذلك ما أردنا أن ننقله من مصادره فى نصرة عمر للإسلام والرسول، وذلك قل من كثر وهو فى جملته يدل على منزلة عمر فى قومه، وسمو شرفه فى قبيلته، وعلى ما أصاب المشركين من الضعف والوهن بإسلامه، فقد روى عن ابن عباس أنه قال: لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا، وأنزل الله "يا أيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين" والواقع أنه بإسلامه رجحت كفة المؤمنين على كفه المشركين، ولهذا رأيناهم بعد أن كانوا يعبدون الله مستخفين فى دار ابن الأرقم خرجوا من مكمنهم، وأعلنوا إسلامهم، ودعوا الناس إليه معلنين ظاهرين. ذلك لأن عمر بارز خصوم الإسلام من قريش ونافح عنه بصدره وسلاحه، وقال للمسلمين: لا نعبد الله سراً بعد اليوم. وكان عمر عند ذلك ينصب رايته للحرب بمكة، ويحاربهم على الحق، ويقول لأهل مكة: والله لو بلغت عدتنا ثلثمائة رجل لتركناها لكم، ولقد ظل عمر بعد إسلامه، قوى الجرأة، شديد الوطأة على المشركين، حتى أذن الله بالهجرة لرسول الله ولأصحابه، فجعلوا يهاجرون مستخفين إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى فى يده أسهما، واختصر عنزته، ومضى قبل الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلى متمكنا، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة، وقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلى هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه، أو ييتم ولده، أو ترمل زوجه، فليتبعنى وراء هذا الوادى، فلم يتبعه أحد إلا قوم من المستضعفين، علمهم ما أرشدهم، ثم مضى لوجهه.

وجعل عمر بعد الهجرة يذود عن الحق، ويصول على الباطل، وينافح عن الرسول ﷺ، ولقد وقعت له حوادث مع المنافقين الذين يتندرون على رسول الله، ويكيدون له، كانت مضرب المثل فى الشجاعة والبأس، وحسن الصحبة والوفاء للمعصوم ﷺ.

هذا هو عمر بن الخطاب عدو الإسلام، وهو هو عمر بن الخطاب ناصر الإسلام، لا هوادة لأحد من الناس عنده فى حق، عزيز الجانب، قوى العزيمة، منيع لا ينال، صلب فى جاهليته وإسلامه.

خلافته

كان أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه قد عهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب قبل وفاته، فوليها يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الأخرة يوم وفاة أبى بكر، ولما تلى كتاب العهد على المسلمين بايعوه جميعا، ولم ينكل عن بيعته أحد من المهاجرين والأنصار، مع أنه كان توقف بعضهم عن بيعة أبى بكر حالة كونها شورى بين المسلمين وإنما رضى المسلمون بعهد أبى بكر لعمر بن الخطاب، وإن خالف قاعدة الشورى وتسامحوا بحق انتخابهم الخليفة لأمرين:

(الأمر الأول) توقعهم الخلاف على الخلافة بين النفر المتطلعين إليها من المهاجرين السابقين فيما لو تركت شورى تتنازعها الأهلية وتتجاذبها العصبية، وقيام العذر لأبى بكر فى عدم تركها شورى لهذا السبب الذى استشعر به قبل وفاته.

(والأمر الثانى) تفرس المسلمين فى عمر الكفاءة على القيام بهذا الأمر واقتداره على سد ذرائع الفتنة، كما تفرس فيه ذلك أبو بكر وكبار الصحابة الذين استوثق له منهم قبل عهده إليه بالخلافة وقد صدقت فى عمر رضى الله عنه فراستهم وتحقق بكفاءة رجاؤهم، فجاءت خلافته رحمة على الأمة.

أخرج الحافظ بن عساكر عن أبى عبيدة قال: قال عبد الله بن مسعود: أفرس الناس ثلاثة. الملك حين تفرس فى يوسف والقوم فيه زاهدون. والمرأة التى تفرست فى موسى فقال (يا ابت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين) وأبو بكر حين تفرس فى عمر فاستخلفه.

نعم قد استاء بعضهم من استخلاف أبى بكر لعمر إلا أن استياءهم لم يكن لفقد الكفاءة ممن أسندت إليه الخلافة وإنما كان لصرفها عنهم أو خوفاً من شدة عمر عليهم، ومع هذا فإن أبا بكر رضى الله عنه لم يقض إلا بعد أن جعل الساخط راضياً، فقد أخرج الإمام أبو الفرج بن الجوزى فى السيرة العمرية وابن عساكر فى تاريخه عن عاصم قال: جمع أبو بكر الناس وهو مريض فأمر من يحمله إلى المنبر ، فكانت آخر خطبة خطب بها فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس احذروا الدنيا لا تثقوا بها فإنها غرارة، وآثروا الأخرة على الدنيا وأحبوها فبحب كل واحدة منهما تبغض الأخرى، وإن هذا الأمر الذى هو أملك بنا لا يصلح آخره إلا بما صلح به أوله، ولا يتحمله إلا أفضلكم مقدرة وأملككم لنفسه أشدكم فى حال الشدة وأسلسكم فى حال اللين، وأعلمكم برأى ذوى الرأى، لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ولا يستحى من التعلم، يتحير عند البديهة، قوى على الأمور لا يجوز لشئ منها حده بعدوان ولا

لشئ منها حده بعدوان ولا تقصير يرصد لما هو آت عتاده[1] من الحذر والطاعة (وهو عمر بن الخطاب) ثم نزل فحمل[2] الساخط إمارته الراضى بها على الدخول معهم توصلا.

ومن هذا يعلم أن أبا بكر إنما اختار للخلافة عمر رضى الله تعالى عنهما علماً بحقيقته وسداً لذرائع الفتنة، وطلباً لخير المسلمين ومصلحتهم لا محاباة ولا لغرض آخر كما شهد بذلك على بن أبى طالب ﷺ فقد أخرج الحافظ عز الدين الجزرى فى أسد الغابة عن سويد بن غفلة الجعفى أنه دخل على على بن أبى طالب فى خلافته فقال يا أمير المؤمنين إنى مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر بغير الذى عما أهل له من الإسلام فقام (أى على) فخطب الناس خطبة طويلة، مما جاء فيها عن أبى بكر واستخلافه لعمر، قوله (حتى حضرته الوفاة فرأى أن عمر أقوى عليها ولو كانت محاباة لآثر بها ولده) إلى آخر كلامه.

وهذا الذى تحقق عند المسلمين من حسن نية أبى بكر وكفاءة عمر، دعاهم إلى رضا ببيعته، والإتفاق على قبول خلافته، وإن خالفت قاعدة الشورى بين المسلمين، وقد قام رضى الله عنه بهذه الوظيفة السامية قياماً محموداً، لا يجاريه فيه أحد من قادة الأمم، وساسة الحكومات، بل كان من عظيم أثره وأثر أبى بكر فى الخلافة الإسلامية أن كانا مثلاً لمن بعدهما يضرب بالعدل وحسن السياسة وحجة على من تنكب طريقها من الخلفاء وخالف سيرتهما من الأمراء.

أخرج فى أسد الغابة عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال "إن الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة إلى يوم القيامة، فسبقا والله سبقاً بعيداً وأتعبا والله من بعدهما إتعاباً شديداً، فذكر هما حزن للأمة وطعن على الأئمة".

وقد صدق رضى الله تعالى عنه فيما قال، فإنه لم يخرج قوماً من المسلمين على الأمراء بعد ذينك الخليفتين إلا مطالبين بمثل عدلهما محاجين بسيرتهما، حتى فريق الخوارج الذين يذهبون إلى عدم الحاجة إلى الإمام، كانوا يحتجون على الخلفاء بسيرة الإمامين الأولين، وأول ما خرجوا كان خروجهم على على رضى الله عنه. هذا على مكانته من الدين وتقواه وعدله. حتى إن الخوارج لم يستطيعوا أن يأخذوا عليه فى سيرته إلا مسألة التحكيم التى لم تنبعث فى الحقيقة إلا عنهم.

وحسب عمر ﷺ من خلافته أن يكون مثلاً فى العدل وحُجة على الخلفاء والولاة من

---

(١) بفتح العين الذخيرة المعدودة لوقت الحاجة

(٢) هكذا فى السيرة العمرية وفى تاريخ ابن عساكر

والولاة من بعده، بل حسبه من سيرته فخراً وذكراً أن كل المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو المنصفين من غير المسلمين، اجمعوا على أنه أعدل من ساس الأمم وأعظم رجل في الإسلام، ولو قدر المسلمون قدر هذا الرجل العظيم الذى يفتخر به تاريخ الإسلام، لشيدوا باسمه الآثار العظيمة فى كل مكان ليبقى ذكره حياً بين الناس كما هو حى فى التاريخ. وبعد فإن أحط البشر عقولاً وأضعفهم بصيرة الذين يطعنون فى ذلك الرجل العظيم الذى أصبح فى حسن السيرة مثلاً فى العالمين وحُجة على الخلفاء والسلاطين، فأى عار على المسلمين بإزاء الأمم الأخرى أن يكون فيمن ينتسب للإسلام جماعة يقدمون بمثل عمر ابن الخطاب على تفرده بالشهرة، وجلالة قدره، وجلائل أعماله وآثاره، وسيفه بالإيمان، وخدمته للإسلام فى صحبته وخلافته، حتى كان غرة جبين التاريخ الإسلامى وذكرى الفخر الغابر الخالدة، مع أن الإسلام يبرأ إلى الله من أمثال تلك الفرق التى أسس نحلتها ابن سبأ اليهودى وأضرابه من أعداء الإسلام، ومريدى الشر بالمسلمين، ولا يزال أولئك الناس يدعون النسبة إلى الإسلام، وهو يبرأ إلى الله من نحلتهم الفاسدة التى لا يقبلها ذو عقل ولا تنطبق على دين، ولا حكمة، وإنما هو التقليد الأعمى، والجهل يفعلان فى العقول والأوهام ما لا تفعله السموم فى الأجسام.

آثاره فى الخلافة

١ - كتابة التاريخ الهجرى

لم يكن للعرب قبل الإسلام تاريخ يؤرخون به إلا الحوادث الشهيرة عندهم فإنها كانت بمثابة التاريخ. فكانوا يقولون حدث ذلك فى عام الفيل مثلاً وولد فلان بعد عام الفجار بكذا وهلم جراً، واستمر ذلك فى الإسلام إلى مضى سنتين ونصف من خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أى إلى سنة ست عشرة من الهجرة وفيها رأى عمر لزوم وضع التاريخ لضبط الحوادث بعد إذ انتشر الإسلام وكثر الفتح ومست الحاجة لضبط الشئون والأعمال فى الحكومة الإسلامية، فجمع الصحابة الكرام واستشارهم فى ذلك وسألهم من أى يوم نكتب التاريخ فأشار عليه على بن أبى طالب رضى الله عنه بأن يجعل التاريخ من السنة التى هاجر بها رسول الله ﷺ إلى المدينة ففعل.

٢ - تدوين الدواوين وفرض العطاء:

من البديهى أن حاجات الدولة تترقى بترقى العمران وامتداد السلطان، وقد كانت دولة الإسلام فى خلافة أبى بكر وصدر من خلافة عمر فى مبادئ الظهور وسذاجة البيئة وعدم اتساع السلطان، ولم يكن لها من الدخل والخرج إلا الصدقة التى كانت تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء وأما الغنايم والفئ فكانت قليلة لم تحوج أخماسها التى يبعث بها للمدينة إلى صرف العناية فى ترتيب الشؤون الإدارية على أصول الدول المترقية يومئذ كفارس والروم، وإنما كانت العناية منصرفة إلى الشؤون الحربية والفنون العسكرية، ولما توسع المسلمون فى الفتح وانتشروا فى الممالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت فى مناحى العمران وأخذ يزداد الفئ من الخراج والجزية زيادة لا طاقة للخليفة وأمرائه بضبطها ولا قبل لهم بإحصاء مستحقيها وتوزيع الأعطيات (المرتبات) على أربابها بالعدل إلا بضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وقيدها فى قيود خاصة، دعا عمر رضى الله عنه الصحابة واستشارهم فى كيفية تدوين الديوان. فقال على بن أبى طالب تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال ولا نمسك منه شيئاً، وقال عثمان: أرى مالاً كثيراً يسع الناس، وإن لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الأمر (ينتسط أو يلتبس): فقال له الوليد ابن هشام بن المغيرة قد جئت الشام، فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً فدون ديواناً وجند جنداً، فأخذ بقوله، فدعا عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم، وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا، والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العضية كما فى القاموس، وتوسعوا بمسماه بعد فاطلقوه على كل دفاتر الحكومة الإدارية وغيرها، ثم على المكان الذى يكون

فيه الديوان فسموه ديواناً.

ولما كتبت الدواوين كتب الشام بالرومية، وديوان العراق بالفارسية، واستمر كذلك إلى عهد عبد الملك بن مروان فى الشام والحجاج ابن يوسف عامله على العراق فنقله عبد الملك فى الشام الديوان إلى العربية ونقله الحجاج فى العراق إلى العربية وسببه كما نقل ذلك فى فتوح البلدان أن عبد الملك بن مروان بلغه عن أحد كتاب الروم أمر ساءه فأمر سليمان ابن سعد ينقل الديوان إلى العربية فسأله أن يعينه بخراج الأردن سنة ففعل ذلك وولاه الأردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله، وأتى به عبد الملك ابن مروان فدعا بسرجون كاتبه فعرض عليه ذلك فغمه وخرج من عنده كئيباً، فلقيه قوم من كتاب الروم، فقال اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله منكم.

وكذلك فعل الحجاج فى العراق، والذى نقله له إلى العربية هو صالح ابن عبد الرحمن مولى بنى تميم، وكان يكتب بين يدى زادان فروخ الفارسى كاتب الحجاج، ولما قصد نقل الديوان إلى العربية بذل له مدان شاه بن زادان مائة ألف درهم، على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك فأبى ونقله، والقصة طويلة سترد فى سيرة الحجاج إن شاء الله.

وأنت تعلم أن قوام الدولة هو المال وروحها التى تختلج فى جسمها فتدير حركته هو الديوان، ومع هذا فلما لم يكن العرب يومئذ فى الدرجة التى تؤهلهم لإدارة شؤون الديوان على أصول الدول المترقية فى الحضارة عهد الخلفاء بهذا العمل إلى الأعاجم من الفرس والروم وضوا بكتابة الديوان بلغة الكتاب الغريبة عن لغتهم مع مافى هذا من الغبن الظاهر وتعريض أموال الدولة لتلاعب الكتاب، وإنما دعاهم إلى تسليم الدواوين إلى الأعاجم وترتيبها على نحو ترتيب دولتى الفرس والروم ضرورة التوسع فى الفتح والترقى فى مراقى الحضارة والخروج عن حالة البداوة إلى حالة تستلزم تقليد الأمم الراقية فى وسائل العمران، إذ لم يروا لهم مندوحة عن هذا الأمر كما لم يروا مانعاً فى الدين يمنعهم من مباراة الأمم فى أصول الحضارة والمدنية وأخذ العلم النافع ولو عن مشركى الفرس. ومن البلاء أن ألصق بعض الفقهاء بعد كل شئ من أمورنا الدنيوية بالدين وحرموا على الأمة العمل بأى شئ نافع مادام لم يصبغ بصبغة إسلامية ولو تمحلا:

ولو كان الدين يضيق على هذه الامة إلى الحد الذى نوهمه أولئك الفقهاء لم قلد عمر رضي الله عنه الفرس والروم فيما اقتضته حاجة الدولة فى عصره، من وضع التاريخ والديوان وترتيب الجيوش وإعداد العدة الحربية ونحو ذلك. وإذا قيل إن عمر رضى الله عنه مجتهد له أن يفعل بمل يرى فيه المصلحة وعلى الأمة أن تعمل، فكيف ساغ لمثل الحجاج بن يوسف أن يبدل أمراً اجتهد به الخلفاء الراشدون وأقروه فأصبح شرعاً لا ينبغى لأحد سواهم التصرف فيه والعدوان عنه.

التصرف فيه والعدول عنه.

اللهم إن طبيعة الاجتماع تقضى بأخذ الأمم بعضها عن بعض كل ما يصلح للترقى فى مراقى الكمال، وشأن الأمم هذا شأن الأفراد فى إحراز العلم بالمسابقة والاكتساب، ومعاذ الله أن يرضى الإسلام بالحرج للمسلمين ويمنعهم عن المسابقة مع السابقين ليكونوا أدنى الأمم والشعوب، وإنما توهم بعضهم أن من لوازم الدين صبغ كل شئ بصبغة الدين جعلنا نتحكم بعقولنا القاصرة فى الدين ونعتقد أن الأخذ بأى سبب نافع من أسباب المدنية التى نتوصل بها إلى مسابقة الأمم والغلبة على الدول زيغ عن صراط الدين، حتى بلغ بنا هذا الاعتقاد الفاسد أن صرنا نحرم الأمر الذى يدعونا الدين إليه ويحثنا عليه.

هذا واما فرض العطاء فإن عمر امر بان يحصى الناس بالديوان ويبدأ من ذلك بالعباس عم النبى ﷺ، ومن يليه من ذوى القربى، ثم بأهل السابقة والذين حضروا الفتوح على درجاتهم التى اختارها لهم عمر، ثم بالفقراء والمساكين والنساء والأطفال كما هو مبين فى مظانه من كتب الأحاديث والتاريخ، وقال قائل لعمر يومئذ يا أمير المؤمنين لو تركت فى بيوت الأموال عُدة لكون إن كان: فقال كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقانى الله شرها، وهو فتنة لمن بعدى، بل أعد لهم ما أمرنا الله ورسوله. طاعة لله ورسوله فهما عدتنا التى بها أفضينا إلى ما ترون فإذا كان المال ثمن دين أحدكم هلكتم:

على أن العطاء على ذلك الوجه لم يستمر إلى مدة الخلفاء الراشدين، ثم لما تغير حال الدول وانتشر الإسلام وكثر المسلمون خص الخلفاء العطاء من غير الخُمس بطبقة الجند فقط على نسبة اختاروها لا على نسبة الفئ كله، أى خصصوا لهذا قدراً مخصوصاً من الفئ يختلف باختلاف الدول، واستأثروا بالباقى وبالخُمس لإنفاقه فى وجوه المصالح العامة، فأن العطاء كان يعطى للمسلمين باعتبار أنه فئ أخذوه بسيوفهم إذ كانوا كلهم جنوداً محاربين فاتحين، ثم لما خصصت الجندية بطبقة مخصوصة من الناس تغير نظام العطاء أيضاً واضطر الدول بحكم الضرورة لاقتصاد الأموال وادخارها فى بيت المال لإنفاقها على المصالح الأخرى التى تقوم بها الدول وتقتضيها أبهة الملك، هذا بقطع النظر عما خصص منها للإنفاق على ترف الدولة وشهوات الملك لأن هذا تابع بالطبع لحال الملوك من عفة وشره وإمساك وبذل.

وأما الكلام على الفئ الذى هو أصل العطاء وعلى حكمه وحكم الخُمس وما هو وحكم الجزاء أو الجزية المستثناه من الخمس إلى غير ذلك مما يتعلق بهذا البحث فمبسوط فى كتب الفقه وكتب التفسير المطولة فليرجع إليه من أحب.

وإنما زيادة فى الفائدة نقول هنا إن الفئ هو كل ما صالح عليه العدو بعد وضع الحرب

أوزارها، وحكمه أن يرفع منه الخمس إلى الإمام ليقسمه بين أهله الذين نص عليهم القرآن، والباقى يوزع على الجند الفاتحين للبلاد والمرابطين فى الثغور والقائمين على حراسة الدولة إلا الجزية فإنها مستثناه من حكم الخمس، أى لا يرفع منها الخمس بل تعطى للجند القائمين بحماية أهل الذمة وحراسة البلاد.

واعلم أن الإسلام هو أول شريعة نصت على مصرف الفئ أى وجوه الصرف والإنفاق من أموال بيت المال ووضع ما يعرف الآن (بالبودجه) ومعناها تقرير وجوه النفقات السنوية للحكومة، فقد روى الطبرى فى تاريخه عن ابن عباس قال: لما فتحت القادسية ودمشق قال عمر للناس اجتمعوا فأحضرونى علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسية وأهل الشام فاجتمع رأى عمر وعلى على ان يأخذوا من قبل القرآن فقالوا ﴿مَّا أَفَاء اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ {الحشر/٧} يعنى من الخمس (فلله وللرسول) من الله الأمر وعلى الرسول القسم ﴿وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ {الأنفال/٤١}(ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الآية ثم فسروا ذلك بالآية التى تليها ﴿لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ ﴾{الحشر/٨} الآية فأخذوا الأربعة الأخماس على ما قسم عليه الخُمس فيمن بدئ به وثنى وثلث وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المغنم ثم استشهدوا على ذلك أيضاً: بقولها تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ﴾{الأنفال/٤١} فقسم الأخماس على ذلك واجتمع على ذلك عمر وعلى وعمل به المسلمون بعد.

هذا ما ذكره الطبرى وإنما كان عمل المسلمين بذلك مدة الخلفاء الراشدين وأما من يليهم إلى أواسط الدولة العباسية فقد عملوا بهذا بما وصل إليه الإمكان، ثم لما توسع أمر الدول وتبسط الخلفاء فى مناحى الحضارة، أخذ يتغير ذلك الترتيب كما علمت، هذا مما تقدم، وربما بدأ هذا التغيير فى عهد ولاية معاوية على الشام

٣- ترتيب العمال وتقسيم الولايات

لما تولى الخلافة عمر بن الخطاب كانت الحرب قائمة فى الشام، فجعل إمارة ما يفتح من الشام إلى أبى عبيدة وجعل إمارة الحرب فى كل جهة لأمير مخصوص، فجعل إمارة الحرب فى دمشق ليزيد بن أبى سفيان وإمارة الأردن لشرحبيل بن حسنة وإمارة فلسطين لعمرو بن العاص، إلا أن الإمارة العامة كانت لأبى عبيدة، فالمخابرة والصلح وكل ما يتعلق بأمور الحرب السياسية كان منوطاً به، ولما تم فتح الشام واستقرت فيها قدم المسلمين أبقى أبا عبيدة أميراً عاماً على الشام وجعل مقره حمصاً وأضاف إليه حند سقنسرين، ثم أضيف إلى هذا القسم جزء من الجزيرة لما فتحها عياض بن غنم وولى جند

قنسرين بعد وفاة أبى عبيدة ثم، جعل دمشق جنداً، وعليها يزيد بن أبى سفيان، ثم معاوية بعده، ثم جعل الأردن كذلك جنداً وفلسطين جنداً وقسمه إلى قسمين أحدهما حاضرته إيلياء والآخر حاضرته الرملة، والمراد من الجند هو أنهم كانوا يسمون كل ناحية بها جند يقبضون أرزافهم منها جنداً فبدلا من أن يقولوا ولاية قنسرية مثلاً يقولون جند قنسرين ويسمون الولاية أيضاً كورة جميعها كور، وروى الطبرى فى أخبار سنة (١٧هـ) أن عمر لما جاء الشام فى هذه السنة رتب الشواتى والصوائف (أى الجنود التى تغزو فى الصيف والجنود التى تغزو فى الشتاء) وسد فروج الشام ومصالحها وأخذ يدور بها واستعمل عبد الله ابن قيس على السواحل من كل كورة. أى على السواحل جميعها، سواء كانت تابعة لكورة دمشق أو غيرها.

وجعل أبا عبيدة على حمص وخالد بن الوليد تحت يديه على قنسرين وعلى دمشق يزيد بن أبى سفيان وعلى الأردن معاوية (بعد شرحبيل) وعلى فلسطين علقمة بن مجزز وعلى الأهراء[1] عمرو بن عبسة، وجعل على كل عمل عاملاً فقامت مسالح مصر والشام العراق على ذلك الترتيب الذى رتبه عمر رضى الله عنه إلى عهد العباسيين.

وذكر فى فتوح البلدان أن معاوية كتب إلى عمر بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل، فكتب إليه فى مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها وإقامة الحرس على مناظرها[2] واتخاذ المواقيد لها.

وكذلك كان تقسيم العراق وفارس، فكان ذلك الوجه قسمين قسم تابع للبصرة وعليه عتبة بن غزوان ثم المغيرة بن شعبة ثم أبو موسى الأشعرى، وقسم تابع للكوفة وعليه سعد بن أبى وقاص ثم عمار بن ياسر ثم غيره وغيره، وكانت عمالة عامل هذا القسم أى الكوفة كما فى رواية ابن جرير الطبرى تمتد ما بين الكوفة وحلوان والموصل وماسبذان وقرقيسياء إلى البصرة، ثم امتدت هذه العمالة حتى تجاوزت فارس الغربية وكانت تقسم إلى أقسام عليها عمال من قبل عامل الكوفة، وكانت مسالحها وثغورها مما يلى الجزيرة وأرمينيا الموصل وقرقيسياء وثغورها فيما يلى فارس تابعة لتقدم الجيوش فى الفتح

---

(١) المخازن التى تخزن فيها الحبوب وغيرها من أموال الفئ

(٢) المناظر وتسمى لهذا العهد المناظير هى قباب مبنية على رءوس الجبال العالية بين كل بلد وآخر، بحيث يتقارب بعضها من بعض، ويشرف بعضها على بعض وكان يقام فيها كل حراس يوقدون النار عندما يرون إقبال العدو من جهتهم، فيوقد حراس المنظار الذى يليهم كذلك يوقدون النار عندما يرون إقبال العدو من جهتهم، فيوقد حراس المنظار الذى يليهم كذلك وهكذا حتى يصل الخبر إلى المدينة أو الثغر أو المسلحة فى زمن قليل، فيسرعون لإمداد الجهة التى أقبل منها العدو ولم تزل آثارها قائمة إلى الآن فى كثير من أنحاء سوريا.

وتجاوزها حدود البلاد الإسلامية بالطبع.

وكان يتبع كل أمير حرب كاتب وقاض يقضى بين الناس ويتبعه أمير يسمى عامل الأقباض يحصى الغنائم فإذا فتحت البلاد وتقررت الجباية كان عامل الخراج وكان عامل الأقباض فى حرب فارس السائب بن الأقرع وعامل الخراج النعمان بن مقرن ثم غيره وغيره.

وأنت ترى أن ذلك الترتيب هو غاية فى إصابة الغرض وبعد النظر فى تنظيم شئون الدولة بالنسبة لذلك العصر. وربما نجا عمر رضى الله عنه فى بعضه نحو فارس والروم ولعله بدئ ساذجاً ثم ترقى بترقى المسلمين وتقدمهم فى الفتح فى خلافة عمر رضى الله عنه بحيث تم هذا الترتيب فى سنة (١٧).

ضرب النقود:

كانت العرب قبل الإسلام تتعامل بالنقود الفارسية والرومية من الدرهم والدينار واستمر ذلك إلى أن جاء الإسلام ومضى صدر من خلافة عمر وكان الشائع استعماله بينهم يومئذ الدراهم البلغية وهى دراهم فارس وكان وزن هذا الدرهم زنة مثقال من الذهب، فلما كانت سنة (١٨هـ) ضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير أنه زاد فى بعضها الحمد لله وفى بعضها محمد رسول الله، وجعلها فى أواخر خلافته كل عشرة دراهم بزنة سبعة مثاقيل كما ذكر المقريزى فى النقود الإسلامية، إلا أن عمر رضى الله عنه لم يضرب الدينار وإنما ضربت الدنانير على عهد عبد الملك بن مروان. وأما نسبة الدرهم إلى الدينار فقد كانت تختلف باختلاف الزمان.

وضع البريد:

البريد اسم للمسافة التى بين كل محطة وأخرى من محطات البريد، وهو أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلاً، ثم أطلق على حامل الرسائل وتوسعوا به فاطلقوه على أضبار (أكياس) البريد. وأصله، على ما يقال من وضع الفرس، والذى رتبه دارا ملك الفرس فى القرن الخامس قبل الميلاد، ثم استعمله الرومان وغيرهم من الأمم.

ثم استعمل فى الإسلام وأقيم له عامل مخصوص يسمى عامل البريد، وهو منفصل عن سلطة الولاة مكلف خلا أعمال البريد بنقل أخبار الولاة والبلاد لدار الخلافة، وأن يكتب المهم من هذه الأخبار للخليفة ليكون على علم بأموال الرعية والولاة، وقد كانت هذه الوظيفة تارة للصاحب البريد وتارة منفصلة عنه يسمى عاملها صاحب الأخبار.

وروى المؤرخون أن أول من وضع البريد فى الإسلام هو معاوية بن أبى سفيان،

ولعله هو أول من رتبه على أصول معروفة ووضع له الخيل وأقام له المحطات، وإلا فالبريد استعمله عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل معاوية، إذ قد جاء ذكره كثيراً فى سيرته، وفى مناقب عمر للإمام ابن الجوزى أن عمر لما أبعد نصر بن حجاج عن المدينة إلى البصرة بسبب تغزل بعض النساء به قلق نصر للرجوع إلى المدينة، وكتب عمر إلى عامله بالبصرة كتابا فمكث الرسول عنده أياماً ثم نادى مناديه، ألا إن بريد المسلمين يريد أن يخرج فمن كانت له حاجة فليكتب، فكتب نصر بن حجاج كتابا ودسه فى الكتب إلى أمير المؤمنين.

فمن هذا الخبر وغيره يستدل على أن أول واضع للبريد فى الإسلام هو عمر بن الخطاب إلاأنه ربما لم يكن على الوجه الذى كان بعد، ولم يبلغ من الإتقان مبلغه فى عصر الأمويين والعباسيين وإنما هو بدئ ساذجاً ثم ترقى بترقى الزمان.

٦ـ تمصير البصرة والكوفة:

مصرت البصرة سنة (١٥هـ) عن يد عتبة بن غزوان بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان فى مكانها محل يمسى الخريبة تقيم فيه مسالح كسرى لتمنع العرب من اليمن ومصرت الكوفة سنة (١٧هـ) عن يد سعد بن أبى وقاص، وكان البناء أولاً بالقصب فدب الحريق فى الكوفة والبصرة فأرسل سعد إلى عمر نفراً يستأذنونه فى البنيان باللبن (الطوب) فقال افعلوا ولا يزيد أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا فى البنيان وكتب إلى أهل البصرة بمثل ذلك فخططوا المناهج (الشوارع) على عرض عشرين ذراعاً وطول أربعين ذراعاً والأزقة سبعة أذرع والقطائع ستين ذراعاً وبنوا المسجد الجامع فى الوسط بحيث تتفرع الشوارع، وكان أمرهم عمر بتخطيط الشوارع على ذلك الوجه إلا أنه لما ازدحمت الشوارع وكان أمرهم عمر بتخطيط الشوارع على ذلك الوجه إلا أنه لما ازدحمت السكان فى المدينتين أخلوا بذلك الأصل ولم يراعوا حالة التنظيم، فتقدموا فى البناء فى الشوارع والساحات حتى ازدحمت المنازل وضاقت الشوارع واختلت أصول التنظيم التى وضعها لهم عمر رضى الله عنه وإنما كان الباعث على ذلك بعد القوم عن أسباب الحضارة وعدم مراعاتهم لأصول التأنق فى البنيان لقرب عهدهم بالبداوة وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلا بهذا الصدد فى مقدمته الشهيرة أغنانا عن الكلام فليرجع إليه من شاء.

٧ـ التوسعة فى المسجدين:

فى سنة (١٧هـ) حج عمر رضى الله عنه فبنى المسجد الحرام ووسع فيه وهدم على قوم أبوا أن يبيعوا دورهم، ووضع أثمان دروهم فى بيت المال حتى أخذوها واستأذنه أهل

المياه التى على الطريق بين مكة والمدينة، فى أن يبنوا منازل فى هذا الطريق فأذن لهم وشرط عليهم أن ابن السبيل أحق بالظل والماء، وكذلك صنع بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه هدمه ووسع فيه وأدخل دار العباس فيما زاد فيه.

جملة مآثر:

ومن مآثره أن أقام دور الضيافات وأدر عليها الأرزاق: عن ابن سعد قال اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج إليه يعين به المنقطع ووضع فيما بين مكة والمدينة فى الطريق ما يصلح من ينقطع به، وفى بعض الروايات أنه فعل مثل ذلك أيضاً بالطريق بين الشام والحجاز (ومنها) أنه مر يوم مجيئه الشام على قوم من المجذمين ففرض لهم شيئاً من بيت المال ومنعهم بذلك عن التكفف بين الناس (ومنها) أمره عمرو بن العاص بمصر بحفر الترعة التى وصلت بين النيل وبين البحر الأحمر فى عام الرمادة، واستمرت كذلك إلى عهد الفاطميين ثم ردمت ومنها وضع الديوان وإقامة الكتاب له وفرض العطاء للعساكر المجاهدين وتقسيم الجيوش وترتيبها، وغير ذلك من الآثار الجليلة التى تمكن من إيجادها ذلك الخليفة العظيم مع اشتغاله بالفتوح وانصرافه همته لتوسيع نطاق سلطان الإسلام جزاه الله عن هذه الأمة خير الجزاء.

الحالة الاجتماعية على عهد عمر

كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر غيرها على عهد أبى بكر رضى الله عنهما إذ توطد على عهد الثانى للمسلمين الملك، وشيدت دعائم الدولة، وصارت تلك الأمة العربية المشهورة بالانقسام والتفريق والجهل بأمور الدولة، والانغماس فى الجهالة وسذاجة الفطرة سائسة ملك وربة سطوة ومجد ومقننة قانون وصاحبة دين جعلها أمة تذكر فى التاريخ بأنها أعظم الأمم، وكانت تلك الحياة العربية والجامعة الملية مع أنها بادية الظهور وتنمو بسرعة وتؤذن بانقلاب عظيم يحدث فى أنحاء العالم وتهتز له أركان الدول العظمى يومئذ، حيث اندفعت هذه الأمة بقوة الجامعة الإسلامية والاتحاد القومى على أطراف الممالك فى أحشاء بلادها وقلبت سرير ملكها وأزعجت قادتها ورؤساءها وألجأت للانكماش إلى أطراف البلاد الشرقية، والتخلى عن الملك أسرة الأكاسرة من ملوكها وانقضت من الثانية أطرافها وقاصت عن سوربة والجزيرة ومصر ظلها وهى تتقدم فى داخل بلادها وتتهدد بالهجوم عاصمة الإمبراطورة.

تأصلت فى تلك الممالك جذور الاستعباد وتناسى الروم معنى الحرية التى كان يقاتل دونها أسلافهم الرومان، ويدافعون عنها يد الإمبراطورة والملوك وخضع الفرس للأكاسرة، واستعبدوا لأشراف البلاد، فألف الفريقان حكم العبودية وفقدوا مبدأ الاعتماد على النفس والاستقلال الذاتى فى الحياة، فجاءهم العرب وقد امتزج فى دمائهم حب الحرية حتى ما يطيقون علو أمير المؤمنين عليهم واستئثاره بشئ من أمورهم دونهم فنفثوا فى روعهم روحاً جديدة من حب الاستقلال الذاتى والحرية الشخصية فهبوا كمن نشط من عقال فوضعوا ايديهم فى أيدى الغالبين علامة الشكر والوفاء، وشعروا حينئذ بأنهم بشر لا ينحطون فى الحقوق العامة عن مرتبة الأمراء، وبلغ بهم ذلك أن لما أهين رجل مصرى من ابن أمير مصر عمرو ابن العاص شخص إلى مقر الخلافة يشكوه ويطلب انتصافه منه، ولم يعد إلا بعد أن استنزل أباه عن منصة إمارته فقدم هو وابنه إلى المدينة وأقادا ذلك الفرد من الرعية بحضور الخليفة، وما نعلم أن قوماً بلغت بهم الحرية الشخصية يوماً مبلغها فى ذلك العصر وتمتعوا بعدل مثل ذلك العدل، وهو حال ما أهناه لتلك الأمم يومئذ من حال رفعهم من حضيض الذل والعبودية إلى ذرى العز والحرية وبشرهم بعصر جديد وسعادة ما عليها مزيد.

خالط العرب هذه الأمم ودال إليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة الحضارة واستشعروا الحياة المدنية للأمم الغالبة، وليس لديهم من ذلك إلا الاستعداد الفطرى لقبول الخير والشر والشرع الإلهى الذى دعاهم إلى الخروج من ظلمات البداوة، فأخذوا بحكم الضرورة يقلدون مجاوريهم فى العادات وبدءوا يبارونهم فى مضمار الحياة، وكان

مطمح نظرهم وأول عملهم بالطبع تقليد مجاوريهم فى الأمور الحربية واستعمال آلات القتال الفارسية والرومية، ليقابلوا القوة بمثلها ويعدوا لهذه الفتوح عدتها، ثم تطرقوا من ذلك إلى الأمور السياسية والإدارية فوضع الخليفة عمر رضى الله عنه التاريخ ودون الدواوين على نحو ما هو موجود فى الدولتين الرومية والفارسية، ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الأعمال وانتقاء العمال ثم فرض الأعطيات وقرر مصرف الفئ فى غير سرف ولا تقتير، ونشر جناح الأمن وأقام ميزان العدل وقرر أصول الجباية بلا إجحاف فى حقوق الرعية ولا غبن للدولة، فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران تتجلى فى أنحاء المملكة وانهال الغنى والثروة على الفاتحين، وخطوا خطى خفيفة إلى ميدان الراحة والنعيم مع الأخذ على الشكائم والتخوشن فى المأكل والملبس والتوسط فى العيش والقصد فى الإنفاق والإمساك عن البذل خوف الأخذ على أيديهم من عمر بن الخطاب ﷺ كما أخذ على يد خالد بن الوليد، إذ وصل بعشرة آلاف من الدراهم شريفاً من أشراف العرب.

هذا من وجه، ومن وجه آخر فإن عمر رضى الله عنه لم يدع للعرب بعد إذ دفع بهم فى غمار الحضارة وقذف بهم إلى ميدان الحروب وقتاً للإخلاد إلى الراحة والإيواء إلى ظل التنعم. والسكون تحت كنف الأمصار، بل شغلهم عن ذلك بالفتح وألهاهم بادخار المغانم عن التمتع بها، ريثما يفل من غرب الدول المجاورة، ويأمن غائلة الأمم المغلوبة، وكان له بهذا مآرب أخرى أيضاً، وهى اشغال العرب فى الحرب، وزجهم فى مضمار الفتح ليأنسوا بأصول الاجتماع والحضارة، وتتبدل أخلاقهم الجافية وتزول من نفوسهم أسباب التنافر والانتماء إلى العصبية الداعية إلى الشقاق والفرقة، يدلك على هذا ما كتبه لأبى موسى الأشعرى وأمره فيه بأن يضرب من ينادى بالعصبية بالسيف.

استفاد العرب فى حالتهم الاجتماعية من هذه السياسة العمرية لكن اندفاعهم للفتح وتفرقهم فى أنحاء الممالك وتعجلهم فى ذاك الظهور قبل تأصل الدين فى عامتهم، نشأ عنه بعد تشويش فى الدين والملك منه عدم التمكن من محو آثار الوثنية من البلاد المفتتحة مع دخول أهلها الإسلام، وإنما اختفت هذه الآثار حيناً ثم بدأت تظهر ثانية منصبغة بصبغة أخرى دعت لسرعة تفرق أهواء المسلمين، وظهور البدع فى هذا المقام، ومنه سرعة تقهقر الأمة ومع هذا فإذا نظرنا من جهة أخرى إلى سياسة عمر فى تعجل الفتح نرى لها فوائد كبيرة فى حينها، وذلك لأن دفعه للقوم إلى الفتح فى إبان الظهور وحين التحمس مهد لهم السبيل لقهر الأمم وتدويخ الممالك، لا سيما، وأنه كان من ورائهم جزاه الله عنا وعنهم خير الجزاء يؤدبهم بأدبه ويحملهم على القناعة والقصد ويحبب فيهم الأمم، ويغل أيديهم عن التطاول إلى حقوق الغير ويأمرهم بمحاسنة الناس وحماية أهل الذمة، حتى كان من ذلك أن ارتاح لحكمهم الشعوب وسهل عليهم استخضاع الأقوام وبث

دعوة الإسلام فلم يخرج على سلطانهم خارج إباء لحكمهم أو تظلماً من سياستهم، مع حداثة عهدهم فى الفتح وقلة الحامية منهم بين ظهرانى الشعوب الخاضعين لسلطانهم الآمنين فى أوطانهم.

بسط المسلمون على عهده يد السلطة على الشعوب، واستفتحوا إغلاق الكنوز وملكوا ما ملكوا من البلاد، ومع هذا فلم تأخذهم الدنيا بزخارفها ولم يغرهم الغنى والسلطان بالنعيم ولم يبطرهم المال ولم تخط بهم الحضارة إلا خطى قليلة إلى الأمام، فكانوا وسطاً فى المعيشة فى كل الأمور، ذلك لأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يريدهم على البطء فى السير فى طريق الترقى، ويحملهم على التوسط فى العيش، فال يمنعهم منعاً ولا يدفعهم دفعاً، اللهم إلا الأمراء والعمال فإنه كان يحملهم على طريقته فى التقشف وشظف العيش لحكمة، يدلك على هذا كتابه إلى أبى موسى الأشعرى الذى يقول له فيه: بلغنى أنه فشت لك ولأهلك هيئة فى المطعم والملبس، وينصحه بالتزام القصد. وتأنيبه لسعد بن أبى وقاص على أن سمى داره فى البصرة قصر سعد، وغير هذا من أخباره الكثيرة مع العمال، ومنها شرطه عليهم أن لا يأكلوا نقياً ولا يقربوا بذوناً الى آخر ما جاء فى باب سياسته مع العمال، وأما عامة المسلمين فكان لا يريدهم على هذا الحال ولا يمنعهم من التمتع بما أحل الله لهم من الطيبات، بل يرغب حملهم على طريق الوسط، وحسبك دليلاً على هذا كتابه إلى أبى عبيدة بن الجراح الذى يلومه فيه على رحيله من أنطاكية لطيب هوائها وتنعم المسلمين فيها.

وأما أنه كان يريدهم على البطء فى السير فى طريق الترقى فيدلك عليه ما رواه عامة أهل السير أن الأحنف بن قيس قد وفد عليه مرة وتكلم عن أهل البصرة بكلا دل عمر على سعة عقله، فاحتبسه عنده حولاً وأشهراً ثم سرحه، وكذلك فعل مع زياد بن أبيه لم وفد عليه من العراق ورأى فيه قوة العارضة والفطنة وزلاقة اللسان احتبسه عنده، ولما سأله زياد عن السبب قال كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك، وإنما كان يريد للعرب بهذه السياسة الترقى التدريجى حتى فى المدارك على ان مخالطتهم الأمم وسكنى الأمصار غير ولا شك من أخلاقهم والان من طباعهم، وزاد فى معارفهم ولا يعقل أن قوماً كانوا يظنون الكافور ملحاً أيام فتح المدائن تصير إليهم كنوز الأرض بعد ذلك ويسوسون الأمم إلا باستعداد عظيم فى قوى المدارك كمن فى نفوسهم وأظهره الاحتكاك بتلك الأمم على وجه خال بالطبع عن كل شائبة من شوائب التصنع والختل المشهور بهما أهل الامصار فى ذلك العصر، وفى كل عصر فهم إذن كانوا أحسن أخلاقاً وأسد عملا على سذاجة فطرتهم وجدة إسلامهم ممن حاربوهم من الأمم، وهذا شأن لا ينكر على مثل عصر عمر رضى الله عنه الذى دأب فيها هذا الخليفة العظيم على تدريب هذه الأمة على

أصول السياسة وتهذيبها علي وفق ما جاء به القرآن من آيات الحث والترغيب فى أسباب الظهور على الأمم، يدلك على هذا ما رواه الطبرى فى أخبار القادسية أن رستم زعيم الفرس وقائدهم قال يومئذ: أكل عمر كبدى أحرق الله كبده علم هؤلاء حتى علموا، وفيه دليل على أن العرب لم يكونوا قبل الإسلام فى نظر الفرس شيئاً مذكوراً، لبعدهم عن أسباب الحضارة وإغراقهم فى الجهالة، ولما اجتمعوا على كلمة الإسلام وانكفئوا على مملكتى فارس والروم وظفروا بحسن قيادة عمر رضى الله عنه بدولتى الفرس والروم عرف رستم وأشباهه من زعماء الدولة الفارسية عظم قدر عمر بن الخطاب، وبُعد نظره فى السياسة وحسن قيامه على تربية المسلمين وتعليمهم كيف تكون حياة الأمم، ولهذا قال رستم ما قال ولا جرم فلإخلاص الراعى لله وحبه لرعيته وحسن قيامه على مصالح الامة دخل عظيم فى تسودهم على الأمم وتعززهم بالعلم والقوة والعكس بالعكس.

وبالجملة فالحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه على حداثة عهد أهلها فى تسنم ذرى الارتقاء تمثلها لك سيرة هذا الخليفة الجليل فى قالب الجد والاستقامة والعزيمة، وتظهرها لديك فى مظهر النهوض إلى ارتقاء قمم المجد التى انتهى إليها المسلمون فيما بعد بسير هم سيراً حثيثاً مدة تزيد على جيلين، وقفوا بعدها وقفة المستريح من وعناء سفر شاق المتلذذ بجنى ثمرات الجد والنشاط والعمل، وهكذا حتى تغير الحال وانقلب الجد والنشاط إلى فتور وإهمال، وكان بعد ذلك ما كان من هبوط مستمر بلغ بنا الآن أن فقدنا كل حول وقوة إلا من السفاسف والأوهام، وكل اشتغال إلا بالأباطيل وكل سعى إلا وراء الرتب والألقاب التى أضحكت علينا الأمم، وأسرعت ببقية الأخلاق الفاضلة فينا إلى هوة العدم، والغربيون يبعثون إلينا كل يوم بنذير من القوة وواعظ من العلم والاعتبار ومنبه من التسلط على الدول الإسلامية، ومرشد إلى كيف تكون حياة الأمم وسيادة الشعوب ونحن سكوت لا يسمعون لنا ركزاً إلا فى تهاتر ولا يحسون من حركة إلا إلى تدابر قد امتزج الاستعباد فى نفوسنا حتى ما نطيق الحرية ولا نرضى العلم ولا نقبل التذرع إلى السيادة والسعى إلى المجد وهى حالة يا الله تمزق غشاء القلوب وتنذر بشق الجيوب فواغوثاه وواعمراه.

***

ألقاب الخليفة

أطلق المسلمون والمؤرخون على رئيس الدولة الإسلامية الأعلى، ثلاثة ألقاب رئيسية هى:

"الخليفة" و "أمير المؤمنين" و "الإمام" ولكل تسمية منها "نشأة وملابسات تاريخية يتكون منها مغزى معين، وإذا فهمت على حقيقتها كان ذلك سبيلاً إلى إدراك الطبيعة العامة لإمامة كنظام للحكم....."

وفما يلى نعرض لمدلول كل تسمية، وملابسات نشأتها.

أولاً— الخليفة: إن المعنى اللغوى لتسمية "خليفة" من الوضوح بمكان، فهو يطلق على الشخص الذى يحل محل آخر عند غيابه. أما تخصيص هذا المعنى للدلالة على رئيس الدولة، فإنه من مستحدثات المسلمين عقب وفاة الرسول، فقد أطلق هذا اللقب لأول مرة على الخليفة الأول أبى بكر الصديق باعتبار أنه يخلف النبى ﷺ فى رياسة المسلمين، وفى هذا المعنى يقول ابن خلدون: "أما تسمية خليفة فلكونه يخلف النبى فى أمته، فيقال خليفة بإطلاق، وخليفة رسول الله".

هذا ولقد ورد اصطلاح خليفة فى القرآن الكريم، بل وبمعنى يقارب المعنى الذى خصص له فيما بعد. ومن ذلك قوله تعالى فى سورة "ص" "يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله". وقوله تعالى فى سورة البقرة ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ﴾{البقرة/٣٠}

ولا شك فى أن الخليفة يخلف رسول الله فى واجباته حيال المسلمين. ولكن هل يجوز اعتبار خليفة الله؟ يقول ابن خلدون فى هذا الصدد: "واختلف فى تسمية خليفة الله؟ فأجازه بعضهم اقتباسا من الخلافة العامة التى للأدميين فى قوله تعالى "إنى جاعل فى الأرض خليفة" وقوله ﴿جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ﴾ {الأنعام/١٦٥} ومنع الجمهور منه، لأن معنى الآية ليس عليه. وقد نهى أبو بكر عنه لما دعى به وقال لست خليفة الله، ولكنى خليفة رسول الله ﷺ، ولأن الاستخلاف إنما هو فى حق الغائ، وأما الحاضر فلا".

وواضح مما سبق، أن تسمية رئيس الدولة الإسلامية باسم "الخليفة"، إنما يدل على أن منزلة الخليفة من الأمة، إنما هى كمنزلة رسول الله ﷺ.

هذا ويلاحظ أن هذه التسمية هى أكثر ألقاب الخليفة شيوعاً، فضلاً عن أنها أول ألقابه

ظهورا كما رأينا.

ثانياً ـــ أمير المؤمنين: وهذا اللقب تال فى ظهوره للقب الأول، وأول من لقب به هو الخليفة عمر بن الخطاب. ويقول ابن خلدون فى تبرير هذا اللقب ما يلى:

"لما بويع أبو بكر رضى الله عنه، كان الصحابة رضى الله عنهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله ﷺ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك. فلما بويع لعمر بعهده إليه، كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله ﷺ، وكأنهم استثقلوا هذا اللقب لكثرته وطول إضافته وأنه يتزايد فيما بعد دائما. فكانوا يعدلون عن هذا اللقب لكثرته إلا ما سواه مما يناسبه ويدعى به مثله، وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الأمير، وهو فعيل من الإمارة. وقد كان الجاهلية يدعون النبى ﷺ أمير مكة وأمير الحجاز. وكان الصحابة أيضاً يدعون سعد بن أبى وقاص أمير المؤمنين لإمارته على جيش القارسية وهم معظم المسلمين يومئذ". ثم يستطرد مبيناً واقعة إطلاق هذا اللقب بصفة رسمية على الخليفة عمر فيقول: "واتفق أن دعا بعض الصحابة عمر رضى الله عنه يا أمير المؤمنين، فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به، يقال إن أول من دعاه بذلك عبد الله بن جحش، وقيل عمرو بن العاص المغيرة بن شعبة، وقيل بريد جاء بالفتح من بعض البعوث، ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر ويقول أين أمير المؤمنين، وسمعها أصحابه فاستحسنوه، وقالوا أصبت والله اسمه، إنه والله أمير المؤمنين حقا، فدعوه بذلك، وذهب لقباً فه فى الناس، وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشاركهم فيها أحد سواهم سائر دولة بن أمية...".

وإذا كان لقب الخليفة يبرز الطابع الدينى للحاكم الإسلامى الأعلى، باعتباره خليفة رسول الله، فإن اللقب الثانى، أقرب إلى إظهار المعنى الدنيوى، لأنه يعنى أن المؤمنين قد استحالوا إلى قوة، وأن رئيس الدولة قد صار المتصرف فى شأن هذه القوة، لا سيما وأن لقب "الأمير" غير جديد على العرب، إذ استعملوه فى الجاهلية للدلالة على "قائد الجيش".

ثالثاً ـــ الإمام: وهذا اللقب الذى أطلقه فقهاء الشيعة على الخليفة الرابع على بن أبى طالب واشتهر به. ولما كان الشيعة هم أول من ألف فى هذا الموضوع كما ذكرنا، فإن المباحث الخاصة بهذا المنصب قد وردت تحت عنوان "الإمامة"، ونقلها عنهم فقهاء السنة. فالماوردى على سبيل المثال، يخصص الباب الأول من مؤلفه الشهير "الأحكام السطانية" لموضوع "عقد الإمامة" ويعرفها بقوله "الإمامة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا".

هذا ولد ورد لفظ "إمام" فى القرآن الكريم. ومن ذلك قوله تعالى فى سورة البقرة. ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾{البقرة/١٢٤} وقوله فى سورة الأنبياء: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ {الأنبياء/٧٣}وقوله فى سورة القصص ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾{القصص/٥}

ولقد اقترن هذا الاصطلاح فى الإسلام بمناسبة الصلاة، فالإمام هو الذى يؤم المصلين. وهذا ما كان يفعله الرسول فى حياته، وناب عنه أبو بكر الصديق فى مرضه، وكانت تلك من أهم الحجج التى استند إليها عمر بن الخطاب فى القول بأحقية ابى بكر للخلافة.

وفى هذا المعنى يقول ابن خلدون فى مقدمته: "ثم إن الشيعة خصوا علياً باسم الإمام نعتاً له بالإمامة التى هى أخت الخلافة، وتعريضاً بمذهبهم فى أنه أحق بإمامة الصلاة من أبى بكر لما هو مذهبهم وبدعتهم، فخصوه بهذا اللقب ولمن يسوقون إليه منصب الخلافة من بعده..".

على أنه أضاف إلى ذلك، أن الشيعة كانوا يستعملون اصطلاح "الإمام" فى حالة الدعوة لأحد الأئمة فى الخفاء. أما إذا استتب له الأمر فإنهم "..يحولون اللقب فيمن بعده إلى أمير المؤمنين، كما فعل شيعة بنى العباس".

وواضح من العرض السابق، أن تسمية "إمام" أقرب إلى الدلالة على المعانى الدينية منا إلى السلطات الدنيوية، وإن كانت فى حقيقتها تشمل المعنيين.

ويتضح مما سبق أن عمر كان أول من أطلق عليه لقب "أمير المؤمنين" وأكثر من عرف به. أما لقب الإمام فلم يطلق عليه فى حياته.

أوليات الفاروق عمر

هو **أول** من اتخذ بيت المال. وأول من كتب التاريخ من الهجرة. **وأول** من سن قيام شهر رمضان. وأول من عس بالليل. وأول من عاقب على الهجاء. **وأول** من ضرب فى الخمر ثمانين

وأول من حرم المتعة، وأول من نهى عن بيع أمهات الأولاد. وأول من جمع الناس فى صلاة الجنائز

وأول من فتح الفتوح ومسح السواد. وأول من حمل الطعام من مصر فى بحر أيلة (البحر الأحمر) إلى المدينة. وأول من احتبس صدقة فى الإسلام. وأول من أعال الفرائض. وأول من أخذ زكاة الخيل

وأول من قال أطال الله بقاءك (قاله لعلى). وأول من قال أيدك الله (وقاله له أيضاً). وأول من اتخذ الدرة. وأول من استقضى القضاة فى الأمصار. **وأول** من مصر الأمصار

وأول من سمى أمير المؤمنين

وأول من اتخذ دار الدقيق يعين به المنقطع. وأول من وسع المسجد النبوى وفرشه الحصباء

وأول من ضرب النقود فى الإسلام. وأول من استعمل البريد لنقل الرسائل.

وأول من أقام واليا للحسبة. وأول من شق الترع وأقام الجسور

وأول من وضع المرابطة من الجند فى الثغور وسمى الأجناد. وأول من أمر بالعناية بالمناظير

وأول من عين شخصا مخصوصا لاقتصاص أخبار العمال وتحقيق الشكايات التى تصل إلى الخليفة من عماله، وهو محمد بن مسلمة

بطولة الفاروق
تتمثل فى أخلاقه وعقليته

لعمر بن الخطاب نوعان من البطولة كان كل واحد منهما يكفى ليكون بطلاً عظيماً، وفى التاريخ أمثلة كثيرة من الأبطال كانت بطولتهم من ناحية واحدة، أما بقية نواحيهم فعادية أو أقل من العادية

فى الناس من بطولته من ناحية عقله، فهو يرى أبعد مما يرى الناس، ثم هو فى غير هذه الناحية كسائر الناس. وفيهم من بطولته من ناحية شجاعته، فإذا جاوزت الشجاعة وجدته كأوساط الناس أو أقل من أوساطهم، وفيهم من بطولته من ناحية مهارته السياسية ثم هو لا شئ بعد ذلك

ولكن عمر كان فرداً من أفراد قلائل تعددت نواحى بطولتهم، سمح بهم الزمان فى فترات طويلة وبد شح مقرط وبخل نادر

كان عمر بطلاً فى أخلاقه وليس فى الخلق واحد منها، وكان بطلاً فى عقليته وليس فى ناحية واحدة منها أيضاً

أما ناحية الأخلاق لكان رجلاً بكل ما تحتمله كلمة الرجل من المعانى، كان رجلاً فى كفره ورجلاً فى إسلامه، لا يميل إلى الدنية ولا ينظر إلى الصغائر. كان كافراً فكان الكفر يعتز به، ثم كان مسلماً فكان الإسلام يعتز به، وكان رسول الله فى أول دعوته يقول: "اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام" فاستجيب دعاؤه فى عمر، فلما أسلم رن إسلامه فى الأوساط الوثنية وأحدث حسرة وأسفاً وانخذالاً، ورن فى الأوساط الإسلامية فأحدث فرحاً وسروراً واغتباطاً، لأن كفر عمر وإسلامه ليس كسائر الناس، ففى الناس من إذا وضع فى كفة أو أخرى لم تتأثر الأولى ولا الثانية، وفيهم من إذا وضع فى كفة رجحت ورجحت حتى النهاية، ومنهم عمر. ومن أجل ذلك قال ابن العباس: "لما أسلم عمر قال المشركون قد انتصف القوم اليوم منا" وأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ {الأنفال/٦٤}

أسلم عمر فغير حياة المسلمين الاجتماعية، كانوا لا يجرءون على الجهر بشعائر دينهم فجهروا بها منذ أسلم عمر، وكانوا يتسترون فى الدعوة فأعلنوها، وخرج المسلمون على أعين المشركين فى صفين، فى أحدهم حمزة وفى الآخر عمر حتى دخلوا المسجد. فلو أن

آلافا من عامة الناس أسلموا ما عدلوا عمر. وصدق ابن مسعود إذ يقول: "ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر"

كان الحق متقنعا فأبى عمر لما أسلم إلا أن ينبلج، وكانت الدعوة إلى الإسلام من وراء حجاب فأبى عمر إلا أن تكون علانية وعلى سمع الناس وبصرهم، فكان ما أراد

وهكذا كان بطلاً فى صراحته، بطلاً فى شجاعته، حمل نفسه على كفه دفاعاً عن عقيدته فلم يخش بأساً ولم يخش قتلاً، وصمم أن يموت أو تعلو كلمة الإسلام، فكانت الثانية

هاجر الصحابة مستخفين من أذى قريش واضطهادهم، أما عمر فلما أراد أن يهاجر إلى المدينة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده أسهماً ومضى نحو الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أتى المقام فصلى متمكناً، ثم طاف على جماعات قريش واحدة واحدة يعلنهم بهجرته، ثم قال: من أراد أن تثكله أمه وييتم ولده ويرمل زوجته فيلقنى وراء هذا الوادى، فما تبعه أحد منهم

لم تكن المسألة مسألة قوة فى بدنه واستكمال لآلات قتاله، فقد كان فى قريش من هو أعلم منه بالقتال، وأشد منه فى النضال، ولكن نفس عمر كانت دونها كل نفس من هؤلاء المحيطين بفناء الكعبة، وكانت هذه النفس القوية الكبيرة تشع رهبة، وتبعث اجلالاً، حتى تستخذى أمامها النفوس. كذلك كانت نفسه فى جاهليته ثم زادت قوة فى إسلامه "والناس معادن، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام"

****

ثم تتجلى بطولة عمر الإخلاقية فى العدل التام أيام خلافته

لقد كان يتصور العدل تصوراً دقيقاً بديعاً، ثم منح من الإرادة القوية ما استطاع أن ينفذ هذا العدل الذى يتصوره فى دقة وقوة وحزم قل أن يكون لها نظير

طبق العدل فى كل شئ، ومع كل أحد، إلا مع نفسه وأهله، فقد تحامل عليهم، وحرمهم حتى مما أحله الله، وضحى بنفسه وبهم ليرد طمع العمال والولاة، ويقيم سيرته مثلاً لمحاربة الأنانية وتضحية الشهوات والملذات فى سبيل الله والمصلحة العامة

يعدل مع العمال فى كل صغيرة وكبيرة، ولا يرحم من تبدر منه بادرة أو يزل زلة، وينصف الرعية من العمال ويبعث المفتشين يستقصون أخبار الرعية وأخبار العمال

ويعدل فى أهل الذمة من يهود ونصارى فيوصى العمال والرعية بهم خيراً

ويعدل مع الجنود فيوفر عليهم رزقهم ولا يطيل مدة غربتهم

وهكذا يقدر المسئولية تقديرا في منتهى الدقة، ويخشى أن يقع ظلم ما على امرأة نائية فى أقصى الأرض فيحاسبه الله عليها، يضاف إلى ذلك ما منح من فراسة صادقة فى اختيار الولاة والعمال، ينظر النظرة فى وجه الرجل فإذا هو كأنه صحيفة مكتوبة يقرأ فيها كل ما يخفيه الرجل فى نفسه – يعرف مواضع القوة فى رجاله ومواضع الضعف فيهم، ثم يعرف كيف يستغل ضعف هذا وقوة ذاك فى خير الناس

صراحه فى القول والعمل إلى أقصى حد، وشجاعة تستهين بالموت فى سبيل العقيدة، وعدل دقيق فى كل أمر، ومهابة تملأ صدر كل من رآه أو سمع به، وفراسة صادقة تخترق الحجب لترى ما وراءها، وسهر على مصالح الرعية، وعظم تقدير لما عليه من مسئولية . كل هذه بعض خصال عمر التى تكونت منها بطولته وجعلته موضع الإعجاب على اختلاف الأجيال، ممن كان من أهل دينه وممن خالفه فى دينه

****

وليست تقل بطولته العقلية عن بطولته الخلقية، فما نشأة عمر هذا؟ لقد كان فى صباه يرعى غنم أبيه أحيانا ويحتطب أحيانا، فلما شب كان يتاجر فى ماله القليل، ولكنه مع هذا منح عقلية فى منتهى الغرابة فى الصفاء وبعد النظر وإدراك الحقائق: تجلى هذا فى أول إسلامه فكان رأيه موفقا، وكثيرا ما يرى الرأى فينزل فيه القرآن موافقا له، حتى بلغ هذا أكثر من عشرين موقفا. من ذلك رأيه فى الخمر وتحريمها، وقد روى فى هذا الباب أن رسول الله قال: "لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون (أى ملهمون) فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر"

أغرب من هذا كله أن هذا الراعى الصغير والتاجر الصغير ومن لم يجلس فى حياته فى مدرسة ولم يتعلم درسا فى الجغرافيا والاقتصاد والسياسة والحرب ينظم الجيوش لفتح أعظم مملكتين فى العالم، وهما فارس والروم، ويعرف مواقع البلاد ومن أين تؤتى، ويبعث بالأوامر تلو الأوامر للقواد كيف يقاتلون وأين يتوجهون، ويرسم لهم الخطط كيف ينتصرون، حتى يتم له القضاء على هاتين المملكتين العظيمتين

وكان يكون الأمر سهلا لو كانت المسألة مسألة فتح وغزو كما تفعل الأمم المتبربرة فى غزو الأمم المتحضرة، ولكن ليس الأمر كذلك فهو فتح منظم، وإدارة للأمم المفتوحة، وحكم لهم بأساليب خير مما كانوا يحكمون. هذه العقلية الجبارة العجيبة هى التى نظمت الدواوين فى بلاد فارس والروم، ووضعت نظم زرع الأراضى وريها وخراجها،

ووضعت التعاليم التى تنظم علاقة الفاتح بالمفتوح، حتى كانت تعاليم عمر فى الجهاد وفى الفتح وفى الخراج وفى نظام الكنائس والأديرة وفى معاملة أهل الذمة هى المصدر الذى يعتمد عليه الخلفاء والفقهاء والقضاة فى شؤون الدولة على مر العصور

هذا العقل الذى يعلم فارس والروم نظام الحياة الاجتماعية وهم هم أبناء المدارس النظامية، والنظريات القانونية، والتعاليم الحربية، والمبادئ الاقتصادية، هو ولا شك عقل جبار خارق للعادة، خارج عن مألوف ما نرى ونسمع فى تاريخ الأمم

تدفقت الأموال على جزيرة العرب فعرف كيف يضبطها وينظمها ويوزعها فى مصالح المسلمين وأنشأ لذلك الدواوين

وفتحت الفتوح الواسعة فعرف كيف يقسمها إلى إمارات حربية وإمارات سياسية وكيف يوزع الاختصاص حتى لا تتعارض المصالح

ويسافر إلى الشام فيرتب الجند التى تغزو فى الصيف والتى تغزو فى الشتاء، وينظم المسالح ويأمر بإقامة الحصون وترتيب المقاتلة

ويرتب الأمراء لكل إمارة وما يلزمها من قضاة وكتاب

ويرتب البريد حتى تصل إليه الأخبار عن البلاد النائية فى أسرع ما يمكن، ويمصر البلدان كما فعل فى البصرة والكوفة، ويستفتى فى كل ما يعرض من مشاكل الفتح الحربية والاقتصادية والجغرافية والاجتماعية فيأمر فيها بالرأى الصادق والنظر البعيد

يضاف إلى ذلك معرفة دقيقة بطبيعة الأمة الفاتحة وأخلاقها، وما يصلح لها وما لا يصلح، والأمم المفتوحة وكيف تساس على اختلاف نزعاتها وعقلياتها

* * * * * * * *

إن أخلاقاً كالتى وصفنا، وعقلية تتسع لكل ما عددنا، تبتكر فى النظم وتعدل -مع نشأتها البدوية- مناهج السياسة الفارسية والرومية وترقيتها إلى مستوى أعلى كثيراً مما كانت عليه، لهى جديرة حقاً بكل إعجاب، وخليقة أن تذكر فى أوائل سجل الأبطال، على مر الأجيال!!

الصفات الأخلاقية لعمر

أخلاقه ومناقبه

إن الصفات الجسدية وحدها لا يمكن أن تبلغ بصاحبها تلك المرتبة التى بلغها عمر إذا لم تصاحبها صفات خلقية ونفسة على ذات المستوى من القوة والمتانة، وهو ما أجمعت عليه كتب التاريخ بالنسبة إلى عمر. وبالرغم من تنوع صفات عمر من هذه الناحية، فإننا يمكن أن نجملها فى صفات أساسية هى: الإحساس الكامل بالمسئولية، والشدة، والفراسة، والعدل، والهيبة. وواضح أن هذه الصفات هى نتاج عوامل كثيرة متنوعة، مثل نشأة عمر الأولى، وثقافته، والقيم التى غرسها الإسلام فى نفسه.

أما عن إحساس عمر الكامل بمسئوليته قبل الرعية، فذلك مالا حاجة بنا إلى التدليل عليه، ويمكن إرجاعه إلى النزعة الدينية التى ملكت عليه شغاف نفسه، والتى شهدت له بها الجميع، وعلى رأسهم رسول الله ﷺ. فالعقيدة وحدها هى التى تبلغ بالمرء هذا المستوى القدسى، وهى التى تجعل الإنسان رقيباً على نفسه فى جميع حركاته وسكناته، ولن تغنى عنها أية رقابة أخرى، ولو كانت عبادة الواجب التى يريد البعض أن يحلها محل خشية الله. ولهذا فلن نطيل الحديث فى هذا الجانب من جوانب عمر، مكتفين بصفاته الأخرى، والتى كان لها أثر فى حياته كقائد إدارى وسياسى.

عدل عمر وسياسته

كانت العرب على جانب من خشونة الطباع وجفاء الخلق والاعتزاز بالعشيرة والأنفة عن الخضوع لحكم السلطان، يعلمه من وقف على تاريخ هذه الأمة، ولما جاء الإسلام هذب أخلاق فريق منهم وهم الصحابة لمعاشرتهم للنبى عليه الصلاة والسلام، ووقوفهم على حقائق الدين، وإشراب قلوبهم حب الإيمان، والفريق الأخر الذين لم يتمكن من قلوبهم الإسلام لقرب عهدهم منه بقى فى نفوسهم شئ من آثار الجاهلية لا ينتزعه إلا تمادى الزمان، لهذا لم يسع أبا بكر الصديق رضى الله عنه إلا أن يعاملهم بالقوة الممزوجة بالرفق، ولما استخلف عمر رضي الله عنه وجد أن لا مناص له من أن يحذو فى معاملتهم بالشدة عند الحاجة حذو أبى بكر، خوف النزوع إلى الثورة والخروج عن حدود الإسلام وقيود الأخوة والرجوع إلى الفرقة والشقاق والعصبية المضرة، وقد كان رضي الله عنه شديداً بطبعه فساس أولئك الأقوام بمزيد من

الشدة والإرهاب، لما كان يتوقعه من حصول الفتن والدسائس، ولو لم يقابل شدته إغراقه فى العدل وكرمه فى بذل المال وحكمته فى وضع الثواب فى محله والعقاب فى محله لما استقام له أمر الخلافة، كما أنه لو لم يستعمل مع العرب تلك السياسة لما استقام أمر المسلمين، ولخيف من حصول فتن كبرى تنكمش لها أعصاب الإسلام كما حصل ذلك بعد وفاته رضى الله عنه، إلا أنه لم يتأت عن تلك الفتن من الضرر ما يوازى الضرر الذى كان يتأتى عنها فيما لو حصل ذلك فى أوائل خلافة عمر رضى الله عنه وإنما خف ضرر تلك الفتن بعد لأن الإسلام كان قد ملأ أكناف الأرض، والعرب كلهم تفرقوا فى أنحاء البلاد واشتغلوا بأمور الفتح وذاقوا لذة الملك والسلطان وأسسوا ذلك الملك العريض الذى استحال أن تدك أساسه عواصف الفتن فى خلافة عثمان وعلى ومعاوية رضى الله عنهم وإنما كان الفضل فى هذا لعمر بن الخطاب الذى أخذ على الأمة سبيل النزوع إلى الجاهلية الأولى ودفعها فى غمار الفتح وشغلها بمحاربة الأمم عن محاربة نفسها، ورباها على الخضوع لأولى الأمر فيما لا يكون به حيف على النفوس ولا مساس بالدين ولا حجر على الحرية ولا تمييز بين الطبقات، وهذا منتهى ما توصف به رجال السياسة من الفضل والدهاء والعلم بسياسة الأمم وإحكام أمور الدول، وحسب عمر أنه كان كالشمس المشرقة على الأفاق لا تخفى عليه خافية من أمور الرعية، ولا يفوته ظالم فينتصف منه أو مظلوم فينصفه، حتى قيل إن علمه بمن نأى من عماله كان كعلمه بمن كان عنده لأنه جعل عيهم عيوناً حيثما كانوا ينقون إليه أخبارهم فى معاملة الرعية حتى كانت أخبار الجهات كلها عنده تأتيه بها البرد صباح مساء.. وياويح العامل الذى تبدر منه بادرة أذى لأحد من الرعية أو يهفو هفوة فى شأن من الشؤون فإنه لا يلبث أن يأتيه نذير عمر بالعزل أو التأنيب من حيث لا يشعر، فلهذا ملأت رهبته القلوب وخافه العمال وانقاد له الناس واستكانت لديه النفوس العاتية.

ويرجع عدل عمر إلى أسباب كثيرة أهمها:

أولاً ـ الوراثة: فعمر بن الخطاب من قبيلة عدى بن كعب، وهى قبيلة ـ رغم شرفها ومكانتها ـ كانت قليلة العدد، على جانب محدود من الثراء، إلا أنها كانت تمتاز بالدراية والعلم والحكمة. ومن ثم فقد أهلتها هذه الصفات لوظيفة السفارة والحكم فى المنافرات حسب المألوف فى قريش من توزيع الوظائف العامة بين القبائل. وهكذا كان بنو عدى المتحدثين عن قريش إلى غيرها من القبائل فيما ينجم من خلاف يتسنى حسمه بالمفاوضة.

وكانت حكومتهم ترضى فى المنافرات، وكانوا ذوى بلاغة وحسن عبارة. ولهذا فقد راضوا أنفسهم جيلاً بعد جيل، على الإنصاف وفصل الخطاب. وجد عمر بن الخطاب، نفيل بن عبد العزى، هو الذى قضى لعبد المطلب على حرب بن أمية حين تنافرا إليه وتنافسا على الزعامة. وعمه زيد بن عمرو واعتزل عبادة الأوثان قبل الإسلام ولهذا

فإن عمر بنسبه وبيئته كان معداً للقضاء والتحكيم.

ثانياً ــ إحساس عمر بوطأة الظلم: فقبيلته بنى عدى، ذات العدد القليل، والثراء المحدود، اضطرها بنو عبد شمس، فى حياة الخطاب والد عمر، إلى الجلاء عن منازلهم القائمة عند الصفا والانحياز إلى قبيلة بنى سهم والمقام فى جوارهم وفى حماهم. وقد استمر هذا الجوار إلى يوم إسلام عمر، وتهديد المشتركين له بالقتل، فأجاره العاص بن وائل السهمى، والد عمرو بن العاص.

ثم إن عمر بن الخطاب قد تعرض فى صباه وشبابه لمعاملة قاسية من والده. ومن تعرض للظلم، فإنه غالباً ما يثور عليه، وينفر منه، لإدراكه إحساس المظلوم. وربما يفسر هذا شدة عمر فى الضرب على أيدى الظالمين[1].

ثالثاً ــ وجاء الإسلام فنما فى قلب عمر الإحساس بالعدل، لأن العدل هو جماع الفضائل. وإذا كانت نفس عمر أرضاً خصبة للعدل بالوراثة، فإن الإسلام قد تعهد هذه النفس، وهذبها، حتى وصل بها إلى قمة العدل البشرى.

رابعاً ــ المران: فلقد كان الرسول عليه السلام يقضى بين الناس، وكان أحياناً يعهد إلى بعض الصحابة ـ ومنهم عمر ـ بالفصل بين الناس. وهكذا أتيح لعمر أن يصقل موهبته تحت أشراف الرسول الكريم. فلما آل الأمر إلى أبى بكر، لم يكن غريباً أن يعهد بالقضاء إلى عمر. على أن كتب التاريخ تروى أن عمر ظل عامين كاملين لا يأتيه خصمان، لما عرف الناس عنه من الشدة والحزم.

واما ولى عمر الخلافة، كان كل شئ ممهداً لكى تتفجر ينابيع العدل فى نفس عمر، علماً وعملاً، فهو وضع دستور القضاء، وادابه، ونظمه على النحو الذى سوف نعرض له تفصيلاً فيما بعد.

خامساً ــ على أن ثمة ملاحظة عامة، سجلها فقهاء التاريخ، وهى ميل الحكام المطلقين إلى العدل. حقيقة إن وصف الإطلاق لا يمكن أن يوجه إلى عمر، لأن عمر مقيد بكتاب الله وسنة رسوله، فضلاً عن خشية التى ملكت عليه نفسه. ولكن كل هذه قيود ذاتية تنبع من نفس الإنسان ولا تفرض عليها من الخارج. والعدل ـ وفقاً للمدلول الفنى لهذا اللفظ فى

---

(١) بهذا المعنى يقول الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه "عبقرية عمر": "وكان (عمر بن الخطاب) عادلاً، لأن آله بن عدى، قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس، وكانوا أشداء فى الحرب يسمونهم لعقة الدم. ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس إلى عدد أقربائهم، فاستقر فيهم بغض القوى المظلوم للظلم، وحبه للعدل الذى مارسوه ودربوا عليه. وساعدت عبر الأيام على تمكين خليفة العدل فى خلاصة هذه الأسرة أو خلاصة هذه القبيلة، ونعنى به عمر بن الخطاب".

الوقت الحاضر - ليس منحة من الحاكم للشعب، ولكنه حق للمواطن وواجب على صاحب السلطة، تكفله نظم منضبطة ومعروفة، وكان الاعتماد كله على العلم بأصول الإسلام وعلى خشية الله. ومن هنا أقام عمر العدل الذى أصبح مضرب الأمثال، ثم اختفى هذا العدل حينما ضعف الوازع الدينى، وغلبت شهوات الدنيا على النفوس.

وترجع الحقيقة التى نشير إليها، إلى أن التاريخ قد سجل صفة العدل، لحكام مطلقين يعوزهم الوازع الدينى الذى توافر لدى عمر، ومن أشهرهم كسرى فى الأزمان القديمة، ونابليون بونابرت فى الأزمان الحديثة. ويفسر العلماء هذه الظاهرة بأن الحاكم المطلق، يريد أن يرضى الرعية حتى تستكين لحكمه، عن طريق إقامة العدل، والتسوية فى المعاملة بينهم. ومن هنا كانت كلمة عمر لعمرو بن العاص، "نحن أحق بالعدل من كسرى".

والعدل الذى أقامه عمر، أصبح مضرب الأمثال، ووصل فى بعض الحالات إلى حد الخرافات كالزعم بأنه أقام الحد على ابنه وهو ميت! ولكن كل ما يمكن استخلاصه من كتب التاريخ أن عدل عمر قد أظل الجميع، فلم يميز مرة واحدة بين قريب أو غريب، أو بين عربى وأعجمى، بل شمل الجميع عدل يقوم على قواعد واضحة تفتقر إليها البشرية فى كثير من الدول فى العص الذرى الذى نعيش فيه الان.

****

أخرج ابن الجوزى فى المناقب عن عمر بن مرة قال: لقى رجل من قريش عمر، فقال لن لنا فقد ملئت قلوبنا مهابة. فقال: أفى ذلك ظلم. قال لا. قال فزادنى الله فى صدوركم مهابة. وأخرج عن عبد الله بن جبير أنه سمع عبد الله بن عباس رضى الله عنهما يحدث قال: مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن آية فلا يستطيع أن أسأله هيبة.

وأخر ابن جرير فى تاريخه عن زيد بن أسلم عن أبيه أن نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا: كلم عمر بن الخطاب فإنه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم إليه أبصارنا: قال فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر: فقال أو قد قالوا ذلك فوالله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله فى ذلك، ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله فى ذلك. وايم الله لأنا أشد منهم فرقاً (خوفاً) منهم منى: وأخرج ابن عساكر هذا الحديث من طريق آخر وزاد عليه قول عمر. فأين المخرج وقام يبكى يجر رداءه ويقول عبد الرحمن بيده أف لهم بعدك. والظاهر ان عمر رضى الله عنه إنما استعمل مع العرب هذه الشدة لعلمه بأخلاقهم الجافية وأنهم إن تظاهر لهم باللين فقد فتح لهم باب الإدلال والتعجرف المعروف

فيهم يدلك على هذا ما رواه الحافظ بن عساكر عن الأصمعى قال: كلم الناس عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر بن الخطاب فى أن يلين لهم فإنه قد أخافتهم حتى أخاف الأبكار فى خدورهن. فكلمه عبد الرحمن فالتفت عمر إليه فقال: يا عبد الرحمن، إنى لا أجد لهم إلا ذلك، والله لو أنهم يعلمون مالهم عندى من الرأفة والرحمة والشفقة لأخذوا ثوبى من عاتقى، والذى زاد عمر هيبة فى النفوس أنه كان لا يراعى فى الحق كبيراً ولا يمالئ شريفاً ولا أميراً إلا فيما تقضى به الضرورة السياسية، وهذا فيما لا يمس به حق من حقوقه الرعية، ومن هذا القبيل حكايته المشهورة مع جبلة بن الأيهم ملك غسان، فإنه لما أسلم ووفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب، وبينما هو يطوف يوماً وطئ على إزاره أعرابى من بنى فزارة فضربه فى وجهه، فشكاه الأعرابى إلى أمير المؤمنين، فاستدعى عمر جبلة وقال له إما أن ترضيه وإما أن يضربك كما ضربته، فكبر ذلك على جبلة وقال ألا تفرقون بين الملك والسوقة، قال لا قد جمع بينكما الإسلام. فاستمهله إلى الغد ثم أخذ قومه وفر بهم ليلاً، ولحق بالإمبراطور هرقل بالقسطنطينية، فأرسل عمر من يسترضيه فأبى الرجوع، وهذه مرتبة من إنصاف الرعية وإقادتهم حتى من الملوك لم يبلغها أحد غير عمر بن الخطاب ﷺ ومن بدائع أخباره فى إنصاف أفراد الرعية من الولاة ما نقله فى حُسن المحاضرة عن أنس، قال أتى رجل من أهل مصر إلى عمر بن الخطاب، فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم. قال عذت معاذاً. قال سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربنى بالسوط ويقول. أنا ابن الأكرمين، فكتب عمر إلى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه عليه فقدم. فقال عمر أين المصرى خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين ثم قال للمصرى ضعه على صلعة عمرو. قال يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذى ضربنى وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو. مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً، قال يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتنى (يعنى) المصرى.

هذا منتهى الإنصاف للرعية والعدل بين طبقات الأمة، وبمثله علم الناس أن لا كبير فوق الحق ولا أمير إلا دون الشريعة حتى نفسه رضى الله عنه، فقد كان ينصف غيره منها ولا يعتبر نفسه أمام الحق والعدل إلا كواحد من الناس، فقد جاء فى كنز العمال عن الشعبى قال كان بين عمر وبين أبى بن كعب خصومة، فقال عمر اجعل بينى وبينك رجلاً. فجعلا زيد بن ثابت، فأتياه فقال عمر اجعل أتيناك لتحكم بيننا وفى بيته يؤتى الحكم. فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه، فقال ههنا يا أمير المؤمنين. فقال له عمر هذا أول جور جرت فى حكمك ولكن أجلس مع خصمى، فجلس بين يديه فادعى أبى وأنكر عمر، فقال زيد لأبى اعف لأمير المؤمنين من اليمين، وما كنت لأسألها لأحد

غيره، فحلف عمر ثم أقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواه (وفيه) عن عبد الله بن حكيم قال قال عمر بن الخطاب. إنه لا حلم أحب إلى الله تعالى من حلم إمام ورفقه، ولا جهل أبغض إلى الله تعالى من جهل إمام وخرقه، ومن يعمل بالعفو فيما بين ظهريه تأتيه العافية، ومن ينصف الناس من نفسه يعطى الظفر فى أمره والذل فى الطاعة أقرب إلى البر من التعزز بالمعصية. وخلا هذا فقد كان رضى الله عنه حريصاً على ألا يشكى منه ويرشد إلى كل ما فيه راحة الناس وسلامة الأمة وتنكب طرق الخطأ أو الجور، حتى بلغ الأمر أن كان كلما اجتمع إليه ناس من الأمصار أو جماعة من كبار الصحابة يسألهم عن سيرته بين الناس ويستطلع طلع ضمائرهم من جهة سياسته فى الرعية ولا يأبى قبول النصيحة قال فى مجلس وحوله المهاجرون والأنصار. أرأيتم لو ترخصت فى بعض الأمور ما كنتم فاعلين فسكتوا، فقال ذلك مرتين أو ثلاثا. فقال بشير بن سعد لو فعلت ذلك قومناك تقويم القدح (وهو السهم المعوج قبل أن يراش وينصل) فقال عمر: أنتم إذن أنتم إذن (استحسانا لقولهم). وفى المناقب عن عبد الجبار بن عبد الواحد التنوخى قال قال عمر رضى الله عنه وهو على المنبر أنشدكم الله لا يعلم رجل منى عيباً إلا عابه، فقال رجل نعم يا أمير المؤمنين، تديل بين البردين وتجمع بين الأدمين ولا يسع ذلك الناس قال عمر فما أدال بين بردين ولا جمع بين أدمين حتى لقى الله. وقوله بديل بين بردين اى يلبس قميصاً ويخليه ويلبس غيره. (وذكر) بعض المؤرخين أنه خطب يوماً فقال: أيها الناس من رأى منكم فى إعوجاجا فليقومه. فقام رجل فقال. والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا. فقال عمر. الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه.

إلا أننى لم أقف على سند الخطبة وهى إن صحت فربما تكون من قبيل الخبر الأول لا خطبة، وأنت ترى من هذا الأخبار إلى أية درجة بلغت حرية الضمائر وحب العدل بالمسلمين يومئذ ومنها تعلم أنهم إنما سادوا بقول الحق وتعشق الحرية واستقلال الضمائر لا بالذل والخنوع والتقيد بقيوم العبودية التى ما تقيد بها قوم إلا ضربتهم بالهلاك وسودت عليهم الأمم كما سودت الغربيين الأن على أكثر من مائتى مليون من المسلمين اتخذوا رؤساؤهم أولياء من دون الله فقذفوا بهم إلى هوة الدمار، وأقفروا من آثار ملكهم العظيم الديار.

وفى كنز العمال عن سلمة بن شهاب العبدى قال قال عمر بن الخطاب أيتها الرعية إن لنا عليكم حق النصيحة بالغيب، والمعاونة على الخير، وأنه ليس شئ أحب إلى الله تعالى وأعم نفعاً من حلم إمام ورفقه، وليس شئ أبغض إلى الله تعالى من جهل إمام وخرقه.

(ومن سياسته) فى تقويم أخلاق الناس وحملهم على المحجة الواضحة فى الأعمال وأن

لهم ما تكنه السرائر، ما جاء فى كنز العمال أيضاً من حديث عتبة بن مسعود قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحى فى عهد رسول الله ﷺ وإن الوحى قد انقطع وإنما نأخذكم الأن بما ظهر من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً آمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شئ الله يحاسبه فى سريرته، ومن أظهر لنا شراً لم نأمنه ولم نصدقه وإن قال إن سريرته حسنة، وإنما يعرض بهذا بالمنافقين تنبيهاً لهم إلى أنه مراقب لأعمالهم.

ومع أنه كان يأخذ الناس بهذه الطريقة ويحملهم على الاستقامة فى الأعمال فإنه كان يحذرهم من خيانة السرائر وينهاهم عن التردد فى الأمور ويرشدهم إلى الجمع بين العزيمة والنية سوقاً لهم إلى الاستقامة فى العمل والحزم فى الرأى فقد أخرج ابن جرير الطبرى فى تاريخه عن عمر بن مجاشع قال: قال عمر بن الخطاب القوة فى العمل، أن لا تؤخر عمل اليوم لغد. والأمانة أن لا تخالف سريرة علانية، واتقوا الله عز وجل، فإنما التقوى بالتوقى ومن يتق الله يقه.

وهكذا رضى الله عنه كان فى رعيته كالوالد الرءوف يواليهم بالنصائح ويرشدهم إلى طريق الخير والسعادة ويأمرهم بالتقوى والعدل والتآلف والاجتماع وينهاهم عن التحزب والتفرق وخصوصاً قريشاً فإنه كان لا ينام لهم على أمر ولا يدعهم ساعة من نصيحة لأنهم قدوة الناس وأئمة العرب.

أخرج الطبرى عن ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش بلغنى أنكم تتخذون مجالس لا يجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس، وايم الله إن هذا لسريع فى دينكم سريع فى شرفكم سريع فى ذات بينكم، ولكأنى بمن يأتى بعدكم يقول هذا رأى فلان، قد قسموا الإسلام أقساماً. أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معاً فإنه أدوم لألفتكم وأهيب لكم فى الناس اللهم ملونى ومللتهم وأحسست من نفسى وأحسوا منى ولا أدرى بأينا يكون الكون وقد أعلم أن لهم قبيلاً منهم فاقبضنى إليك.

ومن جميل سياسته أنه كان يعلم من نفسه الشدة فلا يرضى لعماله أن يكونوا مثله، لهذا عزل خالد بن الوليد من الإمارة وجعل بدله أبا عبيدة بن الجراح، وكان عماله جميعهم ممن عرفوا باللين والأناة كأبى عبيدة وسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان وحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وأضرابهم إلا بعض القواد فربما كانوا على شئ من الشدة وذلك يكون فى مثلهم بالطبع ومع شدته رضى الله عنه فقد كان يوصى عماله بالرفق والعدل والأناة وعدم الإيغال فى العقوبة وبلغ به كرهه للإيغال فى العقوبة أن أرسل مرة إلى أبى موسى الأشعرى وقد اشتد فى العقوبة على بعضهم يهدده بالعقاب إذا عاد إلى

مثلها.

جاء فى كنز العمال عن ابن عمر قال: كنت مع عمر فى حج (أو عمرة) فإذا نحن براكب: قال عمر أرى هذا يطلبنا: فجاء الرجل فبكى: قال ما شانك إن كنت غارماً أعناك وإن كنت خائفاً أمناك إلا أن تكون قتلت نفساً فتقتل بها وإن كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم، قال: إنى شربت الخمر وأنا أحد بنى تميم وإن أبا موسى جلدنى وخلقنى وسود وجهى وطاف بى الناس وقال لا تجالسوه ولا تؤاكلوه فحدثت نفسى بإحدى ثلاث. إما أن أتخذ سيفاً فأضرب به أبا موسى. وإما أن آتيك فتحولنى إلى الشام فإنهم لا يعرفوننى، وإما أن ألحق بالعدو وآكل معهم وأشرب. فبكى عمر وقال: مايسرنى أنك فعلت وأن لعمر كذا وكذا، وإنى كنت لأشرب الناس لها فى الجاهلية، وإنها ليست كالزنى. وكتب إلى أبى موسى.

"سلام عليك أما بعد فإن فلان ابن فلان التيمى أخبرنى بكذا بكذا وايم الله إن عدت لاسودن وجهك، ولأطوف بك فى الناس، فإن أردت أن تعلم حق ما أقول فعد". فأمر الناس أن يجالسوه ويؤاكلوه فإن تاب فاقبلوا شهادته. وحمله عمر (أى أركبه) وأعطاه مائتى درهم.

ومن جميل سياسته اهتمامه بأهل الذمة الذين دخلوا فى عهد المسلمين وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين، ووصاياه للعمال بالحرص على راحتهم وتجنب ظلمهم وأذاهم وبلغ اهتمامه بهم أن كان إذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شئ عنهم يستدعى ذوى أمانة من المسلمين الذين أقاموا فى بلادهم ويسألهم عن أحوالهم ويستقصى سيرة العمال،

ومن ذلك ما رواه الطبرى فى تاريخه أن عمر ﷺ كتب إلى أمير البصرة أن يبعث له جماعة من ذوى الرأى والبصيرة، فأرسل إليه وفداً فيهم الأحنف بن قيس فسألهم عن أهل الذمة وهل يشكون ظلماً أو حيفاً فأجابوه بالسلب ولم يطمئن لقولهم حتى استوثق من الأحنف، وكان يثق بصدقه ثم صرفهم.

ومن اجمل ما يؤثر عنه من الرفق بأهل الذمة ما جاء فى كنز العمال أن عمر مر بشيخ من أهل الذمة يسأل على أبواب المساجد فقال ما أنصفناك كنا أخذنا منك الجزية فى شبيبتك، ثم ضيعناك فى كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال ما يصلحه.

ومن حسن سياسته تقدمه إلى قواده بأن لا يمسكوا الجند فى الغزو أكثر من أربعة أشهر، وسببه أنه كان يطوف ليلة بالمدينة على عادته فسمع امرأة من وراء بابها تقول:

تطـــاول هــذا الليــل واســود جانبــه وأرقنى أن لا خليل ألاعبه
فلولا حذار الله لا شـــئ مثلـــــه لزُحزح من هذا السريـــر جوانبـه

فكتب عمر إلى عماله أن لا يغيب أحد بالغزو أكثر من أربعة أشهر:

ونعم الرأى.

ومن سياسته توقيفه الحدود عند الضرورة الداعية لذلك فقد أخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن حكيم بن عمير قال كتب عمر بن الخطاب الا يجلدن أمير جيش ولا سرية أحداً الحد حتى يطلع الدرب لئلا تحمله حمية الشيطان أن يلحق بالكفار.

ومن سياسته أنه كان يحبس عن العمل كثيراً من كبار الصحابة منهم من كان لا يستعمله خوفاً على دينه من أن يدنسه بالولاية، فقد أخرج ابن سعد عن عمران بن عبد الله قال: قال أبى كعب لعمر بن الخطاب مالك لا تستعملنى؟ قال أكره ان تدنس دينك.

ومنهم من لا يستعمله خشية أن يحمله على رقاب الناس أو خشية أن تحدثه نفسه بالإمارة إذا بعد عن مراقبته.

وهؤلاء هم بنو هاشم لما كان يتفرسه فيهم من التطلع إلى الإمارة، ففى مروج الذهب للمسعودى عن عبد الله بن عباس أن عمر أرسل إليه فقال يا بن عباس إن عامل حمص هلك، وكان من أهل الخير وأهل الخير قليل، وقد رجوت أن تكون منهم وفى نفسى منك شئ لم أره منك وأعيانى ذلك فما رأيك فى العمل، قال لن أعمل حتى تخبرنى بالذى فى نفسك. قال وما تريد إلى ذلك. قال أريده فإن كل شئ أخافه على نفسى خشيت منه عليها الذى خشيت وإن كنت بريئاً من مثله علمت أنى لست من أهله فقبلت عملك هنالك. فإنى قلما رأيت أو ظننت شيئاً إلا عاينته قال: يا بن عباس إنى خشيت أن يأتى علىّ الذى هو آت وأنت فى عملك فتقول هلم إلينا ولا هلم إليكم دون غيركم: إنى رأيت رسول الله ﷺ استعمل الناس وتركك قال (أى ابن عباس): والله قد رأيت من ذلك فلم تراه فعل ذلك قال: (أى عمر) والله ما أدرى أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم، أم خشى أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العقاب ولا بد من عتاب فقد فرعت لك فما رأيك؟ قال: (أى ابن عباس) أرانى لا أعمل لك قال: ولم؟ قلت: إن عملت لك وفى نفسك ما فيها لم أبرح قذى فى عينك قال: فأشر على؟ قلت: إنى أرى أن تستعمل صحيحاً منك صحيحاً لك.

ومن سياسته تقدمه إلى العمال بأن لا يأذنوا لأحد من جنود المسلمين أن يزرع أو يزارع فى البلاد المفتتحة وأن لا يقطعوا أرضاً لأحد منهم البتة، وذلك لأمور الأمر

الأول: كى لا يزاحم المسلمون أهل الذمة والعهد فى أراضيهم ويضيقوا عليهم فى معيشتهم، والأمر الثانى: كى لا يألف الجند الاعتمال فى الأرض فى إبان الفتح فتميل نفوسهم إلى الراحة من عناء الحرب والأمة حربية لم يأن لها اطراح لأمة القتال واعتزال الحرب والإخلاد إلى الراحة والترف، والأمر الثالث: كى تبق الأرض فى يد أهلها مادة تستمد منها الدولة ما يقوم بشؤونها العسكرية والإدارية، ولا يحتكرها المقتطعون من جنده فتعدم مادة القوة من الدولة الإسلامية فيما بعد، ولا تجد من المال ما يكفى لمن يقوم من الجند بحراسة البلاد.

عمر الزاهد المتقشف

: "يازاهد" فقال: "الزاهد عمر بن الخطاب إذ جاءته الدنيا راغبة فتركها، وأما أنا ففيما زهدت؟"

وهذا كلام حق، فإن الزاهد يقتضى شيئاً مقدوراً عليه يزهد فيه، أما من لا يقدر على الدنيا والتمتع بلذائذها، ثم اظهر الزهد فيها فربما يكون صادقاً فى زهده، وكثيراً ما يكون أحرى أن تكون زهدت فيه الدنيا من أن يكون زهد فيها

مثل هذا –وأن خال نفسه زاهداً- لم يجربها ولم يمتحنها، فهو يقدر أنه لو عرضت عليه الدنيا بمفاتنها ومباهجها وما فيها من لذائذ ومتع زوى وجهه عنها، واستصغر من أمرها ما يستكبره الناس، وربما إذا عرضت عليه الدنيا انغمس فيها إلى ناصيته. فليس المحك الذى يبين فضل المرء أن يتصور أنه فى حالة ثم يتصور ماذا يكون شأنه معها، بل المحك الذى لا يخل أن يكون فى هذه الحالة، متلبساً بخيرها وشرها، ثم ينظر ماذا يكون شأنه معها

وإنما كان الأمر كذلك، لأنه فرق كبير بين أن يتصور المرء أنه فى حالة وبين أن يلتبس بهذه الحالة:

وإذا ماخلا الجبان بأرض طلب الطعن وحده والنزالا

وأصدق من جاز الامتحان عمر بن الخطاب –الفاروق- فلقد ساد المسلمين، وورث ملك الأكاسرة والقياصرة، وقد كانوا فى ترف ونعمة، ورث ذلك كله، ولم يلف مأكل ولا مشرب ولا لذة يتلذذ بها المرء إلا كان قادراً عليها، فزوى وجهه عن هذا النعيم احتقاراً لشأنه، ورغبة فى أن يجمع لنفسه مايكون عليه الملك العادل الكريم

روى أنه وجد على مائدته وهو خليفة المسلمين خلا وملحاً، فقال:

- لا اجمع بين أدامين

رحمك الله يا ابن الخطاب، أترى الملح والخل أدامين تتحرج من الجمع بينهما، وأن أفقر رعيتك لا يراهما من أنواع الأدام، وإنما من الأفاوية المشيهة، التى تحرك الشهية لما يكو قد أعد من طعام وادام؟

وأخبار عمر فى الزهد والتقشف مستفيضة، فمن ذلك أن بعض أعاظم الفرس وفد على المدينة فسأل عنه فدل عليه فوجده نائماً فى المسجد على التراب، فقال: "عدلت، فأمنت، فنمت". ومنها أنه لما فتح الله عليه الشام سافر من المدينة إليها وكان معه خادم وناقة واحدة،

فكانا يعتقبانها، يركب عمر والخادم يمشى، ويركب الخادم وعمر يمشى، فلما دخل الشام كانت النوبة فى المشى على عمر فدخلا المدينة والخادم راكب وعمر يمشى!

ومنها أن عثمان بن عفان أتى على حظيرة الصدقة فى يوم شديد الحر، شديد السموم، فإذا رجل عليه ازار ورداء، قد لف رأسه برداء، يطرد الإبل، يدخلها حظيرة الصدقة، فما انتهى إليه إذا هو عمر بن الخطاب، فتلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ {القصص/٢٦} وأشار إلى عمر وقال: هذا والله القوى الأمين

ولسنا نريد أن نستقصى هذه الأخبار فى زهد عمر وتقشفه، وإنما نريد أن نلم ببعض الأسباب التى خلقت فى عمر حالة الزهد هذه

إن عمر كان قوى الجسم، صحيح البنية لا ممعوداً ولا ضعيفاً، مرهف الحس، كسائر الناس، يعرف ما يلائم حواسه ومشتهياته، وينكر غير الملائم، فما الذى جعله يهرب من الملائم إلى غير الملائم؟

إن عمر لم يؤثر ذلك إلا وقد نشأت له حالة نفسية باين بها الناس الذين لا يسلكون مسلكه ولا ينهجون نهجه، هذه الحالة هى اعتقاده خساسة ما زهد فيه من حظوظ الدنيا، وشرف ما رغب فيه مما اختار لنفسه، وعلمه أنه باع هذه بتلك كان رابح الصفقة، غانم التجارة، فباع نعيم الدنيا وملذاتها، قادراً عليها بما عند الله من رضوان

والذى غرس فى عمر هذه العقيدة طول استماعه وتدبره لما ورد فى القرآن من حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ {الكهف/٤٦}

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ {الشورى/٢٠}

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ، وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ {القصص٧٩/٨٠}

وأخرى وهى حب عمر لرسول الله وتأسيه به وتأثره طريقه، يدل لذلك ما ورد أنه حين فتح عليه الفتوحات، قالت له حفصة ألبس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق، ومر بصنعة طعام تطعمه وتطعم من خضر، فقال عمر: يا حفصة ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته. فقالت بلى!

قال: "ناشدتك الله، هل تعلمين أن رسول الله ﷺ، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة؟"

"وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله قربتم إليه يوماً طعاماً على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه، ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على الأرض؟"

وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله كان ينام على عباءة مثنية، فثنيت له ليلة أربع طاقات، فنام عليها، فما استيقظ قال منعتمونى قيام الليلة بهذه العباءة، اثنوها باثنتين كما كنتم تثنوها؟"

"وناشدتك الله هلى تعلمين أن رسول الله كان يضع ثيابه لتغسل، فيأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة فما يجد ثوباً يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة؟

"وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله صنعت له امرأة من بنى زفر كساءين ازارا ورداء، وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر، فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به، ليس عليه غيره قد عقد طرفيه إلى عنقه، فصنع كذلك؟

"يا حفصة: قد كان لى صاحبان سلكا طريقاً، فإن سلكت غير طريقهما سلك بى طريق غير طريقهما، وإنى والله ساصبر على عيشهما الشديد، لعلى أدرك معهما عيشهما الرغيد"

الراعى أولى من رعيته بالتقشف

وأخرى وهى أن عمر أصبح والى أمر المسلمين، وقد رأى أنه يسع الرعية مالا يسع الراعى من التمتع بحظوظ الدنيا، لأن الراعى إن أشبع شهواته ضربت وقويت، ولا تصل إلى غاية من الحظوظ حتى تطمع إلى غيرها، فاستكثر من الأموال وربما كان ذلك ذريعة إلى تطلعه إلى ما بأيدى الرعية، ليشبع شهواته الجائعة، ويسكت نوازعه القوية، لذلك كان يحب من ولاته المتقشف المعتاد شظف العيش

يروى أن كان يجمع ولاته فى كل عام من أمصارهم ويولم لهم وليمة يقدم فيها من حسن الطعام، ثم يرقبهم وهم يأكلون، فمن رآه قد عافه علم أنه مترف، فكرهه لولايته، ومن رآه قد ملأ بطنه منه، علم أنه متقشف فأحبه لولايته. ولم يكن عمر بدعا فى هذا الرأى فقد رآه بعض فلاسفة اليونان من قبله، ومن يقرأ الجمهورية لأفلاطون ير ما يشترطه على الحكام من عزوف عن حظوظ الدنيا ومتعها، والفرق بين أفلاطون وعمر أن أفلاطون رآه وفرضه على الحكام، أما عمر فقد رآه وفرضه على نفسه ونفذه بالدقة والإحكام

ورابع الأسباب أنه كان يرى أن الخليفة يجب أن يكون حظه من الدنيا كحظ أدنى رعيته يشهد لذلك قوله: إذا كنت فى منزلة تسعنى وتعجز عن الناس فوالله ما تلك لى بمنزلة حتى أكون أسوة للناس

التقشف يحفظ القوة والنجدة

وأخر هذه الأسباب التى جعلت عمر يؤثر التقشف على الرفاهية والترف أنه كان يرى أن الترف مذهب للبأس من الأمة، وأن الخشونة تحفظ عليها قوتها ونجدتها، لذلك كان يكره الترف فى كل شئ لما يورث من النعومة والطراوة واللين، فمن ذلك أنه ما كان يركب الفرس مستعيناً بالركاب بل يقفز من الأرض فإذا هو على ظهر الفرس فكأنما خلق عليه

يكره فى كل أمره عادة العجز، وأننا نرى الأمة الأوربية فى هذا العصر تأخذ بهذا المبدأ، فرجال الطبقة العالية منهم يزاولون الأعمال الشاقة كتسلق الجبال والتجديف فى الأنهار، والألعب الرياضية الشديدة، ليبقوا على رجولتهم التى تمكن لهم فى الحياة، فإنهم يعملون أن الأمم إذا تساوت فى المواهب العقلية فأقدرها على التغلب أقواها رجولة

رحم الله عمر بن الخطاب فقد كان صادق الفراسة، قوى الظن، فإذا لخصت تاريخ الأمة الإسلامية تراه يتلخص فى هذا البيت:

ما أفسد الدين والدنيا سوى ترف   هذى بواقيه تسرى فى بواقينا

أدبه وتأدبه

أدبه مع رسول الله

سيتقدم معنا فى باب صحبته كلام على أدبه مع رسول الله ﷺ وحبه له وقيامه دائماً بين يديه يغنى عن الإسهاب فى هذا الباب، وحسبه أدباً مع رسول الله ﷺ وسلم تفانيه فى حبه تفانيا أذهله عن حقيقة موته فقال فى ذلك اليوم (من قال إن محمداً قد مات علوت رأسه بسيفى هذا)

أدبه مع نفسه

عن أنس قال دخلت حائطاً (بستاناً) فسمعت عمر يقول وبينى وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك الله.

وقال السيوطى قال عبد الرحمن بن عامر بن ربيعة رأيت عمر أخذ تبنة من الأرض فقال ياليتنى كنت هذه التبنة، يا ليتنى لم أك شيئاً، ليت أمى لم تلدنى. وعن سفيان بن عيينة قال: قال عمر بن الخطاب أحب الناس إلىّ من رفع إلى عيوبى. وأخرج الطبرى عن سلمان أن عمر قال له أملك أنا أم خليفة فقال له سلمان إن جبيت من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو أكثر ثم وضعته فى غير حقه فأنت ملك غير خليفة فبكى عمر: ولشد ما كان وأبو بكر يهربان من صفات الملوك ويقومان بحقوق الخلافة خوف الاتسام بسمة الملوك الجبارين التى يأباها الإسلام، وتنهى عنها شريعة محمد عليه الصلاة والسلام.

تأديبه لنفسه

كان عمر رضى الله عنه شديداً على الناس سريع العقوبة يتناول المسئ بالدرة التى قيل فيها "الدرة عمر أهيب من سيوفكم"، ومع هذا فقد كان سريع الإنابة رقيق القلب لا يلبث أن يعاقب حتى يندم لطهارة وجدانه وسلامة قصده.

أخرج الحافظ عز الدين الجزرى فى أسُد الغابة عن أبى غنية يحي بن عبد الملك بن سلامة بن صبيح التميمى قال: قال الأحنف بن قيس: كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل، فقال يا أمير المؤمنين انطلق معى فأعذنى على فلان فإنه قد ظلمنى، فرفع عمر الدرة فخفق بها رأسه: فقال: تدعون أمير المؤمنين

وهو معرض لكم حتى إذا شغل فى أمر من أمور المسلمين أتيتموه أعذنى أعذنى: قال فانصرف الرجل وهو يتذمر قال "أى عمر" علىّ الرجل "أى ردوه علىّ" فألقى إليه المخفقة، وقال امتثل "أى اقتص بمثل الضربة" فقال لا والله، ولكن أدعها لله ولك: قال ليس هكذا إما

أن تدعها لله إرادة ما عنده أو تدعها لي فأعلم ذلك: قال أدعها لله: قال "أي الأحنف" فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين وجلس فقال: "يخاطب نفسه" يا بن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله، وكنت ضالاً فهداك الله، وكنت ذليلاً فأعزك الله، ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعذيك فضربته ما تقول لربك غداً إذا أتيته: قال فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبة حتى ظننا أنه خير أهل الأرض.

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن إياس بن سلمة عن أبيه قال: مر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السوق ومعه الدرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي أمط عن الطريق فلما كان في العام المقبل لقيني فقال. يا سلمة تريد الحج، فقلت نعم فأخذ بيدي فانطلق بي إلى منزله فأعطاني ستمائة درهم، وقال استعن بها على حجك، واعلم أنها بالمخفقة التي خفقتك، قلت يا أمير المؤمنين ما ذكرتها قال: وأنا ما نسيتها.

هذه هي الفضيلة وذاك هو الوجدان الحساس الذي جعل ذلك الخليفة العظيم يطلب العفو من شخص عن خفقة أصابت ثوبه لم يقصد بها أذاه، وإنما قصد تنبيهه إلى كشف الأذى عن طريق الناس، والله أعلم بما عاني من القلق ريثما أن أوان الحج ووجد سبيلاً لاسترضاء ذلك المسلم عنه وطلب الصفح منه، مع أنه خليفة المسلمين الذي أنيط به العقاب فعاقب بمعروف ولم يتجاوز في مس طرف الثوب بدرته حد التنبيه إى إماطة الضرر عن الطريق، فأين هذا الإنصاف والرحمة من جبروت الخلفاء والسلاطين الذين بسطوا يد القوة بعد على الناس وتحكموا فيهم تحكم المالك في العبيد لا رحمة تشفع ولا جاه ينفع ولا فضيلة تمنع، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

تأديبه للمسلمين

بلغ برأفة عمر بالمسلمين وحملهم على الطريق الواضحة وتأديبه بآداب النبوة، أن كان إذا أراد تنبيههم إلى أمر نافع وصرفهم عن أمر ضار يتقدم إلى أهله بذلك التنبيه ليكون قدوة الناس وأسوة المسلمين فى التأديب، ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير فى تاريخه عن سالم وابن عساكر فى تاريخه عن ابن عمر قال كان عمر إذا صعد المنبر فنهى الناس عن شئ جمع أهله فقال: إنى نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة لمكانه منى.

وروى عن عكرمة بن خالد قال دخل ابن لعمر بن الخطاب عليه وقد ترجل ولبس ثياباً حساناً فضربه عمر بالدرة حتى أبكاه فقالت له حفصة لِما ضربته قال رأيته قد أعجبته نفسه فأحببت أن أصغرها إليه.

ومن أخباره فى التأديب التى تدل على عظيم رحمته وحنانه وشدة عقوبته لغلاظ القلوب ما جاء فى كنز العمال عن أبى عثمان النهدى قال: استعمل عمر بن الخطاب رجلاً من بنى أسد على عمل فجاء يأخذ عهده فأتى عمر ببعض ولده فقبله، فقال الأسدى: أتقبل هذا يا أمير المؤمنين والله ما قبلت ولداً قط: قال عمر فأنت والله بالناس أقل رحمة هات عهدنا لا تعمل لى عملاً أبداً. فرد عهده

جوزى هذا العامل بالعزل والإبتعاد عن العمل "التوظف" لكلمة قالها لعمر رضى الله عنه أحس منها عمر بغلظة فؤاده فخشى إن هو عهد إليه بالعمل أن يكون فظاً غليظ القلب على الرعية فعزله: فهل كان للأمراء والسلاطين من بعده بصر يبصرون به أو سمع يسمعون به، فيعلموا أن عمر ابن الخطاب الذى أرهب أبناء الحرية وصناديد العرب وسادات قريش واستخضع لحكمه الفرس والروم الصائبة منهم وأهل الكتاب فكانوا كلهم بالسمع والطاعة له سواء، إنما ساسهم بمثل هذه السياسة وكان بهم رءوفاً كرأفة الوالد بالبنين، وعليهم عطوفاً، كعطف المرضع على الطفل.

أجل كان منهم من علم ذلك وعمل به وهم الخيرة الطيبون الذين ساسوا وعمروا، وجاء غيرهم فخربوا ودمروا فكانوا صواعق من العذاب فانقضت على المسلمين فقضت على ماشيده غيرهم بالدمار وشوشت نظام الملك وقتلت العقول وجردت سيوف الاستبداد على الأمة فأعدمتها رشدها وأفسدت أخلاقها، وذهبت بعلومها وطأمنت من أشرافها وأفقدتها عزها وشممها فأذلتها ذلاً هانحن أولاء نشاهد نتائجه الآن بالعيان حيث نظلم ونهان من كل إنسان وليس فينا روح تدب، ولا نائم يهب، بل كلنا أموات يحسبنا العالم المتمدين من الرفات قلوبنا متفرقة وأهواؤنا شتى ونفوسنا خامدة إلا عن السفاسف وخطانا قاصرة إلا عن أماكن الفساد

وشأننا كله شأن من رضى بالذل وانغمس فى الجهل واستسلم للقضاء حتى ساعة الفناء.

ومن ينم عن شؤون كله خطر   فليس يخطئ من ينعيه للناس

ومن تأديبه لأشراف قريش وقهره لنفوسهم مع ما عرفوا به من الكبرياء والسيادة ما رواه ابن الخوزى عن الحسن قال حضر باب عمر رضى الله عنه سهيل بن عمرو بن الحرث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى نفر من قريش من تلك الرءوس، وصهيب وبلال وتلك الموالى الذين شهدوا بدراً فخرج إذن عمر فأذن لهم (أى للموالى) وترك أولئك، فقال أبو سفيان لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا: فقال سهيل بن عمرو وكان رجلاً عاقلاً أيها القوم إنى والله أرى الذى فى وجوهكم إن كنتم غضاباً فأغضبوا على أنفسكم دعى القوم ودعيتم فأسرعوا وابطأتم فكيف بكم إذا دعوا على أنفسكم يوم القيامة وتركتم: كان هذا شأنه رضى الله عنه مع كبار قريش الذين تأخر إسلامهم إلى ما بعد الفتح، أخرج أبو الفرج أيضاً عن يحي بن عبد الرحمن بن أبى حاطب عن أبيه قال قدمنا مكة فأقبل أهل مكة يسعون، يا أمير المؤمنين أبو سفيان حبس مسيل الماء علينا ليهدم منازلنا، فأقبل عمر ومعه الدرة فإذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً فقال ارفع هذا فرفعه ثم قال وهذا حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أو ستة، ثم استقبل عمر الكعبة فقال الحمد لله الذى جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه، ومن علم ما هى سلطة أبى سفيان بمكة، وكيف كان تحكم قريش فى رقاب الناس علم فضل الإسلام فى تأسيسه قاعدة المساواة وعدله بين الناس ومحوه آثار التفاضل بالأنساب، ومن أخباره فى التأديب ما نقله فى العقد الفريد أن عمر رضى الله عنه قال لرجل من سيد قومك: قال أنا: قال كذبت لو كنت كذلك لم تقله.

أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم:

إذا أردت أن تعلم أدب الرجال العظام الذين رفع الله نفوسهم لا بالكبرياء وسودهم على الأمم لا بالغطرسة والتجبر، وحببهم إلى الناس لا بالخيلاء فاسمع ما أخرجه الطبرى فى تاريخه عن الحسن قال: قال عمر إذا كنت فى منزلة تسعنى وتعجز الناس فوالله ما تلك لى بمنزلة حتى أكون أسوة الناس.

هذا الخليفة العظيم الذى دوخ ملك فارس والروم وأرهبت سطوته الأمم، وامتد ظل سلطانه إلى حدود الهند شرقاً وأفريقيا الشمالية غرباً، ومنحه الله هذا الملك العريض والسلطان العظيم، لا يرضى لنفسه منزلة فوق منزلة الناس حتى من أدنى رعاياه، إن هذا لهو العدل الذى ليس فوقه عدل ولا جرم، فمثل ذلك عظم قدره وشاع ذكره وملأ الأذهان خبره، حتى عده المؤرخون من أعظم رجال الإسلام وحتى إننا لنفخر به على ملوك الأرض فرضى الله عنه وأرضاه.

ومن تواضعه ما أخرجه الطبرى عن ابن أبى سلمان عن أبيه: قال قدمت المدينة فدخلت داراً من دورها فإذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عليه إزار قطرى يدهن إبل الصدقة بالقطران.

وأخرج عن زهير بن سالم أن كعب الأحبار قال: نزلت على رجل يقال له مالك وكان جاراً لعمر بن الخطاب فقلت له كيف الدخول على أمير المؤمنين: فقال ليس عليه باب ولا حجاب يصلى الصلاة ثم يقعد فيكلمه الناس.

وفى المناقب عن الحسن رضى الله عنه قال كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام فى شئ، فقال له الرجل: اتق الله فقال رجل من القوم أتقول لأمير المؤمنين اتق الله فقال له عمر فليقلها لى نعم ما قال لا خير فيكم إذا لم تقولوها ولا خير فينا إذا لم نقبلها.

وليس قول عمر هذا من قبيل التواضع فقط، بل هو من قبيل العلم بوجوب النصيحة على المسلمين وبوجوب انتصاح الإمام منهم وضاه بنصحهم وتذكيرهم له بالتقوى والعدل وذكر أرباب السير أن عمر رضى الله عنه كان أيام القادسية شديد التطلع إلى أخبار جيوش المسلمين كثير الاهتمام بأمرهم فكان يخرج كل يوم خارج المدينة يترقب الأخبار ويتنسمها ثم يرجع إلى أهله، فلما لقيه البشير سأله من أين، فأخبره، فقال يا عبد الله حدثنى، قال هزم الله العدو: وعمر يخب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه، حتى دخل المدينة فإذا الناس يسلمون عليه بإمرة المؤمنين، فقال الرجل: فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين وجعل عمر يقول لا عليك يا أخى.

وذكروا أن عمر لما قدم الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره وخلع نعليه فأمسكهما بيده فخاض الماء ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة رضى الله عنه قد صنعت صنيعاً عظيماً عند أهل الأرض (يعنى أهل الشام)، فصك عمر فى صدره وقال أواه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة، إنكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله.

وروى الطبرى أن عمر لما قدم الشام فى أيام الطاعون اتخذ أيلة طريقاً حتى إذا دنا منها تنحى عن الطريق واتبعه غلامه فنزل فبال، ثم عاد فركب بغير غلامه وعلى رحله فرو مقلوب وأعطى غلامه مركبه، فلما تلقاه أوائل الناس قالوا أين أمير المؤمنين: قال أمامكم يعنى نفسه وذهبوا هم إلى إمامهم فجاوزه حتى انتهى هو إلى أيلة فنزلها وقيل للمتلقين قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها فرجعوا إليه (وذلك لأنه لما قال لهم إمامكم، وعنى نفسه لم يعرفوه وظنوا أنه يشير إلى أن الأمير غيره وقد تقدمه إلى الأمام)

وروى عن مولى لعثمان بن عفان رضى الله عنه قال كنت رديفاً لعثمان بن عفان حتى أتى على حظيرة الصدقة فى يوم شديد الحر شديد السموم، فإذا رجل عليه إزار ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الإبل يدخلها الحظيرة حظيرة إبل الصدقة فقال عثمان من ترى هذا، قال فانتهينا إليه فإذا هو عمر ابن الخطاب. فقال هذا والله القوى الأمين.

وفى كنز العمال عن الفضل بن عميرة أن الأحنف بن قيس قدم على عمر بن الخطاب فى وفد من العراق قدموا عليه فى يوم صائف شديد الحر وهو محتجز[١] بعباءة يهنا[٢] بعيراً من إبل الصدقة، فقال يا أحنف ضع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فإنه من إبل الصدقة، فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين، فقال رجل يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا: فقال عمر: يا بن فلانة وأى عبد هو أعبد منى ومن الأحنف هذا، إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة فى المداراة.

تالله إن هذا الخلق يعلو بصاحبه عن وصف الواصفين ومرتبة لا يبلغها أحد من الخلفاء والسلاطين، ومن يعد نفسه عبداً للرعية إذا ملكها وخادماً لها إذا أمرته عليها ويقوم على خدمتها قيام التابع على خدمة المتبوع فى جزئيات أمورها وكليات سياستها لجدير به أن يقال هذا ملك كريم لا ملك عظيم، وحقيق بمثله الافتخار سو عليه البكاء وإلى مثله الحنين، ولا مثل لعمر جباراً على الظالمين رحيماً بالمستضعفين قوياً على الحق كريماً على الناس، باراً بالرعية يتعب لتستريح، ويسهر لتنام، ويجوع لتشبع، ويفتقر لتستغنى فنسأل الله له الرحمة والرضوان. كما نسأله لأنفسنا العافية من الظلم والسلامة من عاقبة الجور، إنه مجيب السؤال.

---

(١) ملتف.   (٢) يتحى.

فراسته وذكاؤه

كان رضى الله عنه حديد الذكاء شديد الفراسة يكاد بفراسته يستطلع خبايا القلوب ويستخرج ماتكنه النفوس، وقد ساعده تفرسه فى الناس على وضع الشدة فى مواضعها واللين فى مواضعه حتى أخذ بنواصى الناس واستكانت له رغبة ورهبة، وكان أشد الناس حذراً منه قريش كما كان هو أشد الناس حذراً منهم واستكناهاً لكنه ضمائرهم، ليحسن إلى محسنهم ويأخذ على يدى مسيئهم، لهذا دبت فى قلوبهم هيبته وفعلت فى نفوسهم فراسته.

١- والفراسة هى خليط من الذكاء والإلهام، ولا غنى عنها لمن يلى الأمور العامة. فإذا كانت القاعدة المسلم بها أن الحاكم يجب أن يصدر قراره أو حكمه عن بصيرة وبينة، وبعد أن تتوافر لديه المعلومات الضرورية اللازمة للحكم فى القضية أو الأمر المطروح، فإن كثيراً من المواقف المستعجلة قد لا تتيح للحاكم فرصة التأنى، وجمع البيانات. وحينئذ يكون القول الفصل، والذى قد ترتبط به مصائر شعوب، موكولاً إلى حسن تقدير القائد، وما يتوافر لديه من فراسة. والمعروف أن الفراسة ليست من المواهب التى تكتسب بالتعليم والخبرة، ولكنها استعداد موروث، يستند إلى شفافية، وإلى حدة فى الذكاء، وإلى الإحساس الكامل بالمسئولية، وإلى خشية الله. ولا شك أن كل استعداد طبيعى ينمو بالمران والاستخدام وكل هذا متوفر إلى أقصى حد فى عمر بن الخطاب.

فبالرغم من قسوة الخطاب أبيه، فإنه كان رجلاً ذكيا، موفور الاحترام فى قومه، شجاعاً، يخوض المعارك على رأس بنى عدى فى جرأة وثبات. وكان عمه زيد بن عمرو -وهذا هو المهم- ممن انكر عبادة الأوثان ودعا إلى التوحيد قبل بعث الرسول، وكان يقول لقومه "أيرسل الله قطر السماء. وينبت بقل الأرض، ويخلق السائمة فترعى منه، وتذبحوها لغير الله! والله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على دين إبراهيم غيرى وقال شعراً فى نبذ عبادة الأوثان، مما أثار عليه قومه حتى أخرجوه من مكة. وروى أن سعيد بن زيد بن عمرو وعمر بن الخطاب سألا رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم عن زيد هذا فقال: "يأتى يوم القيامة أمة وحده."

وجميع الروايات المتواترة عن إسلام عمر، ترجع إيمانه إى أن بعض آيات القرآن الكريم سمعها من رسول الله بجوار الكعبة وهو مختف بين أستارها، أو قرأها فى صحيفة لدى أخته وزوجها، قد مست شغاف قلبه، وحركت جوهره السليم، ومعدنه الأصيل، وكشفت عن الملكات المستكنة والتى حجبها عناد الشباب، ووسوسة الشيطان.

٢- وليس بين أصحاب الرسول عليهم رضوان الله، على كثرتهم وصدق إيمانهم، وشفافية نفوسهم، من رويت عنه من أمارات الفراسة، ماروى عن ابن الخطاب. وهنا أيضاً نكتفى

ببعض هذه الروايات:

أولا: كشف مؤامرة عمير بن وهب لقتل الرسول: فقد اتفق صفوان بن أمية، مع عمير بن وهب الجمحى، على أن يقتل هذا الأخير رسول الله فى مقابل جعل تعهد له به. وحضر عمير بن وهب إلى المدينة لهذا الغرض.

وما كاد عمر يراه، حتى أدرك مراده، ونبه رسول الله إلى نيته المبيتة، وأفسد عليه خطته، بل وكان سبباً فى إسلامه!

ثانيا: كشف جريمة قتل بالفراسة: جئ إلى عمر يوما بفتى أمرد وقد وجد قتيلاً ملقى على الطريق، ولم يعرف قاتله. فشق ذلك على عمر، حتى إذا مر حول تقريباً وجد صبى مولود ملقى بموضع القتيل، وجئ به إلى عمر، فقال ظفرت بدم القتيل واستطاع بشفافية روحه أن يدرك الصلة بين الواقعتين، وأن يتأكد من أن والدة الطفل، هى قاتلة الشاب على نحو ما تفصله كتب التاريخ!

ثالثاً: وروى أن عمر أبصر أعرابياً نازلاً من جبل فقال: هذا رجل مصاب بولده، قد نظم فيه شعراً، لو شاء لأسمعكم، فكان الأمر كما قال!

رابعا: وعن يحيى بن سعيد أن عمر بن الخطاب قال لرجل: ما اسمك؟! قال جمرة، قال ابن من؟ قال ابن شهاب. قال ممن؟ قال من الحرقة، قال ثم ممن؟ قال من بنى ضرام. قال أين مسكنك؟ قال الحرة. قال بأيتها، قال بذات لظى. قال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا. فكان كما قال عمر!!

خامسا: روى البخارى عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال: ماسمعت عمر يقول لشئ قط إنى لأظنه كذا إلا كان كما يظن. بينما عمر جالس إذا مر به رجل جميل. فقال عمر: لقد أخطأ ظنى أو أن هذا على دين الجاهلية أو لقد كان كاهنهم.. وصدقت فراسة عمر.

سادساً: أراد عمر رضى الله عنه أن يعزل المغيرة عن العراق ويولى جبير بن مطعم مكانه، وأوصى جبيراً أن يكتم الخبر، وأن يتجهز للسفر. فأحس المغيرة ذلك، وسأل جليساً له أن يدس امرأته – وكانت مشهورة بلقط الاخبار حتى سميت "القاطة الحصا" لتستطلع الخبر من بيت جبير. فذهبت إلى بيته، فإذا امرأته تصلح أمره، فسألتها: إلى أين يخرج زوجك؟! قالت إلى العمرة. قالت لقاطة الحصى، بل كتمك، ولو كانت لك عنده منزلة لأطلعك على أمره. فجلست امرأة جبير متغضبة، ودخل عليها وهى كذلك. فلم تزل حتى أخبرها، وأخبرت لقاطة الحصا، وذهب المغيرة إلى عمر ففاتحه بما علم وهو يقول له: بارك الله لأمير المؤمنين فى رأيه وتوليته جبيراً. فلم يعجب عمر من وقوفه عل السر، بل قال: كأنى بك يا مغيرة قد فعلت كيت وكيت كأنما سمع ورأى، وعدل عن تولية جبير.

سابعاً: على أن أغرب ما يروى من أخبار فراسة عمر، قصة نداء سارية الجبل: فلقد كان عمر يخطب يوم الجمعة بالمدينة، فإذا به يقول فى خطبته من غير تمهيد: "يا سارية بن حصن، الجبل الجبل، من استرعى الذئب ظلم" فالتفت الناس بعضهم إلى بعض فلم يفهموا

مراده. فلما قضيت الصلاة قال له على بن أبى طالب: ما هذا الذى قلته؟ قال وقع فى خلدى أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم، وأنهم يمرون بجبل، فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوه وظفروا، وإن جاوزوه هلكوا، فخرج هذا الكلام. فجاء البشير بعد شهر، فذكر أنهم سمعوا فى ذلك اليوم وتلك الساعة حين جاوزوا الجبل، صوتاً يشبه صوت عمر يقول: "يا سارية بن حصن، الجبل الجبل" وقال فعدلنا إليه ففتح الله علينا!

ويعلق الأستاذ عباس محمود العقاد -فى عبقرية عمر- على هذه الواقعة بقوله: "ولا داعى للجزم بنفى هذه القصة استناداً إلى العقل أو إلى العلم أو التجربة الشائعة، فإن العقل لا يمنعها، والعلماء النفسانيون فى عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفى أمثالها، بل منهم من مارسوا التلباثى Telepathy وسجلوا مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين. إلا أن المهم من نقل هذه القصة فى هذا الصدد أن عمر كان مشهوراً بين معاصريه بمكاشفة الأسرار الغيبية، إما بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد، وهى الهبات التى يلحقها بالعبقرية علماء العصر الذين درسوا هذه المزية الإنسانية النادرة وراقبوها وأكثروا من المقارنات فيها والتعقيبات عليها"

٣- ولقد أفاد عمر من هذه الهبة أيما فائدة، سواء فى اختيار قادة الجيوش، أو حكام الأقاليم، أو فيما يتعلق بإبداء الرأى فى أمور الدولة الكبرى. فبرغم بقاء عمر بالمدينة معظم الوقت، فإن قادة الجيوش وحكام الأقاليم ما كانوا يبرمون أمراً دون مشورته. وما أبدى رأياً إلا كان فيه الخير، وهى صورة نادرة لا نكاد نجد لها مثالاً إلا فى حالة عمر.

وبالرغم من أن عمر قد خالط قوماً وأناساً كانوا علماً على الدهاء وسعة الحيلة، من أمثال عمرو بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان، والمغيرة بن شعبة وغيرهم، فإن أحداً منهم لم ينجح مرة واحدة فى أن يضلل عمر، أو يحيد به عن الجادة. نجد مصداق هذا فى حديث جرى بين اثنين من أكبر دهاة العرب، هما المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص. قال الأول للثانى: "أأنت كنت تفعل أو توهم عمر شيئاً فيلقنه عنك؟! والله ما رأيت عمر مستخلياً بأحد إلا رحمته، كائناً من كان ذلك الرجل. كان عمر والله أعقل من أن يُخدع، وأفضل من أن يَخدع". ولهذا فقد وصف عمر نفسه بقوله: "لست بالخب، ولكن الخب لا يخدعنى[1]!"

٤- ولهذا أيضاً كان عمر أكثر الصحابة سبباً وموافقة للتشريع الإسلامى. وتورد كتب السيرة كثيراً من "موافقاته" أى الأحكام التى كان عمر سبباً فى نزولها قرآناً. ومن أشهرها:

---

(١) ويعلق الأستاذ عباس محمود العقاد، فى مؤلفه الذى سبقت الإشارة إليه على هذا الحكم بقوله: "وهذا هو الحد الفاصل أحسن الفصل بين الدهاء المحمود والدهاء المذموم، أو بين الفهم الصحيح، والخبث القبيح. فهناك فطنة تسئ الظن لأنها تعرف الشرور التى فى طبائع الناس، وفطنة تسئ الظن لأنها تشعر شعور السوء. والفرق بينهما عظيم، كالفرق بين الخير والشر. والمحمدة والمذمة. فالفطنة الأولى معرفة حسنة، والفطنة الثانية خلق ردئ. وإنما كان عمر بالفطنة الأولى معصوماً من أن يخدع أو ينخدع لغيره، وهذا هو الحد القوام الذى لا نقص فيه من جانبه".

(أ) اتخاذ مقام إبراهيم مصلى.

(ب) نزول آية الحجاب بالنسبة إلى نساء النبى.

(جـ) نزول آية تحريم الخمر.

(د) نزول آية ترك الصلاة على المنافقين.

(هـ) نزول آية الاستئذان﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ {النور/٥٨}

(و) موافقته فى الأذان: فالمشهور أن صيغة الأذان الحالية كانت نتيجة حلم رآه ابن الخطاب، وأقره عليه رسوال الله ﷺ.

(ز) لما نزل قوله تعالى: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ {الواقعة١٣/١٤} بكى عمر، وقال يا رسول الله، وقليل من الآخرين؟ آمنا برسول الله ﷺ، وصدقناه، ومن ينجو منا قليل؟! فأنزل الله تعالى﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ، وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ {الواقعة١٣/١٤}.

ولقد كانت هذه الموافقات فى حياة الرسول إيذاناً بمولد المشرع الإسلامى الكبير فيما بعد، حين انقطع الوحى، وتغيرت الظروف، ووجد عمر نفسه وجهاً لوجه أمام مشاكل لم يكن لها مثال أيام الرسول.

صحبته:

صحب عمر رسول الله ﷺ فأحسن صحبته، وبذل فى نصرته مهجته، ومازال منذ أسلم يناضل عن المسلمين، وينافح عن سيد المرسلين، ويظهر من الشدة على أعدائه والمظاهر لأوليائه ما أزعج قريشاً عن أذنى النبى ﷺ، وخفف وطأة تعسفهم على اتباعه، واضطهادهم للمسلمين قبل الهجرة إلى المدينة، حتى إذا أذن الله للنبى ﷺ وأصحابه بالهجرة أخذوا يهاجرون مستخفين إلا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فإنه لشجاعته وقهره لقريش، وشدة بأسه عليهم هاجر على ملأ قريش كما سبق ذكره.

وأخرجا عن البراء بن عازب: قال: أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير أخو بنى عبد الدار، ثم قدم علينا ابن أم مكتوم الأعمى أخو بنى فهر، ثم قدم علينا عمر بن الخطاب فى عشرين راكباً. فقلنا ما فعل رسول الله ﷺ، قال هو على أثرى ثم قدم رسول الله ﷺ وأبو بكر معه.

ومازال عمر فى هجرته كما كان فى مكة شديداً على المخالفين، قواماً على الحق منافحاً عن رسول الله، مراقباً لأعدائه حريصاً عليه من وصول أذاهم إليه مبغضاً لمن أبغضه، لا يفتأ يراقب حركات المنافقين، ويستطلع ضمائر الوافدين، حتى إذا تفرس فى أحدهم سوء نية لازمه فى دخوله وخروجه وألزمه حد الأدب مع رسول الله ﷺ والإحجام عنه والخضوع بين يديه. روى أن عمير بن وهب الجمحى عاهد صفوان بن أمية القرشى بعد موقعة بدر على أن يأتى المدينة، ويقتل رسول الله ﷺ، فقدمها واستأذن على رسول الله، فخرج إليه عمر بن الخطاب، وتفرس فيه الشر، فأخذ بحمالة سيفه وقال لرجال معه من الأنصار ادخلوا على رسول الله واحذروا هذا الخبيث، فلما رآه رسول الله، قال لعمر اتركه يا عمر، ثم سأله عما جاء به، فقال جئت لهذا الأسير (يعنى أباه وهبا لأنه كان أسيراً عند المسلمين، أسروه فى موقعة بدر) قال: اصدقنى قال: ما جئت إلا لذلك: قال: بل قعدت أنت وصفوان وجرى بينكما كذا وكذا فدهش عمير، وأسلم لساعته.

وكان ممن يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه من قريش سهيل بن عمرو فأسره فى موقعة بدر مالك بن الدخشم الأنصارى، فلما أتى به رسول الله قام إليه عمر وقال، دعنى انزع ثنيته يا رسول الله، فلا يقوم عليك خطيباً أبداً فقال: رسول الله ﷺ دعه يا عمر، فسيقوم مقاماً تحمده عليه فتركه[1]

ورأى مرة يهودياً ممسكاً برسول الله يطالبه بدين له، فعظم ذلك عليه وأخذ بخناق اليهودى وقال: دعنى أقتله يا رسول الله فقال: دعه يا عمر عن لصاحب الحق مقالاً.

وله من هذا القبيل أخبار كثيرة أيام صحبته لرسول الله ﷺ تدل على عظيم محبته له، وإخلاصه فى النب عنه، والشدة على من ناوأه. وكان النبى ﷺ يستشير أصحابه فى بعض الأمور، فكان أبو بكر وعمر أفضلهم عنده رأياً، لصدق لهجتهما وعظيم إخلاصهما، ولهذا قال النبى عليه الصلاة والسلام فى عمر (إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه)، وفى رواية أبى داود عن أبى ذر: قال: (إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به). وعن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ (لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدثون (ملهمون) فإن يك فى أمتى أحد فإنه عمر (متفق عليه كما فى المشكاة) لهذا كان رضى الله عنه يرى الرأى فينزل به القرآن، حتى بلغت موافقاته عشرين ونيفاً، ومنها آية تحريم الخمر، فإنه لما قال (اللهم بين

(١) تحقق مقام سهيل هذا الذى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الردة ذلك أن قريشا لما وصلهم نعى رسول الله اضطربوا وكادوا يرتدون فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا إليه فقال يا أهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد، والله ليتمن هذا الأمر كما ذكر رسول الله إلى آخره ما قال مما هو مسطور فى التواريخ فامتنع أهل مكة عن الردة.

لنا فى الخمر بيانا شافيا) نزلت آية التحريم، ومنها آية الحجاب، فإنه أمرنساء النبى ﷺ أن يحتجبن، فقالت له زينب: وإنك علينا يا بن الخطاب، والوحى ينزل فى بيوتنا: فأنزل الله تعالى ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاء حِجَابٍ﴾{الأحزاب/٥٣} ومنها آية الاستئذان فى الدخول، وذلك أنه دخل عليه غلامه وكان نائماً فقال: اللهم حرم الدخول: فنزلت آية الاستئذان.

إلى هذا المقام وصل عمر رضى الله عنه فى صدق اللهجة، وقول الحق وجميل الصحبة، وحسبه فضيلة فى نفسه وفضلاً على المسلمين فى صحبته كونه كان سبباً فى تحريم الخمر الذى هو آفة الإنسانية وجرثومة الشر وعلة العلل الاجتماعية، والأمراض العقلية والجسمانية فى كل زمان ومكان.

هكذا كان عمر رضى الله عنه نافعاً فى صحبته ملازماً للنبى ﷺ شديد الحرص عليه، والحب له والمدافعة عنه، وشهد معه من المشاهد بدراً والخندق وبيعة الرضوان وحنيناً والفتح وخيبر وغيرها وكان ممن ثبت مع رسول الله فى أحد.

أخرج فى أسُد الغابة عن الزهرى وعاصم بن عمر قال: لما أراد أبو سفيان الانصراف (عقب موقعة أحد) أشرف على الجبل، ثم نادى بأعلى صوته إن الحرب سجال. يوم بيوم بدر أعل هبل (أى اظهر دينك) فقال: رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب قم فأجبه: فقال الله أعلى وأجل لا سواه، قتلانا فى الجنة، وقتلاكم فى النار: فما أجاب عمر أبا سفيان، قال أبو سفيان: هلمّ إلى ياعمر، فقال رسول الله ﷺ: ائته فانظر ما يقول: فجاءه فقال له أبو سفيان: أنشدك بالله يا عمر أقتلنا محمداً؟ قال: لا وإنه يسمع كلامك الآن، فقال أبو سفيان أنت أصدق عندى من ابن قمئة وأبر (لقول بن قمئة لهم قد قتلت محمداً).

وأرسل رسول الله ﷺ عمر غازياً إلى ذات السلاسل فى جيش أميره عمرو بن العاص وأرسله فى جيش أميره أسامة بن زيد مولى رسول الله وتوفى رسول الله ﷺ وسافر أسامة بالجيش بعد وفاته وبقى عمر بالمدينة استبقاه أبو بكر .... وبالجملة فإن عمر رضى الله عنه خدم الإسلام فى صحبته كما خدمه فى خلافته، وكان مخلصاً فى إيمانه، مخلصاً لنبيه عظيم الحب له، حتى بلغ من حبه له أنه لما مات ﷺ لم يصدق بموته، أو أصابه من شدة الحزن دهشة وذهول، حتى قام فقال: من قال إن محمداً قد مات علوت رأسه بسيفى هذا، وليبعثه الله فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم، والقصة مشهورة أوردنا المهم منها فكأن عمر ألهم هذا القول حتى أرهب المنافقين فأذهلهم من الكلام، ريثما جاء أبو بكر وسكن اضطراب النفوس ببيانه.

الفاروق.. الشديد اللين

من أيسر الأمور على المثال البارع أن يصنع لعمر بن الخطاب رضى الله عنه تمثالاً يجمع بين الصدق والروعة، وبين الدقة التى ترضى الحق والجمال الذى يرضى الخيال. فقد حفظ التاريخ لعمر صورة دقيقة صادقة لا تتعرض للشك ولا الخلاف، بحيث يراها الناس جميعاً إذا قرأوا تاريخه فلا يختلفون فيها ولا يفترقون فى الإعجاب بها والإعظام لها مهما تختلف أمزجتهم وطبائعهم، ومهما تختلف آراؤهم ومذاهبهم، ومهما تختلف طرائفهم فى التفكير والحكم والشعور

وهذه الصورة الصادقة الرائعة التى حفظها التاريخ لعمر لا تمثل شخصه المادى وحده، وإنما تمثل شخصه المادى والمعنوى أيضاً. وتمثل شخصه المعنوى من جميع نواحيه: تمثل قلبه وتمثل عقله وتمثل إرادته وتمثل حسه أيضاً. وهى صادقة فى هذا كله لا يتطرق إليها الشك لأنه أوضح وأظهر من أن يتطرق إليه الشك أو تختلف فيها الآراء. وما أعرف أن تاريخ الخلفاء والملوك المسلمين قد صدق فى تصوير شخصية من شخصيات الخلفاء والملوك كما صدق فى تصوير شخصية عمر بن الخطاب. والغريب أن هذه الشخصية لم تكن سهلة ولا يسيرة فى نفسها، وإنما كانت عسيرة معقدة كما سترى بعد قليل، ولكنها كانت قوية جداً، قوية إلى الحد الذى يعجز معه التاريخ عن مقاومتها فيضطر إلى أن يقبلها كما هى لا يستطيع أن يزيد فيها أو ينقص منها، وإنما يتلقاها كاملة وينقلها إلى الأجيال كاملة وتمضى القرون فى أثر القرون وهى كما هى لا يستطيع الزمان أن يمسها بزيادة أو نقص. ولو أن مثالاً بارعاً قرأ ما حفظ التاريخ من صورة عمر، ثم أراد أن يظهر ذلك بوسائله الفنية وأن يصنع هذا التمثال لعمر، لجمع بين خصلتين غريبتين، فكان ناقلاً لا مبتكراً، وكان فى الوقت نفسه رائعاً معجباً يبهر العقول ويخلب الألباب ويملأ الأبصار والقلوب

ولكن عمر كان ثانى خلفاء المسلمين، فمكانته الدينية ومنزلته من النبى ومقامه من الإسلام نفسه كل ذلك يرفعه عن أن يكون موضوعاً لصناعة المصور أو المثال. فلنجتهد فى أن نستعين بصناعة الكلام على تصويره للشباب الحدثين، فعمر فيما نعتقد أعظم شخصية يمكن أن تعرض على الشباب لأنهم يجدون فيه خير ما نحب أن يجدوا من المثل التى نتمنى أن يطيلوا النظر إليها والتفكير فيها والتأثر لها لعلهم يرقون إليها شيئاً

وأول ما يهمنا من أمر عمر أنه كان ملتقى لطائفة من الخصال المتناقضة التى ينكر بعضها بعضاً أشد الإنكار، ويدفع بعضها بعضاً أشد الدفع. ولكن الله قد لاءم بينها وألف بين مقاديرها تأليفاً غريباً حتى التقت فلم تتنافر ولم تتدابر ولم يفسد بعضها أثر بعض. وإنما

ائتلفت أحسن ائتلاف وانسجمت أروع انسجام كما تألفت الأصوات المتنافرة وكما تنسجم الأنغام المتباعدة فى القطعة الموسيقية الرائعة، حتى أصبح شخص عمر آية خالدة من آيات الموسيقى يتغنى بها تاريخ المسلمين وسيتغنى بها ما بقى الإسلام وما بقى للإسلام تاريخ

وأغرب من هذا كله أن بعض هذه الخصال لم يستأنف فى شخص عمر، وإنما وجدت فى أسرته ورهطه الأدنين مفرقاً قبل أن يوجد عمر. وقد نشأ هذا الفتى القرشى فأدرك شيئاً من هذه الخصال. فقد كان أبوه الخطاب بن نفيل رجلاً غليظاً فظا إن امتاز بشئ من قومه فإنما يمتاز بالشدة والعنف والمحافظة على القديم الموروث والنشاط الغريب فى حماية هذا القديم الموروث والذود عنه. وكان ابن عمه زيد بن عمرو بن نفيل رجلاً رقيقاً ليناً مرهف الحس ذكى القلب نقى الطبع مستعداً للإيمان الصادق مبغضاً القديم شديد النشاط للتجديد. شك فى وثنية قومه ثم جحدها والتمس ديناً صفواً وملة نقية، وجعل ينكر على قريش ما كانت فيه، فكانت قريش تسمع منه وتعرض عنه ولا تحفل بما كان يقول، ولكن الخطاب بن نفيل ثبت له ثم قاومه، ثم جد فى فتنته حتى أشقاه ليلتمس ما كان يحب من دين عند اليهود والنصارى. وقد فر زيد بدينه الجديد أو باستعداده للدين الجديد، وجعل يلتمس ما يحب عند اليهود مرة، وعند النصارى مرة، حتى استيأس من أولئك وهؤلاء فعاد إلى مكة ولكنه قتل غيلة فى بعض الطريق

وقد ورث عمر هاتين الخصلتين عن أسرته، فكان شديداً ورقيقاً فى وقت واحد، وكان غالياً فى الشدة، غالياً فى الرقة أيضاً، وكان إسلامه مظهراً لهاتين الخصلتين المتناقضتين. خرج ذات يوم وكان فتى قد نيف على العشرين ملتزماً أن يشتد فى غيظ المسلمين والكيد لهم والإيقاع بهم، يبحث عن أول فرصة تتيح له البطش بهؤلاء المجددين، فلقى رجلاً من المسلمين وأخذ معه فى حديث حول الإسلام يريد أن ينتهى من هذا الحديث إلى الشدة والبطش، فينبئه هذا الرجل أن الإسلام قد غزا أسرته واستقر فيها، وأن أخته قد أسلمت كما أسلم زوجها. فينقض عمر على أخته وقد أزمع البطش بها وبزوجها، فإذا بلغ الدار سمع قراءة، فإذا طرق الباب فزع من فى الدار واستخفى مقرئ الأسرة، ودخل عمر على أخته فسألها فلم تخف عليه شيئاً، فيبطش بها وبزوجها ويثبتان له ويظهرانه على الصحيفة التى كانا يقرآن فيها، فلا يكاد يتلو آيات من القرآن حتى تذهب شدته وبأسه ويستحيل إلى لين وعطف ورحمة واشفاق، ويسأل عن مكان النبى فإذا دل على هذا المكان ذهب إلى حيث كان النبى وأصحابه يجتمعون، فإذا أحس أصحاب النبى مقدمه أنكروه وأشفقوا منه، إلا رجلاً واحداً هو حمزة بن عبد المطلب لم يكن أقل منه شدة وبأساً فقد انتظره ثابتاً له، وتلقاه بمثل ما كان قد أقبل به فيما ظن المسلمون من الشدة والبأس. ولكن النبى يلقاه لقاء شديداً رفيقاً، فما هى إلا أن يسلم عمر ويكبر المسلمون ويعلموا أن الله قد أعز دينه بأحب الرجلين إليه عمر

بن الخطاب وعمرو بن هشام أبى جهل، كما كان النبى يسأله فى كل يوم

ومنذ ذلك اليوم استطاع المسلمون أن يجهروا بصلاتهم وكانوا يخفونها، وإن يتخذوا ناديهم فى المسجد وكانوا لا يظهرون فيه إلا فرادى

هذه الشدة البالغة والرقة الرائعة تصوران عمر طول حياته. تصور أنه صاحباً للنبى ومشيراً لأبى بكر وإماماً المسلمين. تصور أنه حين أراد النبى أن يمضى صلح الحديبية فأنكر هذا الصلح وقال للنبى كيف نرضى الدنية فى ديننا. وتصور أنه حين رأى الجد من الله ورسوله فى هذا الصلح فأذعن له راضيا مؤمنا أصدق الرضى وأخلص الإيمان. تصور أنه حين أعلن أن رسول الله قد مات فأنكر ذلك أشد الإنكار وأنذر المعلنين له بالسيف. فلما سمع قول الله عز وجل: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ {آل عمران/١٤٤}. أذعن لقضاء الله راضياً به مؤمناً له أصدق الرضى وأخلص الإيمان. تصور أنه حين جد فى حزم أمر المسلمين وأخذ البيعة لأبى بكر باسطاً يده للبيعة قبل أن تتم الشورى، حتى إذا استقرت الأمور واطمأنت القلوب واجتمعت الكلمة عرف من نفسه هذه الشدة وقال فى بيعة أبى بكر كانت فتنة وقى الله المسلمين شرها. تصور أنه فى كل ما تقرأ من مواقفه حينما كان يجد الجد ويحتاج الأمر إلى الحزم والعزم، ثم بعد أن تستقر الأمور وتهدأ العاصفة. وقد اختصر التاريخ هذه الصورة الرائعة فيما تحدث به من أن عمر كان أشد الناس غضباً إذا غضب، وكان إذا ثار لم يثبت له أحد ولم يثبت له شئ، فإذا ذكر الله أو تلى القرآن رق حتى أصبح الرقة نفسها

واختصر التاريخ هذه الصورة الرائعة أيضا حين روى ما كان من أمره لما اجتمع الناس إليه فى الموسم فسأل عن سيرة العمال فى الأمصار، فقام إليه أحد المسلمين وزعم له أن عامله قد ضربه، فأبى عمر إلا ان يقتص هذا الرجل من الوالى بمحضر من المسلمين. وجعل الولاة يصورون له أثر ذلك فى إضعاف السلطان واطماع الرعية فى الولاة فلا يحفل بشئ من ذلك، لأن رسول الله قد اقتص من نفسه حى اضطر العمال إلى أن يرضوا هذا الرجل ويشتروا منه حقه بالدنانير، ولولا ذلك لرأت جماعة المسلمين رجلاً من الرعية يعمل سوطه فى جسم وال من ولاة الأمصار

كان عمر شديداً حتى خشى الله فى الشدة، وكان ليناً حتى خشى الله فى اللين. وكان يصطنع فى الناس شدته ولينه جميعاً، فأما مع نفسه وأهله فلم يصطنع قط إلا الشدة ولم يعرف اللين قط إلى قلبه سبيلاً. وكان عمر حريصاً على مال المسلمين أشد الحرص، يحاسب العمال والولاة حساباً أيسر ما يقال فيه أنه كان عسيراً. لا يختار والياً لعمل من الأعمال حتى

يحصى ماله قبل الولاية، ثم يتتبعه بعد ذلك ليرى كيف زاد ماله وما مصدر هذه الزيادة وما الصلة بينها وبين ما كان له من عطاء. ثم لا يتحرج أن يقاسم الوالى ماله بعد عزله، فيترك له النصف ويرد النصف إلى المسلمين. وكان كريماً فى مال المسلمين إلى أقصى حدود الكرم، لا تكاد تجتمع إليه الأموال التى كانت تأتيه من الأمصار والأقاليم حتى يشيعها فى المسلمين على طريقة رائعة حقا، لا يترك رجلا ولا امرأة ولا صبيا ولا صبية فى أسرة تليه أو تبعد عنه إلا قسم له من هذا المال حظه وأدى إليه حقه وأدى إليه الفضل بعد الحق. ثم كان لا يأمن على ذلك أحداً وإنما يليه بنفسه، ويتتبع أمور الناس لا ليعرفها ولكن ليعرف أيشكو الناس منه شيئا، أينكر الناس منه شيئا، فقد كان لا يأمن نفسه على تحقيق العدل كما كان لا يأمن الناس على تحقيق هذا العدل

وقد أجدب المسلمون فى بلاد العرب سنة، فاقرأ أخبار عمر فى هذه السنة فستقرأ أروع ما حفظ الأدب والتاريخ فى أى أمة من الأمم وفى أى جيل من الأجيال وفى أى عصر من العصور، من تصوير الرفق بالرعية والنصح لها والإشفاق عليها والشدة على الأقوياء والرحمة للضعفاء. أخذ عماله فى الأقاليم بأن يرسلوا إليه الطعام والكسوة للناس، ووجه رسله فى أطراف الجزيرة وانحائها يقسمون الطعام وينحرون الجزر ويكسون الناس، وقام هو على ذلك فى المدينة وما حولها. وأبى أن يطعم فى بيته إذا اجتمع المسلمون للطعام العام. قل السمن وقل اللحم، فحرم على نفسه السمن واللحم وفرض على نفسه الخبز والزيت حتى يخصب المسلمون. وكانت حرارة الزيت تؤذيه فتقدم إلى مولاه أن يطبخه له ليكسر من حرارته، فلم يغن ذلك شيئاً وجعل بطنه يقرقر. فيقول له: "قرقر ما شئت فلن تطعم إلا الزيت حتى يخصب المسلمون"

وكان عمر أجرأ الناس على الناس، حتى خافه الأقوياء واشفقوا من لقائه ووسط إليه كبار الصحابة من يسأله الرقة للناس، لأنهم يهابونه ويشفقون أن يعرضوا عليه حاجاتهم. ثم كان فى الوقت نفسه أشد الناس خوفا من الضعفاء والعاجزين والمحرومين. يستطيع أهون الناس شأناً وأيسر هم أمراً أن يجترئ عليه ويلقاه بما يكره من الحديث. فيسمع ثم يعتذر ثم يستعبر ثم يستغفر

وأروع ما تلقاه فى شخصية عمر من الخصال هذه الفكرة التى كونها لنفسه عن الخلافة منذ ولى الخلافة إلى أن مات. وقد صورها هو تصويراً رائعاً بإيجازه ودقته وصراحته العنيفة حين خطب الناس لأول مرة بعد البيعة فقال: "أيها الناس إنكم قد ابتليتم بى وابتليت بكم"

فالخلافة عند عمر امتحان للخليفة وللرعية معاً. كلاهما ممتحن بصاحبه وكلاهما خليق أن

يحتمل المحنة ثابتاً لها صابراً عليها، وأن يخلص منها وينفذ من مشكلاتها صحيحاً بريئاً، لم يكلم فى نفسه ولا فى خلقه ولا فى دينه ولا فى شئ من هذه الملكات الكثيرة المعقدة التى تكون ضمير الرجل الكريم. وإذا كان الخليفة ممتحناً دائماً مبتلى برعيته فمن الحق عليه لنفسه وللناس، ومن الحق عليه لله الذى يلى أمره وأمر الناس، أن يحاسب نفسه دائماً عن عظيم الأمر وهينه، وإلا يأتى أمراً صغيراً أو كبيراً إلا وهو عالم بما يأتى وبما يحمله على أن يأتى هذا الأمر أو ذاك، إلا وهو مقدر أنه سيسأل عما أتى ومهيئ الجواب على هذا السؤال حين يلقى إليه. سيسأل عما أتى فى اليوم الآخر حين يسأله الله عن الجليل والضئيل من أعماله، وقد يسأل عما أتى فى كل لحظة ومن كل إنسان، فإنه حين نهض بالأمر قد عرض نفسه لهذا السؤال، لأنه احتمل أمانة يشترك فى حسابه عنها الناس جميعاً، وينفرد بحسابه عنها آخر الأمر ربه الذى جعل إليه أمور الناس على أن يؤدى إليه حساب ما فعل وما ترك

وما أعرف أن خليفة من خلفاء المسلمين أو ملكاً من ملوكهم، منح ما منحه عمر من هذا الضمير الحساس إلى أقصى ما يستطيع الضمير أن يحس. ظهر ذلك من أمره للناس جميعاً ظهوراً قوياً مقنعاً حتى شبهوه بالميزان الدقيق الذى لا يمكن أن ينحرف أو يجور. وما أعرف خليفة من خلفاء المسلمين أو ملكاً من ملوكهم، تمثل حساب الله له فى جميع لحظاته يقظان ونائماً عاملاً ومستريحاً، مقبلاً على عظائم الأمور أو على الهين منها كما فعل عمر

يدخل على بنته حفصة أم المؤمنين فتقدم إليه خبزاً ومرقاً قد جعلت فيه الزيت فينصرف عنه ويقول: "ادمان فى إناء واحد لا والله لا أذوقهما". ويدخل على رجل من المسلمين فيستسقيه، فيقدم إليه الرجل شراباً، فيسأل ما هو فإذا عرف أنه عسل انصرف عنه وقال: لا والله ليحاسبنى الله عليه. ويدفع إلى أحد الفرس قميصاً له ويتعجله فى ذلك فيقدم إليه الفارسى قميصين قد صنعهما فيسأله أليس فيهما من مال الذمة شئ فيجيب الفارسى: لا إلا الخيط، فينهره عمر ويقول: اغرب واردد إلى قميصى، ويرد عليه الفارسى قميصه لم يجف بعد. فهو يرى الله إذا أصبح ويراه إذا أمسى، ويتمثل نفسه قائماً بين يديه يؤدى إليه الحساب عما فعل وما قال

وله فى ذلك أعاجيب كلها رائعة وكثير منها يدفع إلى البكاء دفعا. فجهز عيراً إلى الشام فقد كان يتجر ليعيش، واحتاج إلى ثلاثة آلاف درهم فأرسل إلى عبد الرحمن بن عوف ليقرضه هذا المقدار، فقال عبد الرحمن للرسول: ليقترضها من بيت المال، فلما لقى عمر عبد الرحمن بعد ذلك سأله: أأنت قلت هذا؟ قال: نعم. قال عمر: فإنى إن اقترضت هذه الدراهم من بيت المال ثم أدركنى الموت قال المسلمون ضعوها عن أمير المؤمنين واتركوها لأهل أمير المؤمنين، وسألنى الله عنها يوم القيامة، ولكنى إن اقترضتها من شجيع مثلك ثم أدركنى الموت لم يضعها عنى ولم يتركها لأهلى حتى تؤدى إليه. ولما طعن وأفاق من غشيته الأولى

كان أول شئ عناه وأهمه أن يعرف أكان طاعنه رجلاً من المسلمين، فلما عرف أن طاعنه كان غلام المغيرة بن شعبة رضى واطمأنت نفسه لأنه علم أن قاتله لا يستطيع أن يحاسبه أمام الله عن سيئة قدمها إليه أو شر جناه عليه.

ومن هنا لم يكن عمر شديداً على الناس بما كان يلقاهم به من الحزم فحسب، وإنما كان شديداً عليهم بما كان يتشدد على نفسه. وكان كثير من المسلمين يرون من أمامهم هذا العيش الخشن الغليظ، فيستحون أن يلينوا لأنفسهم من العيش أو يظهروا ذلك، وربما وسطوا إليه ابنته حفصة أم المؤمنين لتسأله أن يرفق بنفسه وأن يبيح لها شيئاً ولو قليلاً من طيبات الحياة، فأجابها لقد نصحت لقومك وغششت أباك. وكذلك كان ضميره مرهف الحس شديد المراقبة يسأله عن كل شئ قبل أن يسأله الناس وقبل أن يسأله الله، وكذلك أدى امتحانه مدة خلافته. ولكن الشئ الذى ليس فيه شك هو أن رعيته لم تؤد الامتحان كما أداه، ولم تثبت للمحنة كما ثبت. ومراقبة الضمير لا تتاح للناس جميعاً وإنما تتاح لأخيارهم والممتازين منهم وهى على النحو الذى عرفه عمر لا تكاد تتاح إلا للرجل الفذ بين حين وحين أو قل بين القرون الطويلة والقرون الطويلة

ولما امتحن المسلمون من أهل جزيرة العرب بالجدب واشتدت عليهم السنة ظهرت مراقبة الضمير فى حياة عمر وفى أقواله وأفعاله جميعاً، فكان يقول للناس. إن الله قد ابتلاكم بى وابتلانى بكم فما أدرى أهى خطيئة منى أم خطيئة منكم أم هى خطيئة عمتنا فعمنا من أجلها العذاب

وقد صلى الناس صلاة الاستسقاء فكانت صلاته استغفاراً كلها حتى ظن الناس أنه لن يسأل الله شيئاً إلا المغفرة ولكنه فى آخر الصلاة سأل الله أن يسقى الناس

وعمر أول الخلفاء تشدداً فى تعرف أحوال الناس كما قدمنا ليتعرف ما يمكن أن يكون قد قدم إليهم من شر أو جنى عليهم من مكروه. كان إذا أقبل الليل صلى فأطال الصلاة ثم خرج مستخفياً يتحسس أخبار الناس ويستمع أحاديثهم، وقد نفعه ذلك فأصلح من أمور الناس شيئاً كثيراً. كان قد فرض العطاء للرجال والنساء والفتيان والفتيات وللصبيان بعد أن يفطموا، فلما كان فى بعض لياليه سمع صبياً يبكى بكاءاً شديداً، فسأل أمه عن مصدر هذا البكاء فأجابته وهى لا تعرفه جواباً لم يقنعه. وعاد الصبى إلى البكاء فعاد عمر إلى السؤال وتكرر ذلك من الصبى ومن عمر حتى ضاقت المرأة بهذا السائل المُلح فقالت له: "لقد أثقلت على منذ الليلة، أما تعلم أن ابن الخطاب لا يعطى الصبية إلا بعد الفطام. فأنا أتعجل بفطام هذا الصبى لننال من بيت المال" فانصرف عمر عن المرأة محزوناً كئيباً وهو يقول: "ويل عمر! كم قتل من أبناء المسلمين" ثم أمر المنادين فنادوا فى الناس أتموا رضاع ابنائكم فإن لهم عطاءهم منذ يولدون

ولم يعرف عمر نظم الحكم الديمقراطى كما ألفه اليونان والرومان فى بعض عهودهم.

ولكن ضميره الحساس وغريزته المستقيمة وقلبه الذكى وحرصه على العدل وخوفه من الجور – كل ذلك دعاه إلى شئ ليس بعيداً عن النظام الديمقراطى. ولعل عمر لو عاش لأحدث للمسلمين نظاماً ديمقراطياً عربياً. كان يستشير من حوله من أصحاب النبى وسادة الناس فى كل ما يعرض له من المشكلات، ولكنه كان شديد الحرص على أن يحج بالناس فى كل عام ويشهد الموسم الذى يجتمع فيه أهل الأمصار، ويأمر العمال أن يوافوه على رأس من يليهم، فإذا كان الموسم وحضرت هذه الوفود سمع من العمال فى الرعية وسمع من الرعية فى العمال وأقر العدل والنصفه بين أولئك وهؤلاء. فكان موسم الحج عند عمر موسماً سياسياً يستعرض فيه أمور الأقاليم بمشهد من الحاكمين والمحكومين. ومن يدرى لو أن الله مد له الحياة إلام كان يصير أمر هذا الاجتماع السياسى المنظم

وخصلة أخرى من خصال عمر هى بغضه للتكلف وازدراؤه للمتكلفين. يتأخر شيئاً عن الصلاة فإذا خرج جلس على المنبر واعتذر إلى الناس قائلاً: لقد أخرنى قميصى، غسل له قميصه فانتظر إن يجف ثم خرج للناس بعد أن تم له ما أراد. وقرئ أمامه قول الله عز وجل "وفاكهة وأبا" فقال قائل: وما الأب؟ قال عمر: هذه هو التكلف وما يضرك ألا تعرف الأب؟

ولو أنى ذهبت أعد خصال عمر الرائعة وخلاله الممتازة لخشيت أن استغرق هذا الكتاب دون أن أرضى من ذلك حاجتى وحاجة القراء. ولكنك توافقنى فيما أظن على أن ما عرضت عليك من صورته كاف كل الكفاية لإثبات ما زعمته فى أول هذا الفصل من أن أيسر الأشياء أن يصنع لعمر تمثال دقيق رائع دون أن يحتاج المثال إلى أن يستعين الخيال

وقد حفظ التاريخ الصورة المادية لعمر كما حفظ الصورة المعنوية. فقد كان عمر طويلاً يفوق الناس كلهم طولاً، وكان ضخماً بديناً، وكان إذا مشى أسرع فى مشيته، وكان أبيض اللون إلا فى عام الجدب فقد اقتصر على أكل الزيت حتى أفسد عليه معدته فاسود شيئاً، وأكبر الظن أن الذين وصفوه بالسواد لم يروه إلا فى ذلك العام

وخصلة أخرى أختم بها هذا الفصل من الكتاب لأن عمر قد ختم بها حياته وهى الرقة والأدب والحياء والإكبار لحرمات البيوت. كان عمر شديد الحرص على أن يدفن مع صاحبيه إذا مات، فلما طعن وأحس الموت دعا ابنه عبد الله وقال له: "اذهب إلى عائشة أم المؤمنين وقل لها أن عمر بن الخطاب يقرأ عليك السلام –ولا تقل أمير فإنى لست للمؤمنين أميراً- ويستأذنك فى أن يدفن مع صاحبيه" فذهب عبد الله فقال ذلك لعائشة وعاد إلى أبيه بإذنها فقال لابنه: "إذا مت احملونى على سرير فإذا وصلتم إلى بيت عائشة فلا تدخلوا حتى تستأذنوا" وقد حمل سرير عمر حتى إذا بلغوا بيت عائشة قالوا: إن عمر بن الخطاب يستأذن عائشة أم المؤمنين، ولم يدخلوا السرير حتى أذنت عائشة، وهنالك دفن عمر بن الخطاب مع صاحبيه محمد رسول الله وأبى بكر أول خلفاء المسلمين

علم عمر وثقافته

بلغ علم عمر، بشئون الدنيا والدين، درجة جعلته يشغل مرتبة لم يبلغها أحد بعده من الخلفاء. وقد ساعده على ذلك ظروف عديدة، ترجع إلى استعداده الفطرى، وإلى نشأته الأولى قبل الإسلام، وإلى سنه المناسب، سواء يوم أسلم، أو يوم آلت إليه الخلافة. ثم فوق ذلك كله حكمه الطويل المستقر، الذى لم ينازعه فيه أحد سلطة الدولة، مما مكن له أن يجتهد فى جميع ضروب الحياة، وأن يخرج بعلمه من الدائرة النظرية المجردة إلى مجال التطبيق الحى. ونحن نعلم اليوم أن ثمة شعاراً يرتفع فى أمكنة كثيرة من العالم، هو شعار "العلم للحياة". ولا نجد علماً أفاد الناس، كما أفادهم علم عمر سواء فى حياته أو بعد مماته. وفى هذا المعنى تروى أحاديث صحيحة عن رسول الله من أشهرها:

(أ)عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: بينما أنا نائم إذ رأيت قدحاً أتيت به فيه لبن، فشربت منه، حتى إنى لأرى الرى يخرج فى أظافرى، ثم أعطيت فضلى لعمر بن الخطاب. قالوا فما أولت ذلك يا رسول الله؟ قال العلم.

(ب)عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال: بينما أن نائم رأيت الناس يعرضون علىّ، وعليهم قمص، منها ممايبلغ الثدى، ومنها مادون ذلك، وعرض علىّ عمر بن الخطاب وعليه قميص يجره، قالوا فما أولت ذلك يا رسول الله؟! قال الدين.

(جـ)عن أبى أمامة الباهلى أن رسول الله ﷺ قال دخلت الجنة.. ثم خرجنا من أحد أبواب الجنة الثمانية، فلما كنت عند الباب أتيت بكفة، فوضعت فيها، ووضعت أمتى فى كفة أخرى، فرجحت بها. ثم أتى بأبى بكر، فوضع فى كفة وجئ بجميع أمتى فى كفة، فرجح أبو بكر. وجئ بعمر فوضع فى كفة وجئ بجيمع أمتى فوضعوا فرجح عمر.

(د)عن عبد الله بن عمر عن النبىﷺ أنه قال: "أريت فى المنام أنى أنزع بدلو بكرة على قليب (بئر) فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً (دلواً مملوءة) أو ذنوبين نزعاً ضعيفاً، والله يغفر له. ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً. فلم أر عبقرياً يفرى فريه حتى روى الناس وضربوا بعطن". قال الإمام الشافعى ومعنى قوله "وفى نزعه ضعف" (يعنى أبا بكر) قصر مدته، وعجلة موته، وشغله بالحرب لأهل الردة عن الافتتاح والزيادة الذى بلغه عمر فى طول مدته

من أين جاءت ثقافة عمر؟!

لقد بدأ علمه وثقافته قبل الإسلام: والقراءة والكتابة -كما نعلم- هى مفتاح العلم والثقافة. وتروى كتب السيرة أن عمر فى طفولته وصباه، قد امتاز على أقرانه بأنه كان ممن تعلموا القراءة والكتابة، وكانوا قليلين جداً، فلم يكن فى قريش كلها حين بعث النبى غير سبعة عشر رجلاً يقرأون ويكتبون.![1] وقد يكون فى هذا الرقم بعض المبالغة، لأن كتاب الوحى زادوا

فى بعض الروايات على الأربعين. ولكنه يوضح فى الوقت ذاته أن عمر كان من القلة الضئيلة فى قريش، والتى ملكت مفتاح العلم والثقافة.

ولما شب عمر، تذوق الشعر، بل وقرضه فى بعض الروايات، فقد روى صاحب العقد الفريد أن عمر قال يوماً للنابغة الجعدى: أسمعنى بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك، فأسمعه كلمة له. قال "وإنك لقائلها؟" قال نعم! لطالما غنيت بها خلف جمال الخطاب!".

وكان عمر بن الخطاب يسمع الشعراء فى سوق عكاظ وفى غير عكاظ، ويحفظ عنهم، ويروى ما يروقه من شعرهم، وكان له من بعد أحاديث طويلة مع الحُطيئة، وحسان بن ثابت، والزبرقان وغيرهم.

ثم إنه برز فى أنساب العرب، إذ تعلمها عن أبيه، فصار من أنسب العرب للعرب.

وكان جيد البيان، حسن الكلام. ولهذا كله كان يذهب فى سفارات قريش إلى غيرها من القبائل، وكانت حكومته ترضى فى المنافرة كحكومة أبيه من قبله.

وكمعظم شباب قريش، عمل عمر صدر شبابه بالتجارة، "ولعل غلظته هى التى حالت بينه وبين الإفادة من التجارة ما أفاد غيره، فهو لهذه الغلظة لم يكن يستطيع بالتجارة أن ينبع الماء من الحجارة، ولا أن يحيل التراب ذهباً على تعبير قومه من قريش، هذا مع أنه لم يكن يقف من تجارته عند رحلتى الشتاء والصيف إلى اليمن وإلى الشام، بل كان يذهب إليهما وإلى غيرهما من بلاد فارس والروم. لكنه كان فى رحلاته هذه أكثر اشتعالاً بتثقيف ذهنه، منه بإنماء تجارته. وقد أشار المسعودى فى مروج الذهب إلى رحلات عمر فى جاهليته، وأنه لقى فى أثنائها كثيراً من أمراء العرب وتحدث إليهم. وأغلب الظن أن ما كان يقوم به من السفارة عن قريش، وما بلغه من المعرفة بالأنساب وأيام العرب، وما اطلع عليه أثناء قراءاته فى كتب عصره، قد جعله أكثر حرصاً على الكسب لزيادة علمه منه على الكسب لنماء ماله(٢).

فلما أسلم عمر لزم رسول الله، سواء فى مكة أو المدينة، وعمل له، فتفقه فى شئون الدين حتى وصل إلى الدرجة التى سجلها الرسول عليه الصلاة والسلام فى أحاديثه التى أوردنا بعضها فيما سبق. كما أنه تمرس فى شئون الحكم، فجمع -كما قلنا- بين العلم النظرى، والتطبيق العملى. وهكذا يمكن أن نوجز بعض جوانب علم عمر وثقافته فيما يلى:

(١) الفاروق عمر، لهيكل

(٢) الفاروق عمر لهيكل، المرجع السابق

أولاً- الشريعة الإسلامية: ولقد بدأنا بها، لأنها قانون الدولة، الذى آل إلى عمر أن يطبقها، وأن يستنبط قواعدها، فأصبح فارسها المجلى. وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام هو الذى أرسى أسسها نقلاً عن ربه. فإن عمر بن الخطاب هو الذى بيّن أسلوب تطبيقها، واستمداد الأحكام الجديدة منها لمواجهة ظروف المجتمع المتغيرة. وهنا تكمن عظمة عمر فى هذه الناحية: فعبد الله بن مسعود يقول مثلاً "كان عمر أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا فى دين الله". وكان إذا اختلف أحد فى قراءة الأيات قال له اقرأها كما قرأها عمر، وأطنب فقال: "لو أن علم عمر بن الخطاب وضع فى كفة ميزان، ووضع علم الأرض فى كفة لرجح علم عمر بعلمهم، ولقد كانوا يرون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم". وقال ابن سيرين "إذا رأيت الرجل يزعم أنه أعلم من عمر، فشك فى دينه".

وكل ما فسر به عمر آى القرآن فى معرض الحكم والعظة، فهو التفسير الراجح فى وزن العقل والدين؛ وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة، فهو الحكم الواضح الصحيح.

وكان عمر ينصح رعاياه بالانكباب على العلم فى كثير من المأثور عنه. ومن ذلك قوله لهم: "تعلموا العلم، وتعلموا مع العلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه، وتواضعوا لمن تعلمون، ولا تكونوا جبابرة أوعية الكتاب، وينابيع العلم، وأن يسألوا الله رزق يوم بيوم، وألا يضيرهم ألا يكثر لهم". وأن "يتفقهوا قبل أن يسودوا".

ثانياً- اللغة العربية وآدابها: ولما كانت الشريعة الإسلامية تقوم على أساس الإحاطة بالقرآن الكريم، فإن مفتاحها يكمن فى اللغة العربية. ولهذا فإن عمر بن الخطاب يجئ على القمة بين من أحاطوا بأسرار اللغة العربية، وقد ساعده ذلك فى إعداد خطبه الكثيرة فى المناسبات الجمة التى تعرض لها بعد أن آل إليه أمر المسلمين. ولم يحفظ التاريخ لأحد من الحكام العرب، ما حفظ لعمر بن الخطاب من خطب خالدة فى شئون الحكم والإدارة، صيغت أبدع صياغة[1]. ومن ثم كانت وصايا عمر للعرب فى خصوص اللغة العربية متعددة من أشهرها:

- تعلموا العربية، فإنها تثبت العقل، وتزيد فى المروءة.

- تعلموا النحو كما تتعلمون السنن والفرائض.

- تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه.

- شر الكتابة المشق، وشر القراءة الهذرمة، وأجود الخط أبينه.

---

(١) راجع مجموعة طبية، جمعهاالطنطاويان فى مؤلفهما، تحت عنوان "عمر الأديب" ص ٢٦٣، ونماذج من خطبه ص ٢٦٩، ومن كتبه ص ٢٨٤ ومعاهداته ص ٢٩٨، ووصاياه جـ ٣٠٢.

- وكان إذا رأى رجلاً يلجلج فى كلامه، قال: خالق هذا، وخالق عمرو بن العاص واحد! بل وروى عنه، أنه أمر بجلد بعض الكُتاب لخطأ فى النحو!

ولما كان الشعر هو أصل كلام العرب، كما روى عن عمر نفسه، فإنه اهتم بروايته فى جاهليته وفى إسلامه. وروى عنه أنه قال بخصوصه: "كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه. فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد، وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته. فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأنصار، راجعوا رواية الشعر، فم ينلوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، فألفوا ذلك، وقد هلك من العرب من هلك بالموت، والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عنهم منه أكثره".

ووجه خطابه إلى العرب كافة فقال: "أرووا من الشعر أعفه، ومن الحديث أحسنه. ومحاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق، وتنهى عن مساويها." كما كتب إلى أبى موسى الأشعرى "مر من قبلك بتعلم الشعر، فإنه يدل على معالى الأخلاق، وصواب الرأى، ومعرفة الأنساب".

ولهذا تروى كتب السير أن عمر ما كان يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر.

ثالثاً: الاهتمام بأنساب العرب وأخبارها: من المشهور عن عمر بن الخطاب أنه كان عليماً بتاريخ العرب وأيامها ومفاخرها، كعلمه بالمتخير من شعرها ونثرها وسائر أمثالها. ولعله فى ذلك كان ينقل عن أبيه الخطاب، فكثيراً ما كان يقول -كما جاء فى البيان والتبيين- سمعت ذلك عن الخطاب ولم أسمع ذلك عنه. ولذلك فإن من أشهر وصاياه لابنه عبد الرحمن: "يا بنى انسب نفسك، تصل رحمك، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه، ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقا، ولم يقترف أدباً." وقال أيضاً فى نصيحته الموجهة إلى المسلمين عامة، بعد أن أوصاهم برواية الشعر العف، والحديث الحسن "أرووا من النسب ما تواصلون عليه، وتعرفون به، فرب رحم مجهولة قد عرفت فوصلت."

رابعاً: الاهتمام بكل أنواع المعرفة التى تفيد الإنسان فى دنياه: يخطئ من يظن أن عمر قد قصر علمه على الدين وما يقوم عليه بالضرورة كاللغة العربية وآدابها. فالحقيقة أن العلم عند عمر، كان يشمل الدنيا والدين معاً، تفريعاً على أن الدين الإسلامى هو عقيدة وشريعة، ينظم صلة الإنسان بربه، وبنفسه وبالناس. ولهذا كانت نصيحته لأهل الشام فى خصوص تربية أبناءهم: "علموا أولادكم الكتابة، والسباحة والرمى، والفروسية، ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً، ورووهم ماسار من المثل، وحسن من الشعر."

وكما يقول الأستاذ عباس محمود العقاد –فى عبقرية عمر "قليل من يتخيل أن عمر كان يعرف "جغرافية" الشرق كأحسن ما يعرفها رجل فى وطنه، ولكنه كان يعرفها حقاً عن سماع، وعن روية، وعن زكانة تعين السماع والرؤية. ويعزل من يرى فيه تقصيراً عن ذلك. فيروى أنه استقدم عمار بن ياسر أمير الكوفة لما شكوه إليه، وقالوا إنه لا يدرى علام استعمل. وجعل عمر يسأله عن المواقع والبلدان من بلاد العرب والفرس حول الكوفة، سؤال مطلع خبير، ثم عزله لتقصيره".

خامساً: طرب عمر للغناء، بل وتغنيه أحياناً: لم يكن عمر جهورى الصوت فحسب، بل كان حسنه أيضاً. ومما له دلالته فى هذا الصدد، أن عمر، رغم شدته وهيبته، كان يغنى، وكان يطلب سماع الغناء، إلا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات. ومن الأخبار المتواترة فى هذا الصدد:

(أ) كان عمر مرة فى سفر، فرفع عقيرته بالغناء وأنشد:

وما حملت من ناقة فوق رحلها   أبر وأوفى ذمة من محمد

فاجتمع الركب إليه، فقرأ قرآناً فتفرقوا. فعل ذلك وفعلوه مرات. فصاح بهم: "يا بنى المتكاء! إذا أخذت فى مزامير الشيطان اجتمعتم، وإذا أخذت فى كتاب الله تفرقتم..؟!"

(ب) جئ له برجل يغنى فى الحج. وقيل له: إن هذا يغنى وهو محرم فقال دعوه، فإن الغناء زاد الراكب. وكان عمر نفسه يخرج للحج ومعه من يحسن الغناء، فيقترح عليه أن يغنى شعراً، ويؤثر أن يكون ذلك من شعره. خرج مرة للحج ومعه خوات بن جبير، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار، فقال عمر، بل دعوا أبا عبد الله فليغن من بنيات فؤاده. فما زال يغنيهم حتى كان السحر، فهتف به عمر: ارفع لسانك يا خوات فقد أسحرنا.

(جـ) وروى نائل مولى عثمان بن عفان أنه خرج فى ركب مع عمر وعثمان وابن عباس. وكان مع نائل رهط من الشبان فيهم رباح بن المعترف الفهرى الذى كان يحدو ويجيد الحداء والغناء، فسألوه ذات ليلة أن يحدو لهم فأبى مستنكراً، وقال: مع عمر! قالوا أحدهم، فإن نهاك فانته. فحدا، حتى إذا كان السحر، قال له عمر، كف فإن هذه ساعة ذكر. ثم كانت الليلة الثانية، فسألوه أن ينصب لهم نصب العرب. فنصب لهم نصب العرب، حتى إذا كان السحر، قال له عمر كف، فإن هذه ساعة ذكر. ثم كانت الليلة الثالثة فسألوه أن يغنيهم غناء القيان، فما هو إلا أن رفع عقيرته بغنائهن، حتى نهاه عمر، وقال له كف، فإن هذا ينفر القلوب.

ويعلق الأستاذ عباس محمود العقاد على هذه الخاصية فى عمر، فى مؤلفه الذى سبقت

الإشارة إليه بقوله: "ولا شك أن الشغف بالشعر الجذل، والحديث الرائق، والصوت الحسن، لا يجتمع فى نفس إلا اجتمع معه ذوق للجمال وسرور بكل حسن جميل."

وقد انتهت رقة عمر، وصفاء نفسه، إلى أنه كان يستعذب الفكاهة ويطرب "للنكتة" أو "القفشة" بلغة العصر رغم شدته وقسوته التى أشرنا إليها فيما سلف. ومما يروى فى هذا الصدد:

(أ) فرغ رسول الله ﷺ يوماً من بيعة الرجال. وجلس لمبايعة النساء، فاجتمع إليه نساء من نساء قريش فيهن هند بنت عتبة، متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة يوم أحد، فهى تخاف أن يأخذها رسول الله بحدثها. فلما دنون من الرسول لمبايعته قال: تبايعننى على ألا تشركن بالله شيئاً. فقالت هند والله إنك لتأخذ علناه أمراً ما تأخذه على الرجال وسنعطيكه. قال ولا تسرقن. قالت والله أن كنت لأصيب من مال أبو سفيان الهنة والهنة (الشئ القليل) وما أدرى أكان ذلك حلال أم لا. قال أبو سفيان (وكان شاهداً لما تقول) أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل. فقال رسول الله: وإنك لهند بنت عتبة؟! فقالت أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف، عفا الله عنك. قال ولا تزنين. قالت يا رسول الله هل تزنى الحرة؟ قال ولا تقتلن أولادكن. قالت: قد ربيناهم صغاراً، وقتلهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم. فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب، وكان قليل الإغراب فى الضحك.

(ب) روى أن أبا سفيان قال للنبى ﷺ حين عرض عليه الإسلام. كيف أصنع بالعزى؟ فسمع عمر رضى الله عنه من وراء القبة، فقال له: تخرأ عليها!!

(جـ) نظر عمر إلى أعرابى يصلى خفيفة، فلما قضاها قال: اللهم زوجنى بالحور العين. فقال عمر: أسأت النقد وأعظمت الخطبة!

(د) فرض عمر لعمرو بن معدى كرب فى الفئ ألفين. فقال له يا أمير المؤمنين: ألف ها هنا (وأومأ إلى شق بطنه الأيمن) وألف ها هنا (وأومأ إلى شق بطنه الأيسر). فما يكون ها هنا (وأومأ إلى وسط بطنه) فضحك عمر من كلامه وزاده خمسمائة.

(هـ) دخل عمر على خادمه أسلم وابنه عاصم وهما يغنيان غناء يشبه الحداء فوقف يستمع ويستعيد. وشجعهما إصغاؤه واستعادته فسألاه: أينا أحسن صنعه. قال: مثلكما كمثل حمارى العبادى، سئل أيهما شر، فقال: هذا ثم هذا!

(و) ومن فكاهته القوية تلك المزحة المرعبة التى أطار بها لب الحُطيئة ليكف عن هجاء الناس: فدعا بكرسى، وجلس عليه، ودعا بالحُطيئة وأجلسه بين يديه، ودعا بمثقب وشفرة يوهمه أنه يسقطع لسانه، فضج الحُطيئة، وتشفع الحاضرون فيه، ولم يطلقه إلا بعد أن أخذ

عليه عهداً لا يهجون أحداً، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم. فما هجا أحداً بعدها وعمر بقيد الحياة!

***

تلكم هى الخطوط الأساسية لصفات عمر، سواء الجسدية أو الخلقية، ليس لنا أن نعقب عليها بأفضل مما قال الأستاذ عباس محمود العقاد حين عرضها جملة فى مؤلفه الذى سبقت الإشارة إليه إذ يقول: "تشهد العيون كما تشهد القلوب أنه لمن معدن العظمة أو معدن العبقرية والامتياز بين بنى الإنسان وللمحدثين علامات فى العبقرية تتصل بالتكوين وتركيب الخلقة، كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال: فالعالم الإيطالى لومبروزو ومدرسته التى تأتم برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة، أن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من الصور فى أحد من أهلها... وهى علامات تتفق وتتناقض، ولكنها فى جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة. فيكون العبقرى طويلاً بائن الطول أو قصيراً بيّن القصر، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا يديه، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود فى سائر الناس. ويكثر بين العبقريين من كل طراز جيشان الشعور، وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارئ، فيكون فيهم من تفرط سورته، كما يكون فيهم من يفرط هدوءه، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يلحظ تارة فى الزكانة والفراسة، وتارة فى النظر على البعد، وتارة فى الحماسة الدينية أو الخشوع لله. ومهما يكن من الشك فى استقصاء هذه العلامات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع، فهى بلا ريب صادقة فى حالات، مقاربة فى حالات، غير أهل فى كل حال للتصديق التام ولا للنبذ التام، ولا سيما عندما تتفق فيها الظواهر والبواطن، وتتلاقى فيها ملاحظات العلماء، وشواهد العرب المأثور. وفى عمر بن الخطاب من هذه العلامات كثير... فهو رجل نادر بما تراه منه العين، نادر بما تشهد به الأعمال والأخلاق، نادر فى مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين، أو هو رجل ممتاز وعبقرى موهوب فى جميع الآراء".

بلاغة الفاروق

إن بين القلب واللسان أواصر روحية وعقلية لا ينكرها إلا من يجهل أن اللسان ترجمان القلب وأن القلم رسول العقل، فبلاغة الفاروق هى الصورة الصادقة لما انطوت عليه جوانحه من أصول الصدق والشرف والنبل، فإن قال واصفوه أنه كان من أصدق الخلفاء وأشرف الحاكمين، فأعلم أنه كان كذلك من أصدق الخطباء وأشرف الكاتبين

وكان من حظ عمر فى بلاغته أنه نشأ فى عصر عرف أهله بالتشوف إلى شرف القول، فقد نشأ فى عصر تفرد بين العصور بإعزاز البيان، ألم تكن فصاحة القرآن هى المعجزة، بعد أن كانت المعجزات ألوناً من الخوارق تبهر الأبصار والحواس؟

ولئن كانت فصاحة القرآن هى المعجزة لقد كانت هى السبب الأصيل فى انقياد عمر إلى الإسلام، وانتقال الرجل من دين إلى دين بسبب الفصاحة هو أصدق شاهد على أنه خلق مفطوراً عل تذوق الفصاحة وأسرار البيان

وبلاغة القرآن التى فتنت عمر لم تصادفه وهو بكر القلب، فقد يظهر أنه كان فى جاهليته رجلاً بصيراً بما خلف قومه من كرائم المعانى، وقد يظهر أنه كان مفتوناً بالشعر وخبيراً بأغراض الشعراء، وإلا فكيف اتفق له أن يتعصب لزهير، وكيف صح لابن رشيق أن يحكم بأنه كان من أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذهم فيه معرفة، وكيف كان من سياسته وهو خليفة أن يوصى المسلمين بأن يرووا أبناءهم الأشعار كما يعلمونهم السباحة والرماية؟

وأريد أن أقول: إن بلاغة الفاروق كانت تعتمد على أصل ثابت **هو فهم الأدب**، أو هو بالفعل أديب، فلو فاتته ظروف الخلافة التى فرضت أن يجيد الخطابة والإنشاء لكان من أقطاب النقد الأدبى، فقد كان يملك أهم عنصر من عناصر النقد وهو السخرية، والسخرية فن لا يحسنه غير الفحول. هل سمعتم بقصة بنى العجلان؟

إنهم قوم كانوا يفتخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه فى تعجيل قرى الاضياف، وظلوا كذلك حتى هجاهم به النجاشى الشاعر، فضجروا منه وسبوا به، واستعدوا عمر بن الخطاب على الشاعر فقالوا: هجانا يا أمير المؤمنين. فقال عمر. وما قال؟ فأنشدوه:

إذا الله عادى أهل لؤم ورقة   فعادى بنى العجلان رهط ابن مقبل

فقال عمر: ليت آل الخطاب كذلك! فقالوا: إنه قال:

ولا يردون الماء إلا عشية   إذا صدر الوراد عن كل منهل

فقال عمر: ذلك أقل للسكاك – يعنى الرخام! قالوا فأنه قال:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم   وتأكل من كعب بن عوف وتهشل

فقال عمر: كفى ضياعاً من تأكل الكلاب لحمه! قالوا فإنه قال:

وما سمى العجلان إلا لقولهم   خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم خادمهم! فقالوا: يا أمير المؤمنين هجانا! فقال: ما أسمع ذلك! فقالوا: فاسأل حسان بن ثابت، فسأله فقال: ما هجاهم ولكنه سلح عليهم!

أرأيتم كيف جرى هذا الحديث؟

أرأيت كيف يتغابى عمر بن الخطاب وكيف يتعامى عن أغراض الشعراء؟

إن السخرية فى هذ الحديث بلغت الغاية فى الدقة، واستطاع عمر أن يستجهل بنى العجلان، وبلغ من أمره أن أوهمهم أنه لا يفهم، وتلك أعجوبة الأعاجيب أن يقتنع قوم من العرب بأن عمر لا يفهم دقائق الهجاء

والظريف فى هذه القصة أن يقول أولئك القوم لعمر: فاسأل حسان بن ثابت، والأظرف أن يتمادى عمر فى التغابى فيسأل حسان!

****

قلنا إن عمر كان معروفاً بقوة العارضة ومتانة القول، وقد سار اسمه بين الخطباء والحكماء. واية ذلك أن اثاره الأدبية صارت مجالاً للتزيد يضيف إليها من شاء ما شاء، والناس لا يضيفون الأقوال إلى رجل إلا بعد أن يعرف بالفصاحة والبيان، وقد شاع بين رجال الأدب ان على بن ابى طالب أضيفت إليه خطب وأقوال، فنسجل أن عمر أضيفت إليه خطب وأقوال، ولم يتزيد الناس على على إلا لشهرته بالفصاحة وإجادة القول، وكذلك تزيدوا على عمر لشهرته بالفصاحة وإجادة القول.

***

ندع الكلام عن الشخصية الأدبية لعمر بن الخطاب، وما وضع على لسان عمر بن الخطاب، وننتقل إلى أدبه الصريح فنقول:

أهم ميزة فى بلاغة الفاروق هى أدب القضاء، وقد شاء الله أن يلقب بالفاروق لمعنى من معانى العدل فى القضاء، فهذا الرجل لم تستقم له الأمور مصادفة واتفاقاً، وإنما قام ملكه على

العدل، واستطاع أن يملأ الدنيا بالحقائق والأساطير بفضل العدل، وقد شاع فى المشرقين والمغربين أن أحد الوافدين عليه رآه نائما على قارعة الطريق فقال: "عدلت فأمنت فنمت" ومن الرجح أن هذه العبارة نقلت إلى أكثر من خمسين لغة، ورددتها ملايين الألسنة فى مختلف الأجيال

ولا ينتظر القارئ من الفاروق كتباً فى القضاء تشبه مؤلفات رجال القانون، فلم يكن العصر عصر درس واستقصاء، على نحو ما عرف المسلمون فى أيام الدولة العباسية، ولكن الرسائل القليلة الباقية من أدب ابن الخطاب تشهد بأنه كان من أعرف الرجال بأدب القضاء

هل تعرفون كتابه إلى معاوية بن أبى سفيان؟ أنه يقول بعد التمهيد:

"إلزم خمس خصال يسلم لك دينك، وتأخذ فيه بأفضل حظك: إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة، أو اليمين القاطعة، وأدن الضعيف حتى يشتد قلبه، وينبسط لسانه. وتعهد الغريب فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى أهله، وإنما ضيع حقه من لم يرفق به. وآس بين الناس فى لحظك وطرفك، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يستبن لك فصل القضاء"

والحكمة البالغة في هذا الخطاب ليست في البينة ولا في اليمين، وإنما هى فى الكلام عن الضعيف والغريب، فقد كان عمر يعرف أن ناساً تضيع حقوقهم بسبب الغربة والضعف، وكان يدرك أن القضاة ينخدعون بزخرف القول، وأن الضعيف قد يتلجلج لسانه فيضيع حقه، وأن الغريب قد يتهيب الموقف فلا يبين

وهذه الكلمة العالية: "آس بين الناس فى لحظك وطرفك" أنها تشهد بما كان يعرف عمر من أسرار النفوس

وقد أكد هذا المعنى فى رسالته إلى أبى موسى الأشعرى إذ قال:

"آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك، حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك"

وكذلك كان الأقوياء فى جميع العصور مثاراً للخوف من ازدلاف القضاء، وكانت الضعفاء مثاراً للخوف من انحراف القضاء

وقد دعا الفاروق إلى الصلح فى الظروف التى لا يبين فيها وجه الفصل، ثم أوضح ذلك فى رسالته إلى أبى موسى فقال:

"والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً، أو حرم حلالاً"

وهو بذلك يجعل الصلح مشروطاً بالإنصاف

وقد وضع الفاروق أساس "الاستئناف" ولكنه أسرع فجعل ذلك من واجب القاضى قبل أن يجعله من حق المتقاضين، أليس هو الذى يقول:

"ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع إلى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل"

وهو بهذا يذكر القضاة بأنهم ناس يخطئون ويصيبون، وتعمى عليهم مسالك الحق فى بعض الأحيان

وقد خشى ابن الخطاب أن يكون فى القضاة من يضجر ويتأذى فقال:

"وإياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم به الله الأجر، ويحسن به الذخر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله مابينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانة الله"

***

وهذه الفقرة الأخيرة تذكرنا بعنصر مهم من عناصر البلاغة الفاروقية، وهو الدعوة إلى أدب النفس، وأكثر ما يكون ذلك فى وصايا الحرب، فقد كان هذا الرجل يقيم وزناً كبيراً للقوة المعنوية وكان يفهم أن الجندى لا يشجع إلا حين يثق بأنه أفضل من خصمه من الوجهة الخلقية. وانظروا كيف يقول فى خطابه إلى سعد بن أبى وقاص:

"أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله، ولا تقولوا أن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم شر منهم، كما سلط على بنى إسرائيل -لما عملوا بمساخط الله- كفار المحبوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم"

فهذه الرسالة تبين كيف كان عمر يحرص على أدب النفس، وترينا كيف كان يدرك أن القوة تكون أولاً فى النفس، النفس البريئة من الظلم والجور والعسف. وهل رأيتم أقوى من هذه الكلمة: "إن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم"؟

وعمر لا يرى الإيمان كل شئ،وعنده أن المؤمن المذنب أهل لأن يكون فريسة للكافرين، وهو يحدثنا أن المجوس وهم كفاراً انتصروا على بنى إسرائيل وهم مؤمنون

وبقليل من التأمل ندرك أن عمر يرى أن العمل أصل النجاة، وأن العقيدة المجردة لا تنفع، وإنما النفع فى العمل الصالح، فهو الذى يرفع ويخفض، وبالعمل وحده يكون بعض الناس أفضل من بعض وأقدر على الظفر بالمنافع والخيرات

والبلاغة فى أمثال هذه الرسائل ليست بلاغة سطحية تعتمد على الزخرف والبريق، وإنما هى بلاغة تقوم على أصول من الشرف ومن العدل، فإن سمعتم أنه بلغ بها من أنفس جنوده ا أراد، فتذكروا أن جنوده كانوا يعلمون أنها تصدر عن قلب عامر بأشرف ما تعمر به القلوب

***

أما بعد فقد كان فى النية أن نبين كيف تصور بلاغة الفاروق أحوال عصره، ولكنا خشينا عواقب الإسهاب، فهل يسمح القارئ بذكر شاهد واحد يبين خوفه من ارتفاع المبانى فى مصر؟

لقد سمع عمر أن خارجة بن حذافة بنى غرفة بمصر -والغرفة لا تكون فى الدور الأول- فكتب إلى عمرو بن العاص:

"سلام عليك، أما بعد فإنه بلغنى أن خارجة بن حذافة بنى غرفة أراد بها أن يطلع على عورات جيرانه، فإذا أتاك كتابى هذا فاهدمها، إن شاء الله، والسلام"

والمدنية الحديثة تنكر ما أشار به ابن الخطاب، ولكن مهلاً، فكم كانت نوافذ الغرفات بابا من الشر ومثاراً للفتون!

وليس يضير عمر أن لا تنسجم اراؤه مع المدنية الحديثة، وإنما يشرفه أن يحفظ التاريخ أنه كان يتطلع إلى كل شئ من أخبار رعاياه فيعرف وهو بأرض الحجاز أخبار المنازل فى وادى النيل

وقد كان القارئ ينتظر أن نحدثه عن اسلوب الفاروق، ولكنه لاحظ ولا ريب كيف قضى ابن أبى الحديد بأن اسلوبه كان خالياً من الزخارف التى أولع بها المحدثون

فبلاغة الفاروق هى وحى الفطرة، هى صورة من صراحته الناصعة فى الحكم على الناس وعلى الأشياء، وما كان هذا الرجل معروفاً بإكثار ولا إقلال، وإنما كان كلامه يصاغ وفقاً للظروف، فلم يؤخذ عليه تفريط ولا إفراط.

نبذ من فنون أقواله وأخباره:

من أخباره فى الشفقة ورقة القلب ما أخرجه فى المناقب عن الأحنف بن قيس قال وفدنا على عمر رضى الله عنه بفتح عظيم فقال أين نزلتم: فقلت فى مكان كذا فقام معنا حتى انتهينا إلى مناخ رواحلنا فجعل يتخللها ببصره ويقول: ألا اتقيتم الله فى ركابكم هذه أما علمتم أن لها عليكم حقاً ألا خليتم عنها فأكلت من نبت الأرض: فقلنا يا أمير المؤمنين إنا قدمنا بفتح عظيم فأحببنا التسرع إلى أمير المؤمنين بما يسره.

عن نافع قال دخل شاب قوى المسجد وفى يده مشاقص[1] وهو يقول من يعيننى فى سبيل الله، فدعا به عمر فأتى به فقال من يستأجر منى هذا يعمل فى أرضه فقال رجل من الأنصار: أنا يا أمير المؤمنين: قال بكم تأجره قال كل شهر بكذا وكذا قال خذه فانطلق به: فعمل فى أرض الرجل أشهراً ثم قال عمر للرجل: ما فعل أجيرنا: قال صالح يا أمير المؤمنين. قال ائتنى به وبما اجتمع له من الأجر: فجاء به وبصُرة من دراهم: فقال (عمر للرجل) خذ هذه فإن شئت فالآن اغز وإن شئت فاجلس.

وشفقته على الرجل هى من جهة أنه رآه قوياً وأهلاً للعمل فأعطاه لمن يستأجره كى لا يكون عالة على الناس.

ومن جميل أخباره فى تأديب الناس على ستر العورات وكتمان ما يمس بشرف الصيانة ما جاء فى المناقب عن الشعبى قال أتى عمر بن الخطاب رجل فقال إن ابنة لى كنت وأدتها[2] فى الجاهلية فاستخرجناها قبل أن تموت فأدركت معنا الإسلام فأسلمت، ثم أصابها حد من حدود الله فأخذت الشفرة لتذبح نفسها وأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها فداويناها حتى برئت، ثم أقبلت بعد توبة حسنة، وهى تخطب إلى قوم أفأخبرها بالذى كان: فقال عمر ﷺ أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه، والله لئن أخبرت بشأنها أحداً من الناس لأجعلنك نكالاً لأهل الأمصار نكحها نكاح العفيفة المسلمة.

ومن أخباره فى رفع القصاص عن القاتل دفاعاً عن الشرف والعرض ما أخرجه فى المناقب عن الليث عن عبد الله بن صالح قال أتى عمر بن الخطاب بفتى أمرد وجد قتيلاً ملقى على وجهه فى الطريق، فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر ولم يعرف له قاتل

---

(١) قال فى القاموس المشقص كمنبر نصل عريض أو سهم فيه ذلك، والنصل الطويل أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش.

(٢) الوأد هو دفن البنات وهن أحياء، وكانت عادة الوأد عند العرب فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام أبطلها.

فشق ذلك على عمر، وقال اللهم أظفرني بقاتله حتى إذا كان رأس الحول أو قريباً من ذلك وجد صبي مولود ملقى موضع القتيل، فأتى به عمر فقال ظفرت بدم القتيل إن شاء الله فدفع الصبي إلى امرأة وقال لها قومي بشأنه وخذي منا نفقته وانظري من يأخذه منك، فإذا وجدت امرأة تقبله وتضمه إلى صدرها فأعلميني بمكانها، فلما شب الصبي جاءت جارية فقالت للمرأة إن سيدتي بعثتني إليك تبعثي الصبي لتراه وترده إليك. قالت نعم اذهبي به إليها وأنا معك فذهبت بالصبي والمرأة معها حتى دخلت على سيدتها فلما رأته أخذته فقبلته وضمته إليه، فإذا هي بنت شيخ من الأنصار من أصحاب رسول الله فأخبرت عمر خبر المرأة فاشتمل عمر على سيفه ثم اقبل إلى منزلها فوجد أباها متكئا على باب داره: فقال يا أبا فلان ما فعلت ابنتك فلانه: قال يا أمير المؤمنين جزاها الله خيراً هي من أعرف الناس بحق الله تعالى وحق أبيها مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها.

فقال عمر قد أحببت أن أدخل إليها فأزيدها رغبة في الخير وأحثها على ذلك، فقال جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين امكث مكانك حتى أرجع إليك. فاستأذن لعمر فلما دخل عمر أمر كل من كان عندها فخرج عنها وبقيت هي وعمر في البيت ليس معهما أحد، فكشف عمر عن السيف، وقال لتصدقيني، وكان عمر لا يكذب: فقالت على رسلك يا أمير المؤمنين فوالله لأصدقن. إن عجوزاً كانت تدخل عليَّ فاتخذتها أماً، وكانت تقوم أمري بما تقوم به الوالدة، وكنت لها بمنزلة البنت فأمضيت بذلك حيناً، ثم إنها قالت لي يا بنية إنه قد عرض لي سفر ولي بنت أتخوف عليها منه أن تضيع وقد أحببت أن اضمها إليك حتى أرجع من سفري. فعمدت إلى ابن لها شاب أمرد فهيأته كهيئة الجارية وأتتني به لا أشك أنه جارية فكان يرى مني ما ترى الجارية من الجارية، حتى اغتفلني يوماً وأنا نائمة فما شعرت حتى علاني وخالطني فمددت يدي إلى شفرة كانت إلى جنبي فقتلته ثم أمرت به فألقي حيث رأيت، فاشتملت منه على هذا الصبي، فلما وضعته ألقيته في موضع أبيه فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك: فقال عمر صدقت بارك الله فيك، ثم أوصاها ووعظها ودعا لها وخرج، وقال لأبيها بارك الله في ابنتك فنعم الابنة ابنتك وقد وعظتها وأمرتها، فقال الشيخ وصلك الله يا أمير المؤمنين وجزاك خيراً عن رعيتك.

فنون شتى من أخباره:

عن الحسن قال عاتب عيينة عثمان فقال له كان عمر خيراً لنا منك، أعطانا فأغنانا وأخشانا فأتقانا.

تظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى أنه ضربه وتعدى عليه: فقال اللهم إني لا أحل لهم أعشارهم ولا أبشارهم (أموالهم وأجسامهم) كل من ظلمه أميره فلا أمير عليه دوني ثم

أقاده منه (أى أخذ له القود)

و قال المغيرة بن شعبة و ذكر عمر فقال كان و الله له فضل يمنعه أن يخدع و عقل يمنعه أن ينخدع.

فى كنز العمال عن طاوس أن عمر قال أرأيتم إن استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل أقضيت ما على قالوا نعم: قال لا حتى انظر فى عمله أعمل بما أمرته أم لا.

وفيه عن عمر قال: الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله فإذا رفع الإمام رفعوا (أخرجه ابن سعد)

وفيه عنه أنه قال لا ينبغى أن يلى هذا الأمر إلا رجل فيه أربع خلال، اللين فى غير ضعف، و الشدة فى غير عنف، و الإمساك فى غير بخل و السماحة فى سرف، فإن سقطت واحدة منهن فسدت الثلاث.

وما أظن أن خليفة اتصف بهذه الصفات من غير تصنع و لا تكلف كعمر رضي الله عنه.

وفيه عن قطن بن وهب عن عمه أنه كان مع عمر بن الخطاب فى سفر فلما كان قريباً من الروحاء سمع صوت راع فى جبل فعدل إليه فلما دنا منه صاح يا راعى الغنم فأجابه الراعى: فقال له إنى مررت بمكان هو أخصب من مكانك فإن كل راع مسئول عن رعيته ثم عدل صدور الركاب (أخرجه الإمام مالك و ابن سعد).

وتالله إن هذا الاهتمام بشئون الناس حتى فى إرشاد الرعاة إلى أماكن الخصب لجدير بأن يقوم به كل خليفة من خلفاء المسلمين اقتداء بسلفهم الصالحين، و هيهات هيهات فإن الشهوات غلابة و محبة الذات خلابة، و ليست كل النفوس خيرة كنفس عمر.

وفيه عن سعد بن المسيب أن عمر بن الخطاب قال فى ولايته من ولى هذا الأمر بعدى فليعلم أن سير يده عنه البعيد و القريب و ايم الله ما كنت إلا أقاتل الناس عن نفسى قتالاً.

و أخرج ابن الجوزى فى المناقب عن يحيى بن جعدة قال: قال عمر لو لا أنى أسير فى سبيل الله، أو أضع جبينى لله فى التراب أو أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يلتقط طيب التمر، لأحببت أن أكون قد لحقت بالله.

وفيه عن ابن سعد قال: قال عمر و الله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك فإن كنت ملكاً فهذا أمر عظيم: فقا ل قائل يا أمير المؤمنين إن بينهما فرقاً، قال ما هو: قال الخليفة لا يأخذ إلا حقاً و لا يضعه إلا فى حق، وأنت بحمد الله كذلك، والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطى هذا فسكت عمر.

وفيه عن الزهرى قال كان جلساء عمر أهل القرآن كهولا كانوا أو شباناً وفيه عن الأوزاعى قال: بلغنى أن عمرﷺ سمع صوت بكاء فى بيت ومعه غيره فمال عليهم ضرباً حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها وقال اضرب فإنها نائحة لا حرمة لها إنها تبكى لشجوكم إنما تهريق دموعها على أخذ دراهمكم إنها تؤذى أمواتكم فى قبورهم وأحياءكم فى دورهم. إنها تنهى عن الصبر الذى أمر الله به وتأمر بالجزع الذى نهى الله عنه.

وفيه عن عبد الله بن بريدة قال: ربما أخذ عمر بن الخطاب بيد الصبى فيجئ له ويقول ادع فإنك لم تذنب بعد: وفيه عن محمد قال: كان عمر يشاور حتى المرأة.

وفيه عن أبى أمامة بن سهل قال: كتب عمر إلى أبى عبيدة رضى الله عنهما علموا غلمانكم العوم ومقاتلتكم الرمى.

ولا يخفى أنه أراد بهذا التعليم التمرن على فنون الحرب من حال الصغر، وإنما كان تعلم الرمى من أهم لوازم الجند بالنسبة لذلك العصر.

وأخرج الطبرى عن زيد بن أسلم قال قال عمر كنا نعد المقرض بخيلاً وإنما هى المواساة.

ومن مأثور كلامه قوله من كتم سره كان الخيار فى يده، أشقى الولاة من شقيت به رعيته، أعقل الناس أعذرهم للناس، ما الخمر صرفاً بأذهب لعقول الرجال من الطمع، لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً، من ذوى القرابات أن يتزاوروا ولا يتجاوروا، قلما أدبر شئ فأقبل، أشكو إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى، من لا يعرف الشر كان أجدر أن يقع فيه (عن زهر الآداب وثمر الألباب).

ودخل عدى بن حاتم على عمر فسلم وعمر مشغول فقال يا أمير المؤمنين أنا عدى بن حاتم فقال: ما أعرفنى بك، امنت إذ كفروا، ووفيت إذ غدروا وعرفت إذ أنكروا، وأقبلت إذ أدبروا.

ومن جميل قوله إياكم والمعاذير فإن كثيراً منها كذب، وقوله تعلموا المهنة فإنه يوشك أحدكم أن يحتاج إلى مهنته (المناقب).

عن قبيصة بن جابر قال: قال لى عمر بن الخطاب إنك رجل حدث السن فصيح اللسان فسيح الصدر، وإنه يكون فى الرجل عشرة أخلاق تسعة أخلاق حسنة وخلق سئ فيغلب الخلق السئ التسعة الأخلاق الحسنة، فاتق عثرات الأشياء.

وفى المناقب عن عبيد بن أم كلاب أنه سمع عمر يقول لا يعجبنكم من الرجل طنطنته، ولكن من أدى الأمانة وكف عن أعراض الناس فهو الرجل.

وفيه عن إسماعيل بن أمية قال قال عمر الراحة فى ترك خلطاء السوء، وما أعظمها من حكمة وأفيدها من موعظة، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وعن مسروق قال تذاكرنا عند عمر بن الخطاب الحسب فقال: حسب المرء دينه وأصله عقله ومرءته خلقه.

ومن قوله فى بيان فضيلة الكسب ما ذكره فى المناقب عن عطاء قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ لأن أموت بين شعبتى رحل (هو قتب الجمل) أسعى فى الأرض أبتغى من فضل الله كفاف وجهى أحب إلىّ من ان اموت غازياً.

حضه الناس على الكسب:

الإنسان مدنى بالطبع يتعاون على العمل ويتبادل مع أخيه العوض والعوض إنما هو ثمرة العمل، فكل يعمل للآخر ليبادله العوض، ورب صنعة يتعاون عليها جمع من الناس كل فرد منهم يشتغل بفرع ما، فإذا ترك أحدهم نصيبه من العمل بذلك الفرع خسر الكل لهذا كان أس الحياة الاجتماعية وأصلها الكسب، وليس فى الوجود شرع ينهى عن الكسب بل كل الشرائع تأمر به، ولو مع الرفق فى الطلب، والإسلام من الشرائع التى حتمت السعى للرزق وأمرت بالكسب، إلا أنه أمر بالرفق فى الطلب والتوكل على الله مع السعى ليكون الرجاء بالكسب أقوى والقناعة لجرثومة اليأس أقطع، والعزيمة على السعى أمضى، وإذ كان عمر ﷺ أعلم الصحابة بالدين وأفقههم فيه وخشى أن يلابس نفوس العامة شئ من ظواهر الأيات التى أمرت بالتوكل والقصد ورأى بعضهم حمل معنى التوكل على محمل الزهد وترك السعى جعل دأبه حض الناس على السعى وحثهم على العمل والكسب. ومن ذلك ما جاء فى كنز العمال عن معاوية بن قرة قال: لقى عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال ما أنتم فقالوا متوكلون: فقال كذبتم ما أنتم متوكلون إنما المتوكل رجل ألقى حبه فى الأرض وتوكل على الله، وفى المناقب لأبى الفرج بن الجوزى عن محمد بن سيرين عن أبيه قال شهدت مع عمر ابن الخطاب المغرب فأتى على ومعى رزيمة[1] لى فقال ما هذا معك فقلت رزيمة لى أقوم فى هذا السوق فأشترى وأبيع، فقال يا معشر قريش لا يغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة فإنها ثلث الإمارة.

وفيه عن حواب التيمى قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ يا معشر القراء ارفعوا رءوسكم فقد وضح الطريق واستبقوا الخيرات، ولا تكونوا عيالاً على المسلمين.

وفيه عن الحسن قال: قال عمر ﷺ من تجر فى شئ ثلاث مرات فلم يصيب فيه شيئاً فليتحول إلى غيره.

وفيه عن الأكيدر العارض قال: قال عمر بن الخطاب ﷺ، تعلموا المهنة فإنه يوشك أن يحتاج أحدكم إلى مهنة.

وفى كنز العمال عن عمر قال: لولا هذه البيوع صرتم عالة على الناس.

وفى المناقب عن بكر بن عبد الله قال: قال عمر مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس.

---

(١) تصغير رزمة وهى الكاره من الثياب

وفيه عن ذكوان قال: قال عمر إذا اشترى أحدكم جملاً فليشتره عظيماً سميناً فإن أخطأه خيره لم يخطه سوقه.

وفيه عن محمد بن عاصم قال: بلغنى أن عمر بن الخطاب كان إذا رأى فتى فأعجبه حاله سأل عنه هل له حرفة فإنه قيل لا سقط من عينه.

وفى العقد: قال عمر بن الخطاب لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقنى وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإن الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض، وتلا قول الله جل وعلا ف﴿إِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة/١٠]

وفيه: قال عمر بن الخطاب يا معشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس.

وفيه قال عمر بن الخطاب حسب الرجل ماله وكرمه دينه ومروءته خلقه

نهيه عن التنطع وتحذيره من الابتداع:

الإسلام دين اليسر ودين الفطرة يأمر بالاعتدال فى كل الأعمال حتى العبادة، وينهى عن التنطع الناشئ عن التوسع والابتداع، ولم يكن العرب على صلابتهم فى الدين يعرفون هذا التنطع الذى ابتدعه الأعاجم بعد لعدم توسعهم فى التأويل ووقوفهم عند ظاهر الشرع.

لهذا لما انتشر الإسلام فى أنحاء الأرض وعم سائر الشعوب فى دولة الخلفاء الأمويين والعباسيين، وأكثر الأعاجم من الابتداع وغالوا بالتنطع والتشدد بما ليس من الدين كان يعيبهم العرب على ذلك ويهزءون بهم ويتباعدون عن بدعهم، فقد ذكر ابن عبد ربه فى العقد الفريد عن الأصمعى قال: قدم أبو مهدية الأعرابى من البادية فقال له رجل ياأبا مهدية أتتوضئون بالبادية، قال والله يا بن أخى لقد كنا نتوضأ فتكفينا التوضئة الواحدة ثلاثة أيام والأربعة حتى دخلت علينا هذه الحمراء (وهى الموالى من الأعاجم) فجعلت تليق استاها بالماء كما تلاق الدواة.

وإنما أراد بقوله فتكفينا التوضئة الواحدة الخ الإغراق بالتهكم على تنطع الأعاجم لا أنهم (أى العرب) كانوا حقيقة يفعلون ذلك بالوضوء معاذ الله أن يكون فى هذه المرتبة من التهاون بالفرائض، وهم أبناء أولئك الذين نشروا هذا الدين وعلى عهدهم أنزل القرآن.

كان من الصحابة نفر ولعوا بالعبادة وانقطعوا إلى التهجد لكن بما لا يخرج عما جاء به الكتاب ورأوه من نبيهم عليه الصلاة والسلام، فخشى عمر أن يسرى إلى العامة حب الانقطاع إلى العبادة والتنطع فى الدين فينشأ عن ذلك تعطيل لوظائف الاجتماع الدنيوية

وتوسع فى التأويل وتجرؤ على الابتداع فجعل ينهى الناس عن التنطع ويحذرهم من الابتداع، ومن نهيه عن التنطع ما أخرجه أبو الفرج بن الجوزى عن محمد بن عبد الله القرشى عن أبيه قال: نظر عمر إلى شاب قد نكس رأسه فقال له يا هذا ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما فى قلبه فإنما أظهر للناس نفاقاً على نفاق.

وأخرج عن أبى عمرو الشيبانى قال: خبر عمر بن الخطاب برجل يصوم الدهر فجعل يضربه بمخفقته وجعل يقول كل يادهر كل يا دهر.

وعن سعيد بين المسيب عن أبيه قال: كنت جالساً عند عمر ﷺ إذ جاءه راكب من أهل الشام فطفق يسأله عن حالهم فقال: هل تُعجل أهل الشام الإفطار. قال نعم. قال لن يزالوا بخير ما فعلوا ذلك ولم ينتظروا النجوم انتظار أهل العراق.

وأما تحذيره من الابتداع فقد أخرج الإمام ابو الفرج أيضاً عن عابس بن ربيعة قال: رأيت عمر نظر إلى الحجر فقال: أما والله لولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك ثم قبله.

وعن عبد الله بن سرجيس قال: كان الأصلع (يعنى عمر) إذا استلم الحجر قال: إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك.

وعن نافع قال: كان الناس يأتون الشجرة التى بايع رسول الله ﷺ تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت.

وليت عمر يأتى فى هذا العصر بدرته وسيفه وينظر إلى مصير صار إليه المسلمون من تقديس الأحجار والأشجار وإذا كانت تلك شجرة واحدة وبويع تحتها رسول الله ﷺ، فعندنا الأن عدد لا يحصى من الأشجار كالجميز فى مصر والميس والزيتون فى الشام وهى من التى كانت تعتبر مقدسة عند الوثنين القدماء فقدس عوام المسلمين بعضها بحجة أن هذه دفن تحتها فلان الصالح، وتلك لمسها فلان الشيخ، إلى غير ذلك من الأعذار التى ينتحلوها بعقولهم القاصرة عن مرتبة التوحيد التى وضع الله فيها مثل أبى بكر وعمر فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأخرج عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال: اتى عمر بن الخطاب رجل فقال له: يا أمير المؤمنين إنا لما فتحنا المدائن أصبت كتاباً فيه كلام عجيب. قال أمن كتاب الله؟ قال لا فدعا بالدرة فجعل يضربه بها ويقول ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ، إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ {يوسف١/٢} إلى قوله تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ {يوسف/٣}: ثم قال إنما أهلك من كان

قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من العلم.

حسبته:

أصل الحسبة هى مشارفة السوق والنظر فى موازينه ومكاييله ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشرى فيه من المأكول والمصنوع وغيره، ورفع الضرر عن الطريق ودفع الحرج عن السابلة وتنظيف الأزقة وبالجملة، هى كل الوظائف المتعلقة بما يعرف الأن بالمجالس البلدية ولها فى الإسلام ولاية خاصة تسمى ولاية الحسبة وأول من صنعها على ما يظهر هو عمر بن الخطاب ﷺ فقد جاء فى كنز العمال فى حديث أخرجه ابن سعد عن الزهرى أن عمر بن الخطاب استعمل عبد الله بن عتبة على السوق، وقال العلماء هذا أصل ولاية الحسبة.

ومن ثم ترقت الحسبة فى الإسلام ترقياً عجيباً حتى كانت من أهم الشؤون التى عنى بها الخلفاء والفقهاء وقد توسع العلماء بتوسع الحاجة فى وظيفة والى الحسبة فجعلوها تشمل كل أمر بمعروف ونهى عن منكر، ومن هؤلاء شيخ الإسلام ابن تيمية فقد أجاز التوسع فى ولاية الحسبة حتى فى إقامة الصلوات الخمس فى مواقيتها، وتعاهد الأئمة والمؤذنين وإلزامهم بأداء وظائفهم على مقتضى الشرع وحجته فى جواز التوسع بهذه الوظيفة ما قاله عن الولايات فى كتاب الحسبة فى الإسلام.

عموم الولايات وخصوصا وما يستفيده المتولى بالولاية يتلقى من الألفاظ والأحوال والعُرف. وليس لذلك حد فى الشرع فقد يدخل فى ولاية القضاء فى بعض الأمكنة والأزمنة ما يدخل فى ولاية الحرب فى مكان وزمان آخر وبالعكس، وكذلك الحسبة وولاية المال .

ومن هذا ترى مبلغ عناية القوم بهذه الوظيفة السامية وتوسعهم فيها وإتقانهم لها حتى إننا رأينا من بعض آثار الحسبة على عهد الفاطميين قطعاً مستديرة من الزجاج ومزيجاً آخر معه على وزن الدينار والدرهم مكتوباً عليها وزن واف أو ما هو بمعناه، ومثلها للأوزان الخفيفة وكلها كانت تصدر من والى الحسبة أو المحتسب على تعبير المتأخرين لأجل أن يضبط بها الناس عيار الدراهم والدنانير والأوزان على مايظن منعاً للتلاعب والغش، إلا أننا لم نقف على التاريخ الذى ألغى فيه اسم المحتسب، ولعله منذ أنشئت المجالس البلدية فى الدولة العثمانية

أما حسبة عمر ﷺ فقد استعمل لها عبد الله بن عتبة ومع ذلك فقد كان يقوم بنفسه بوظائف المحتسب ويشارف السوق ويراقب المكاييل والموازين ويأمر بإماطة الأذى عن الطريق.

أخرج الإمام ابن الجوزى عن المسيب بن دارم قال: رأيت عمر بن الخطاب ﷺ يضرب جمالاً ويقول حملت جملك مالا يطيق.

وفى كنز العمال عن يزيد بن فياض عن رجل من أهل المدينة قال دخل عمر بن الخطاب السوق وهو راكب فرأى دكانا قد احدث فى السوق فكسره. وفيه عن عبد الله بن ساعده الهذلى قال: أرأيتم عمر بن الخطاب يضرب التجار بدرة إذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا سكك أسلم ويقول لا تقطعوا علينا سابلتنا.

وفيه عن على أنه كان يأمر بالمثاعب [1] والكنف تقطع عن طريق المسلمين.

وفيه عن القاسم بن محمد أن عمر بن الخطاب مر بحاطب بسوق المصلى وبين يديه غرارتان فيما زبيب، فسأله عن سعرها فسعر مدين بكل درهم فقال له عمر: حدثت بعير مقبلة من الطائف تحمل زبيباً وهم يعتبرون بسعرك فإما أن ترفع فى السعر، وإما أن تدخل زبيبك البيت فتبيعه كيف شئت، فلما رجع عمر حاسب نفسه ثم أتى حاطباً فى داره فقال إن الذى قلت ليس بعزمة ولا قضاء، وإنما هو شئ أردت به الخير لأهل البيت فحيث شئت فبع وكيف شئت فبع (أخرجه الشافعى فى السنن).

وله أخبار غير هذه فى الحسبة وقد اكتفينا عنها بما تقدم دلالة على الباقى

قضاؤه:

كان عمر ﷺ يتولى القضاء بنفسه وينيب عنه غيره لما هو معروف من أن القضاء فى الإسلام وظيفة من وظائف الإمام يجوز له أن يتولاها بنفسه وأن ينيب بها عند الحاجة غيره، وكان تحرية للعدالة فى انتخاب القضاة كتحريه فى انتخاب الولاة لا يراعى فى كليهما إلا الأهلية والاستعداد والتقوى والعدل، ويعلم إن الظالم إذا ظلم على موليه فقد أخرج ابن الجوزى فى المناقب عن عبد الله بن عمير قال: قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من استعمل رجلاً لمودة أو لقرابة لا يستعمله إلا لذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين.

واخرج عن عمران بن سليم عن عمر قال: من استعمل فاجراً وهو يعلم أنه فاجر فهو مثله.

وكما كان يتحرى فى انتقاء العمال والقضاة التقوى والعدالة يتحرى العلم والمعرفة والذكاء ويبغض خرق العامل وجهله.

أخرج ابن الخوزى عن محارب بن دثار عن عمر بن الخطاب أنه قال لرجل قاض من أنت قال قاضى دمشق: قال كيف تقضى، قال أقضى بكتاب الله، قال: فإذا جاءك ما ليس فى كتاب الله قال أقضى بسُنة رسول الله. قال: فإذا جاءك ما ليس فى سُنة رسول الله قال: أجتهد رايى وأوامر (أى أشاور) جلسائى. قال احسنت. وقال فإذا جلست فقل اللهم إنى أسألك أن أفتى بعلم ثم رجع إلى عمر: فقال ما رجوعك؟ قال رأيت الشمس والقمر يقتتلان مع كل واحد منهما جنود من الكواكب فقال مع أيهما كنت: قال مع القمر. قال يقول الله عز وجل

---

(1) مسايل الماء كما فى النهاية

اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ {الإسراء/١٢} لا تلى لى عملاً.

وإنما عزله لجهله وأبعده عن العمل لسخافة قوله، وهكذا كان شأنه مع عماله ﷺ.

وكان لا يحب تعجيل الفصل فى الخصومة رجاء أن يصطلح الخصمان وتمحى آثار الضغائن من النفوس، فقد جاء فى كنز العمال عنه ﷺ أنه قال ردوا الخصوم حتى يصطلحوا، فإن فصل القضاء يورث الضغائن بين الناس.

كتابه فى القضاء إلى شريح القاضى:

أما بعد إذا جاءك شئ فى كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال فإذا جاءك أمر ليس فى كتاب الله فانظر سُنة رسول الله ﷺ فاقض بها، فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله ولم يكن فى سُنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به. فإن جاءك ما ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سُنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أى الأمرين شئت. أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم، وإن شئت أن تأخر فتأخر ولا أرى التأخير إلا خيراً لك (من كنز العمال).

كتابه فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى:

ﷺ أما بعد: فإن القضاء فريضة محكمة وسُنة متبعة فافهم إذا أدلى[١] فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له آس[٢] بين الناس فى مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف فى حيفك[٣] ولا يخاف ضعيف من جورك، والبينة على من ادعى، واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً. ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس. راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل، الفهم الفهم عند ما يتلجلج[٤] فى صدرك مما لم يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبى أعرف الأمثال والأشباه وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى واجعل للمدعى حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهى إليه (أى وقتاً محدوداً) فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً فى ولاء أو قرابة، فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات، ثم إياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر

---

(١) رفع لك الأمر وجئ به إليك.

(٢) أعدل وساو

(٣) الحيف الجور والظلم كما فى القاموس.

(٤) التلجلج التردد فى الكلام كما فى القاموس.

ويحسن بها الذخر، فإنه من يخلص بها نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله مابينه وبين الناس، ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره وأبدى فعله والسلام (من البيان والتبيين).

وهذا الكتاب على إيجازه هو الذى تدور عليه أحكام القضاء إلى هذا العهد.

وأما أقضيته فكثيرة لا يسعها هذا الكتاب، فيرجع إليها من أحب فى كتب الحديث، وقد خالف فى بعض أحكامه ما قضيت به السُنة مراعاة للحال والمصلحة، فلم يؤاخذ على ذلك لحسن قصده منها حكمه بتحريم المتعة، وقد أحلت فى ظروف خاصة، ومنها حكمة بوقوع طلقة واحدة وأراد بهذا قهر النفوس على تجنب الطلاق لما يحصل عند المطلق من الندامة إذا أحس بألم الحكم بوقوع الطلاق الثلاث، وغير ذلك من الأحكام النافعة التى أخذ بها بعد كثير من أئمة المسلمين اقتداء بحسن رأيه، وجميل قصده، فليرجع إليها فى مظانها من كتب الأئمة والمحدثين من شاء.

اهتمامه بأمور الرعية (وعسسه بالليل):

كان عمر ﷺ من حرصه على راحة الرعية، يتفقدهم بنفسه ويهتم بشئونهم أكثر من اهتمامه بشؤون بيته، وبلغ ذلك به أن كان لا ينام عنهم بالليل كما كان لا يغفل عنهم ساعة من نهار، فليله ونهاره فى خدمة الرعية سواء إذ كان أكثر لياليه يعس بالمدينة بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم شأن الأمراء الذين يعرفون أنهم بما فوض إليهم من أمر الهيمنة على القانون خدام الرعية مسئولون عن راحة الأمة وسعادتها لا أن الرعية خدام لهم عبيد لشهواتهم.

روى الطبرى فى تاريخه عن أبى بكر بن عبد الله المزنى: قال جاء عمر بن الخطاب إلى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه فجاءت المرأة ففتحته، ثم قالت له لا تدخل حتى أدخل البيت وأجلس مجلسى فلم يدخل حتى جلست، ثم قالت ادخل فدخل ثم قال هل من شئ فأتته بطعام فأكل وعبد الرحمن قائم يصلى: فقال له تجوز أيها الرجل فسلم عبد الرحمن حينئذ ثم أقبل عليه فقال: ما جاء بك فى هذه الساعة يا أمير المؤمنين: قال رفقة نزلت فى ناحية السوق خشيت عليهم سراق المدينة فانطلق فلنحرسهم: فانطلقا فأتيا السوق فقعدا على نشز (مرتفع) من الأرض يتحدثان فرفع لهما مصباح فقال عمر ألم أنه عن المصابيح بعد النوم؟ فانطلقا فإذا هم قوم على شراب لهم: فقال انطلق فقد عرفته فلما أصبح أرسل إليه فقال: يا فلان كنت وأصحابك البارحة على شراب: قال وما علمك يا أمير المؤمنين: قا ل شئ شهدته قال: أو لم ينهك الله عن التجسس قال: فتجاوز عنه.

قال بكر بن عبد الله وإنما نهى عمر عن المصابيح لأن الفأرة تأخذ الفتيلة فترمى بها فى

سقف البيت فيحترق وكان إذ ذاك سقف البيت من الجريد.

وأخرج عن زيد بن أسلم عن ابيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب إلى حرة حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤرث (تتقد) فقال: يا أسلم إنى أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فإذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون (يتصايحون) فقال عمر: السلام عليكم ياأصحاب الضوء، وكره أن يقول يا أصحاب النار، قالت وعليكم السلام: قال أأدنو قالت أدن بخير أودع. فدنا فقال ما بال هؤلاء الصبية يتضاغون: قالت الجوع، قال وأى شئ فى هذه القدر: قالت ما أسكتهم به حتى يناموا: الله بيننا وبين عمر قال: أى رحمك الله ما يدرى عمر بكم قالت: يتولى أمرنا ويغفل عنا. فأقبل على (أى على أسلم) فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلا فيه كبة شحم، فقال احمله عليّ فقلت أنا أحمله عنك قال احمله عليّ مرتين أو ثلاثاً، كل ذلك أقول أن احمله عنك، فقال فى آخر ذلك أنت تحمل عنى وزرى يوم القيامة لا أم لك، فحملته عليه وانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا إليها، فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها ذرى عليّ،وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر، وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر إلى الدخان من خلل لحيته حتى نضج وأدم القدر ثم أنزلها، وقال ابغنى شيئاً: فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول أطعمهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا، ثم خلى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول: جزاك الله خيراً، أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين: فيقول قولى خيراً إنك إذا جئت أمير المؤمنين وجدتنى هناك إن شاء الله، ثم تنحى ناحية عنها ثم استقبلها وربض مربض السبع: فجعلت أقول إن لك شأناً غير هذا وهو لا يكلمنى، حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدءوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل على فقال: يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم.

وفى مناقب عمر للإمام أبى الفرج بن الجوزى عن أنس بن مالك قال:بينما عمر يعس المدينة إذ مر برحبة من رحابها فإذا هو ببيت من شعر لم يكن بالأمس فدنا منه فسمع أنين امرأة ورأى رجلاً قاعداً فدنا منه فسلم عليه، ثم قال من الرجل: فقال رجل من أهل البادية جئت إلى أمير المؤمنين أصيب من فضله: فقال ما هذا الصوت الذى أسمعه فى البيت، قال انطلق يرحمك الله لحاجتك قال على ذاك ما هو، قال امرأة تمخض قال هل عندها أحد: قال لا قال (أى أنس) فانطلق حتى أتى منزله، فقال لامرأته أم كلثوم هل لك فى أجر ساقه الله إليك: قالت وما هو: قال امرأة عربية تمخض ليس عندها أحد: قالت نعم إن شئت: قال فخذى معك ما يصلح المرأة لولادتها، من الخرق والدهن وجيئينى ببرمة وشحم وحبوب: قالت فجاءت به فقال لها انطلقى وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت، فقال لها ادخلى

إلى المرأة وجاء حتى قعد إلى الرجل، فقال له أوقد لى نارا ففعل فأوقد تحت البرمة حتى أنضجها، وولدت المرأة فقالت امرأته: ياأمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام: فلما سمع (أى الرجل) يا أمير المؤمنين كأنه هابه فجعل يتنحى عنه، فقال له مكانك كما أنت فحمل البرمة فوضعها على الباب، ثم قال (أى لأم كلثوم) اشبعيها ففعلت، ثم أخرجت البرمة فوضعتها على الباب، فقام عمر ﷺ، فأخذها، فوضعها بين يدى الرجل فقال كل ويحك فإنك قد سهرت من الليل ففعل، ثم قال (أى عمر) لامرأته اخرجى، وقال للرجل إذا كان غد فأتنا نأمر لك بما يصلحك، ففعل الرجل فأجازه وأعطاه.

لله أى نفس طاهرة بارة هذه النفس، وأى حنان خالص من شوائب التصنع هذا الحنان، وأى خليفة عظيم بعد عمر يحمل نفسه مثل هذا العناء، ويضع نفسه فى هذه المرتبة من التواضع والرحمة، ويأخذ نفسه بهذا الأدب والاهتمام بأفراد الرعية، وهو يحتاج إلى التجرد عن شهوات الملك وعظمة السلطان والتنزل عن مرتبة التسلط والكبرياء، إلى منزلة التساوى بأفراد الرعية، وهيهات هيهات فإن الجبروت ملكة فى نفوس الملوك لا يمحوها إلا الرغبة فى الله، كرغبة عمر .

كلمة إجمالية فى أخلاقه:

هذا ما أحببنا إيراده من مناقب عمر ﷺ وأخلاقه وسيرته ومنه تعلم كيف كان ذلك الرجل العظيم فيتمثل لك فيه صورة من النور وجسم من الفضيلة والكمال، وعلم من أعلام الرجال الذين تفتخر بحياتهم الأمم ويقتدى بسيرتهم أرباب الهمم، فالجد والصبر والثبات والجلد والقوة والعدل والتقوى والتواضع والرفق والحلم والبصيرة والرأى كلها أخلاق قل أن تجتمع فى عدد عديد من الرجال، وقد اجتمعت فى عمر بن الخطاب كما رأيت فيما أوردناه من سيرته وكل أخلاقه هذه تكاد تكون فطرية لا يظهر عليها شئ من التصنع أو التكلف ولو أردنا استقصاء كل أخباره وآثاره لأعجزنا هذا الأمر كما أعجز كثيراً غيرنا من الفضلاء الذين حاولوا جمع أخباره وتتبع آثاره فلم يدركوا غايتها ولم يأتوا بمعشارها، ومن أحسن وصف موجز وصف به عمر ما روى أن معاوية بن أبى سفيان قال لصعصعة بن صوحان صف لى عمر بن الخطاب فقال:

"كان عالماً برعيته، وعادلاً فى قضيته، عارياً من الكبر، قبولاً للعذر، سهل الحجاب، مصون الباب، متحرياً للصواب، رفيقاً بالضعيف، غير محاب للقريب، ولا جاف للغريب"

وكان من أخص صفاته الجد المصحوب بالحزم مع التأنى فى الأمور والاستشارة فى جليلها وحقيرها لهذا من تتبع سيرته لا يراه فشل فى أمر من الأمور، بل كل تلك الأعمال التى عملها فى خلافته وذلك الفتح العظيم الذى كان على عهده توفق إليه توفيقاً صاحبه من أول عهده بالخلافة إلى حين وفاته، وسبب هذا التوفيق هو الجد والحزم وعدم التردد فى الأمر وتمحيص الأشياء شأن كل رجل عظيم يريد ما يقول، وينال ما يريد، ولو بحثنا فى تاريخ الأمم القديمة والحديثة لوجدنا لكل أمة رجلاً أو رجالاً من رجال السياسة والحرب تفتخر بهم وتعلى ذكرهم، ولكن ليس من هؤلاء الرجال من اجتمعت فيه تلك الخصال السامية والأخلاق الحميدة التى اجتمعت فى عمر بن الخطاب. إذن فإذا افتخرت كل أمة برجالها فنحن لا نبالغ إذا فاخرنا بهذا الرجل العظيم كل الأمم، وإذا كان هناك مبالغة فى القول أو غلو فى الوصف ووقف غيرنا من سير رجال الأمم المشهورين على من اتصف بكل صفات عمر فيبينه لنا وهو المتفضل، وأنا أضع له خدى التراب اعترافاً بالحق وإقراراً بفضل ذوى الفضل من رجال العالم.

نعم إن مشهورى الرجال رجالاً أسسوا ملكاً عريضاً أوسع من ملك عمر، وافتتحوا من الممالك ما لم يفتتحه ونالوا من السيادة على الشعوب الكثيرة فوق ما نال، ولكن هل منهم من كان كعمر جباراً غير ظالم، كريماً غير مسرف، عادلاً لا عن ضعف، شجاعاً غير متهور، قنوعاً غير شره زاهداً بغير تصنع، حليماً من غير جبن تقياً غير متنطع، كلا ما

نظن أن أوصافاً كهذه تجمع فى رجل واحد غيره قط لا سيما إذا نشأ فى بيئة كبيئته وبين قوم كقومه حالهم من البداوة معروف والتاريخ حكم عادل، وما بسطناه من سيرته فى هذا الكتاب خير شاهد أمين وإنا والله لنتمنى اكثير ممن مضى من خلفائنا الذين نشئوا فى مهاد الحضارة وحنكتهم تجارب الزمان وغذتهم لبان السياسة بعضاً من أخلاق عمر، يحملون بها الأمة على طريق الخير والسعادة ويربونها على الجد وينتكبون بها طرق المهالك التى ساقتها إليها أيدى الظلم والاستبداد والجهل بأصول سياسة الرعية، والله فى خلقه شؤون.

الجانب الفلسفى فى حياة عمر

إن نبوغ رجل كعمر فى بيئة بعيدة عن العلم والفلسفة، وادراكه المثل الإسلامية العليا مطلقة، كما أرادها الشارع، وفوق ما كان يدركه منها فلاسفة النفس وعلماء الاجتماع على عهده وبعد عهده بأجيال، أمر يستوقف النظر ويدعوا إلى الحيرة ولا مخرج منه إلا بتعليل ذلك بالعبقرية.."

إن لحياة عمر بن الخطاب جوانب شتى دينية واجتماعية وسياسية، ولعل من أحفلها بالطرافة جانبها الفلسفى، وللفلسفة معاييرها فى تقدير المواهب النفسية، والملكات العقلية، وطرقها فى التنقيب عما ينطوى فى أعمال العاملين من البواعث الدالة على مميزاتها الأدبية، اتبهم الروحية

ونحن إن تأملنا فى حياة عمر وما رمى إليه من غايات، وما بدت عليه من صفات، فى مزدحم الحوادث، ومضطرب الانقلابات التى طرأت على جماعة المسلمين على عهده، تبين لنا أنه لم يكن رجلاً عادياً، ولكنه كان عبقرياً

نقول عبقرياً ونريد منه معناه العلمى لا معناه العامى، فإن العبقرية فى الاطلاق الأخير تعنى بلوغ صاحبها درجة ممتازة فى الذكاء، ومكانة عالية من العقل. ولكنها فى الإصطلاح العلمى تعنى موهبة لا يمكن اكتسابها من طريق العلم ولا التجربة، تؤهل صاحبها لأن يكون ملهماً فيما هو بصدده حتى يبلغ درجة الابداع فيه، بدون أن يعمل فيه فكراً، أو يبذل جهداً

هذه حالة استثنائية يمنحها بعض الناس منحاً، ولا يستطيع أحد الوصول إليها بالاستكثار من العلم، ولا بالتبحر فى المعرفة جاء فى دائرة معارف (بريتانيكا)

"العبقرية شئ خارق للعادة على وجه الاطلاق، وأرقى حتى من القوة العلمية، وأنها لتختلف فى النوع اختلافاً بيناً عن الألمعية الممتازة، فإن هذه تعتبر مقدرة علمية سامية، ولكن ينقصها تلك الموهبة الفذة التى لا تقبل التفسير وهى العبقرية"

هذه هى العبقرية التى نحكم بها لعمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين. ومن عجب أن النبى ﷺ قضى له بها فى حديث كريم هو: "إن من أمتى ملهمين ومحدثين (بفتح الدال فيها مشددة) وأن عمر منهم". فالملهمون هم الذين يلهمهم الله الأعمال الجليلة، والابداعات الفائقة بدون اجالة روية فى سبيل الحصول عليها. والمحدثون هم الذين تحدثهم الروحانيات العلوية وتهديهم إلى سبيل التفوق فيما هم بصدده. فعمر بنص هذا الحديث عبقرى بالمعنى العلمى.

فى هذا التطبيق فائدة علمية طريفة وهى أن النبى ﷺ عرف العبقرية بحدها العلمى قبل أن يعرف أحد مدلولها العربى

نشأ عمر وكبر فى الجاهلية، ولم يظهر عليه شئ من نايل السمو الذى ظهر به فى الإسلام

غير شدته وقوة ارادته. فلما بعث النبىﷺ وبدأ يدعو العقلاء سراً إلى الإسلام، بلغ عمر أن أخته دخلت فيه، فغضب لذلك أشد الغضب وزارها فى دارها ليلومها على ما جنت بترك دين آبائها، فلما جلس إليها وأخذ فى تأنيبها أسرعت فناولته صحيفة فيها شئ من القرآن، فلما قرأها وكان من الأفراد القليلين الذين تعلموا القراءة إذ ذاك- وقع فى قلبه من سمو الإسلام ما حمله على أن يجتمع برسوله، فلما لقيه عرض عليه الرسول الإسلام، وتلا عليه آيات من القرآن، فأمن به لساعته.

كان النبىﷺ قد دعا الله وهو فى شدة المحنة من اضطهاد قريش اياه وأصحابه، أن يعز الإسلام بأحد العمرين عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام الملقب بأبى جهل، فاختار الله لهذه المكانة عمر بن الخطاب فأسلم. فكان أول ما عمله تحقيقاً لهذه الدعوة النبوية أن أعلن إسلامه، وكان لا يجرؤ أحد قبله عل ذلك. فقد قال للنبى: "يا رسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل؟". فأجابه رسول الله "إنا قليل وقد رأيت ما لقينا"

فقا ل عمر: "والذى بعثك بالحق لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان، فلقبه النبىﷺ بالفاروق من ذلك اليوم، ومعناه الذى يفرق بين الحق والباطل. فلم يزل عمر يجهر بالإسلام ولا يتعرض له أحد، حتى أمر الرسول بالهجرة. فهاجر جميع الصحابة مستخفين، إلا هو فلم يتصد له أحد

كان عمر أحد عباقرة الحكم

قرر علماء النفس أن العبقرية لا تقتصر على العلوم والفنون والحروب، ولكنها قد تكون فى الحكم أيضاً. ولسنا نشك فى أن عمر كان عبقرياً فيه، لما أظهر فى خلافته من الحكمة الفذة، والاتزان المعجز فى ملتطم حوادث تدع الحليم حائراً

لم تكن الأداة الحكومية فى القرن السابع الميلاد على شئ من التركب الألى بحيث لا تتأثر مجريات الشؤون الاجتماعية بوفاة عاهل وقيام آخر مقامه، إذ كانت الحكومات كلها من الضرب الاستبدادى الذى ترجع فيه الأمور إلى نفسية القائم بالأمر

والحكم فى الإسلام وإن كان حاصلاً على جميع الأصول التى تسمح بإقامة أداة محكمة للحكم يكون من عملها تمثيل الأمة فى مجلس نيابى أو مجلسين، وتقسيم السلطات على هيئات خاصة بها، وضمان استقلال كل منها، فإن الحوادث لا يمكن أن تسبق أزمتها، فكان الحكم فى الإسلام موكولاً لمن تراه الأمة أهلاً لإقامة تلك الأصول اجتهاداً من تلقاء نفسه، وقد دلت الحوادث على أن عمر قد حقق الظن فيه، وبلغ من إقامة الأصول الإسلامية مبلغاً رفعه إلى درجة العبقرية

ليس من السهل فى دور الشكل الاستبدادى للحكومات أن يقيم القائم بالأمر جميع المثل العيا للتعاليم التى يصدر عنها تمثيلاً صحيحاً مهما حرص على ذلك إلا إذا كان من الملهمين، لأنه كيف يتسنى لعقل عادى يعيش صاحبه فى أوائل عهد القرون الوسطى المظلمة أن يفهم أصول مثالية ام نفهمها نحن الاتحت ضوء العلوم الحديثة، ولم ندرك مراميها البعيدة إلا بعد ظهورها للعيان عقب انقلابات عالمية خطيرة؟

نعم إن كلمات حق وعدل ومساواة وأمثالها كانت تعرف مدلولاتها منذ القدم، ولكنها كانت مدلولات تنقص أهم مؤدياتها المطلقة، حتى إن واضع الديمقراطية أرسطو أمير الفلسفة لم يدرك مؤداها المطلق، فقرر فى بحوثه السياسية حرمان الأرقاء والعمال من حقوقهم المدنية، الأولين باعتبار أن نفوسهم منحطة عن نفوس الأحرار، والأخرين لاشتغالهم بالمهن اليدوية. فشتان كما ترى بين ديموقراطية أمس وديمقراطية اليوم! وقس على ذلك الكلمات الضخمة التى كان يلوكها الأقدمون بألسنتهم ولا يدركونها إلا مقيدة لا مطلقة

كيف فهم عمر الأصول الإسلامية مطلقة؟

إن نبوغ رجل كعمر فى بيئة بعيدة عن العلم والفلسفة، وادراكه المثل الإسلامية العليا مطلقة كما أرادها الشارع، وفوق ما كان منها فلاسفة النفس وعلماء الاجتماع على عهده وبعد عهده بأجيال، أمر يستوقف النظر ويدعو إلى الحيرة، ولا مخرج منه إلا بتعليل ذلك بالعبقرية

كل ما فى الإسلام من التعاليم الاجتماعية ترجع إلى أمور كلية معدودة: كإقامة الحق، ومراعاة المساواة بين الحق، والحكم بالعدل، واحترام حرية الناس فى القول والعمل، واللجوء إلى الشورى فى الأمور الجامعة، فكان عمر مثلاً أعلى فى تطبيق هذه الأصول الكلية، وله فى كل منها مواقف وكلمات نابغة، بقيت أعلاماً منصوبة لها إلى اليوم

فمن أمثلة اعترافه بسلطان الأمة عليه وخضوعه لرقابتها قوله من خطبة: "إذا رأيتم فىّ اعوجاجاً فقوموه". فقام إليه الرجل وقال: "والله يا عمر لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا" فلو كان عمر اكتفى بسماع هذه الكلمة، وأغضى عن مؤاخذة قائلها، لعد ذلك له منقبة يتناقلها الناس ويتخذونها دليلاً على وفور عقله وسعة حلمه، ولكنه أجابه بقوله: "الحمد لله الذى جعل فى هذه الأمة من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه"

هذه الإجابة لها مغزى اجتماعى خطير الشأن، هو تبريره الثورة لتقويم العوج، وهذا التبرير من ملك عظيم يعد غاية فى احترام الأوضاع المقررة والسنن المعتبرة، لو فاز بمثلها شعب من الشعوب المستميتة فى إقامة سلطان الأمة على لسان ملك عظيم من جنسها لأقامت له نصباً فى أكبر ميادينها، ولبنت له صرحاً من الثناء الخالد على الدهر

التسليم برقابة الأمة يقتضى الديموقراطية، فهل كان عمر ديموقراطياً بالمعنى المطلق الذى كان يفهمه خطباء الثورة الفرنسية؟. نعم، وإليك الأدلة:

قال كعب الأحبار: " نزلت على رجل يقال له مالك، وكان جاراً لعمر بن الخطاب، فقلت له كيف بالدخول على أمير المؤمنين؟ فقال ليس عليه باب ولا حجاب، يصلى الصلاة ثم يقعد فيكلم الناس" وعن الحسن البصرى قال: "كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام فى شئ، فقال له الرجل اتق الله. فقال رجل من القوم أتقول لأمير المؤمنين اتق الله؟ فقال عمر: " دعه فليقلها لى. نعم ما قال! لا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها"

تأمل فى قوله: "لا خير فيكم إذا لم تقولوها" إنها والله لكلمة من أنبغ الكلمات الاجتماعية، وهى كما تدل على مبلغ احترامه للمعارضة، وقبوله للتقويم، وهما ركنا الحياة السياسية، تدل أيضاً على تجريده الأمة التى تتهيبها من الخير. وقوله: " لا خير فينا إذا لم نقبلها" تقرير لأن الحكومة التى لا تسمح بوجود المعارضة تتجرد من الخير أيضاً

مثل عليا فى الديموقراطية

أبلغ من كل ما مر فى الأدلة على فهم عمر للديموقراطية الصحيحة، ما روى أنه لما سافر إلى الشام ليتفق مع أهل بيت المقدس على تسلمه المدينة، كما شرطوا ذلك، قصدها على بعير كان يتعاقب عليه هو وسائسه فى الطريق، فلما شارفوا المدينة كان الدور فى الركوب للسائس وأمير المؤمنين آخذ بمقود البعير.

فقال له خادمه: لو نزلت أنا وركبت أنت حتى لا تقابل الناس على هذه الحال، فلم يجبه إلى طلبه، وقدم على مستقبليه يقود البعير لخادمه، فكانت مفاجأة محيرة، ولكنهم لا ينبسوا بكلام لعلمهم من هو عمر وما هى ديموقراطيته. ولما أقبل سفراء بيت المقدس لمقابلته سألوا: أين هو؟ فأشاروا لهم إليه وكان نائماً على الأرض فى ظل شجرة، فهالهم ما رأوا وأبوا أن يتفقوا مع من هذه حالته، استنكاراً لها، حتى يستشيروا كبراءهم. فعادوا وقصوا عليهم ما رأوا، فقال له بطريقتهم: ارجعوا ادراجكم، أنه طلبتنا، وهذه حليته فى كتبنا

ولما كان فى بعض انتقالاته هنالك عرضت له مخاضة، فنزل عن بعيره وخلع نعليه وأمسكهما بيده وخاض الماء ومعه بعيره، فقال له أبو عبيدة كبير قواده: يا أمير المؤمنين صنعا عظيماً عند أهل الأرض. فصك عمر فى صدره وقال: "أواه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة! انكم كنتم أذل الناس، وأقل الناس، فأعزكم الله بالإسلام، فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله"

وأعظم مما مر وأحفله بالمعانى التى لا يدركها إلا الآحاد، ما رواه الفضل بن عميرة، أن الأحنف ابن قيس قدم على عمر بن الخطاب فى وفد من العراق، قدموا عليه فى يوم صائف

شديد الحر، وهو محتجز بعباءة (أى ملتف بها) يهنأ بعيرا من ابل الصدقة (أى يدهنه بالهناء وهو القطران) فقال يا أحنف دع ثيابك وهلم فأعن أمير المؤمنين فى هذا البعير فإنه من إبل الصدقة فيه حق اليتيم والأرملة والمسكين. (الأحنف هذا سيد بنى حنيفة وهو الذى قيل فيه إذا غضب غضب معه مائة ألف سيف لا يسألونه فيم غضب)

فقال رجل: يغفر الله لك يا أمير المؤمنين، فهلا أمرت عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا؟ فالتفت إليه عمر وقال: "وأى عبد هو أعبد منى ومن الأحنف هذا؟ إنه من ولى أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين، يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده من النصيحة وأداء الأمانة"

نقول ليس هذا من سقوط الهمة ولكنها الديموقراطية يضع عمر بيديه أركانها، ويقيم بقدوته بنيانها. وإذا كان للعظمة معنى يرى بالعين، فهو ما رآه الناس من أمثال هذه فى سيرة عمر. عظمة عبر عنها الأستاذان (أمن وكوتان) الفرنسيان فى تاريخهما العام بقولهما: "إن هذا العاهل الذى كانت ثيابه مرقعة كانت ترتعد فرائص الملوك عند ذكر اسمه"

الديموقراطية تساوى بين السادة والعبيد

من أمثلة المساواة التى كان عمر يقيم حكمه عليها ما رواه الحسن البصرى قال: "حضر باب عمر سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام وأبو سفيان بن حرب فى نفر من قريش من تلك الرءوس، وصهيب وبلال من تلك الموالى (أى الذين كانوا عبيداً) ممن شهدوا بدراً. فخرج إذن عمر لهم وترك أولئك. فقال أبو سفيان وكان من سادات قريش: لم أر كاليوم قط، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت إلينا؟ فقال سهيل بن عمرو وكان رجلاً عاقلاً-: أيها القوم إنى والله أرى الذى فى وجوهكم. إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم، دعى القوم ودعيتم (يريد دعوا إلى الإسلام)، فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم؟"

ولما طلب الناس إلى عمر، وهو يجود بنفسه، ان يستخلف عليهم. أجابهم: "والله لو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً ما جعلتها شورى" أى لاستخلفته عليكم. وسالم هذا كان رقيقاً مملوكا

وخطب الفاروق يوماً فقال:" أيها الناس إنى والله ما أرسل عمالاً إليكم (أى ولاة) ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم، ويقضوا بينكم بالحق، ويحكموا بينكم بالعدل، فمن فعل به شئ سوى ذلك فليرفعه إلىّ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه"

فوقف عمرو بن العاص وقال: "يا أمير المؤمنين أرايت إن كان رجل من أمراء المسلمين أدب بعض رعيته أإنك لتقصنه منه؟". فقال عمر: "إى والذى نفس عمر بيده أنى لأقصنه

منه، وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه؟ "

العدل المطلق لا ينافى النظام

من أمثلة حرص عمر على حفظ النظام ما رواه أبو ساعدة الهذلى قال: "رأيت عمر بن الخطاب يضرب التجار بدرة إذا اجتمعوا على الطعام بالسوق (أى يضرب باعة الأطعمة إذا تكدسوا بالسوق) حتى يدخلوا سكك أسلم (هو حى بالمدينة)، ويقول لا تقطعوا علينا سابلتنا"

أليس هذا بعينه ما تكلف به الشرطة من تنظيم حركة المرور فى الشوارع الكبرى؟

وقال المسيب بن دارم: "رأيت عمر بن الخطاب يضرب جمالاً وهو يقول: حملت جملك ما لا يطيق"

فمن لى بمن يبلغ جماعات الرفق بالحيوانات أن عمر بن الخطاب سبقهم إلى سن هذا النظام أكثر من ثلاثة عشر قرناً وباشره بنفسه؟

وقال الأحنف بن قيس: "وفدنا على عمر بفتح عظيم. فقال أين نزلتم؟ فقلت فى مكان كذا. فقام معنا حتى انتهينا إلى مناخ رواحلنا، فجعل يتخللها ببصره ويقول: ألا أتقيتم الله فى ركابكم هذه؟ أما علمتم أن لها عليكم حقاً؟ الا خليتم عنها فأكلت من نبت الأرض؟"

وبعد فإن هذه السيرة التى تتجلى فيها المثل العليا للحكم فى غاية أبهتها، وتطبق إلى أقصى حدودها، لا تتأتى إلا إذا كن القائم بها عبقرياً

نعم إن عمر لم يفعل غير أن نفذ الأصول التى دونت فى الكتاب والسُنة، ولكن تنفيذها على النحو الباهر لا يتأتى إلا من طريق العبقرية، فهى وحدها التى تلهم صاحبها التوفيق فى كل ما يعرض له من الشئون، وللشئون الاجتماعية مازم ومازق لا يغنى فيها مجرد التشدد فى تطبيق حرفية المثل العليا، ولكن لا بد فيها من تصرف وجدانى يضع الأمور مواضعها، وهنا مجال فسيح العبقرية. وإلا فام قرر علماء النفس وجود عبقرية للحكم؟ أليست أصول الأحكام القومية مقررة مرسومة؟ نعم، ولكن تطبيقها على الحوادث، ، وتحويل المجريات إلى سبيلها القيم واستغلال الظروف لمصلحة الجماعة دون الاخلال بسلطان تلك الأصول، والاستفادة من مرونتها فى حدودها المقررة، وتعيين مواضع هذه الرخصة وأوقاتها، كل هذه مجالات تتفاضل فيها النفوس.

عمر بن الخطاب

القدوة الحسنة

" الناس على دين ملوكهم" تلك حقيقة أزلية أثبتها التاريخ وما يزال. وعمر لم يكن مجرد ملك، بل كان خليفة للنبى فى شئون الدين والدنيا، ومن هنا كانت مسئوليته مضاعفة. وكان عليه أن يعلم الناس بأعماله قبل أن يعلمهم بأقواله، وقد أدرك هو هذه الحقيقة

وعبر عنها بقوله: "الرعية مؤدية إلى الإمام ما أدى الإمام إلى الله، فإن رتع الإمام رتعوا!" وقد يكون إدراك الحقائق يسيرا، ولكن تقمصها فى الحياة ليس سهلاً دائماً. وكما كان سهلاً على عمر أن يدرك تلك الحقيقة، فإنه نجح فى أن يتقمصها، وأن يضرب للبشرية مثلاً بنفسه وبمن يلوذون به، لا يجود التاريخ بمثله مرة أخرى، وإذا قال قائل إن عمر كان حوارياً للرسول ﷺ ، ومن ثم فإنه من اليسير عليه أن يكون ما كان، فإنا نحيله إلى الخليفة الثالث مباشرة، ولم يكن يقل عن عمر فى صلته بالرسول عليه السلام، ومع ذلك فإن التاريخ يروى أن أحد ولاة عثمان أحضر له بعض المستحق لبيت المال، فدخل أحد أبنائه وأخذ منه شيئاً وانصرف، فلم يثر ذلك فى نفس عثمان شيئاً، فبكى الوالى. ولما سأله عثمان عن سبب بكائه، قال له: لقد أحضرت مثل هذا المال لعمر، وأخذ أحد أطفاله منه درهماً، فانتزعه من بين يديه والطفل يبكى. فإذا بعثمان يقول: "إن عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله، وإنى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله! ولن تلقى مثل عمر! ولن تلقى مثل عمر، ولن تلقى مثل عمر! "

وقيل لعثمان: ألا تكون مثل عمر؟! قال لا أستطيع أن أكون مثل لقمان الحكيم. وربما كان عجز عثمان عن شغل المكان الذى شغر بوفاة عمر، سبباً فى افتتاح باب الفتنة على مصراعيه. وربما لو أن الأمر آل إلى الإمام على مباشرة، لتغير وجه التاريخ؛ فهو وحده الذى كانت صفاته الجسمية والخلقية، تؤهله لأن يتابع قدوة عمر فى التقشف والزهد، والتزام حكم الشريعة على إطلاقة[1]. ولكن نفذ قضاء الله، واندلعت الفتنة الكبرى التى كان عمر سداً منيعاً ضدها فى حياته.

نريد أن نقول إن ما فعله عمر فى مجال القدوة، كان إعجازاً عمرياً غير قابل للتكرار.

وفيما يلى نعرض الخطوط العامة لهذه القدوة، سواء فى حياة عمر الخاصة، أو العامة، وبعض ما حققته هذه القدوة من نتائج.

---

(1) تذكر بعض الروايات أن عمر بن الخطاب، وهو فى سبيل اختيار من يخلفه بعد طعنه - قال: لو ولوها هذا الأجلح - يريد على بن أبى طالب كرم الله وجهه - لسلك بهم الطريق. فقال له ابنه عبد الله، فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تعهد إليه؟! قال أكره أن أحملها حياً وميتاً. وينفى بعضهم هذه الرواية، ويرى أنها وضعت من بعد ذلك لأغراض سياسية.

ونقصد بذلك، اسلوبه فى الحياة، من حيث المأكل، والملبس، والمركب... الخ. وفى هذا المجال تفيض كتب التاريخ بأمور قد يعدها البعض اليوم من قبيل المبالغة. ولكن من تمعن فى حياة عمر، يجد أنها أمر طبيعى، وأن عمر قد وضع لنفسه خطاً معيناً لا يتجاوزه، وهو أن يحيا حياة عامة المسلمين، بل دون ذلك فى كثير من الحالات. وحجته فى ذلك قاطعة لا سبيل إلى الرد عليه، عبر عنها بنفسه عام الرمادة، حين أخذ نفسه بأن يحيا كما يحيا رعاياه فى ذلك العام الجدب. قال: "كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يصيبنى ما أصابهم؟! " ويقيناً أن هذه الحقيقة التى عبر عنها عمر ببساطة، هى مفتاح الحكم الصالح فى كل عصر وزمان. فيوم يحس الحاكم بإحساس شعبه، فسوف يستقيم الحكم، وينصلح حال الرعية. ويوم ينفصل الحاكم عن شعبه، وتكون له حياته الخاصة المرهفة، فحينئذ ينفتح باب الفساد، ويتحقق قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ {الإسراء/١٦} وهذا يؤكد مرة أخرى أن تقشف عمر لم يكن مجرد عبادة وفقاً للظاهر من قوله كما سنرى بعد قليل- ولكنه كان تعليماً للرعية من ناحية، ووسيلة للإحساس بمشاكلها من ناحية أخرى.

١- **طعام عمر:** تجمع كتب السير، على أن طعام عمر منذ ولى الخلافة- كان أبعد ما يكون عن الطعام الشهى، الذى يغرى الآكلين. ولهذا فليس بغريب أن زائريه لم يكونوا يرحبون بالأكل من طعامه، على عكس المألوف من موائد الحكام. ومما يروى فى هذا الخصوص، أن حفص بن أبى العاص، كان يحضر طعام عمر، ولا يشاركه فيه. فقال له عمر ذات يوم: ما يمنعك من طعامنا؟! فرد ابن أبى العاص: إن طعامك جشب غليظ، وإنى راجع إلى طعام لين، قد صنع لى، فأصيب منه. فرد عمر مغضباً "أترانى أعجز أن آمر بصغار المعزى فيلقى عنها شعرها، وآمر بلباب البر ثم آمر به فيخبز خبزاً رقاقاً، وآمر بصاع من زبيب فيقذف فى سعن (قربة) حتى إذا صار مثل عين الحجل صب عليه الماء، فيصبح كأنه دم الغزال فآكل هذا وأشرب هذا؟! فقال ابن أبى العاص: إنى لأراك عالماً بطيب العيش، فقال عمر: والذى نفسى بيده، لولا أن تنتقص حسناتى لشاركتكم فى لين عيشكم. لكنى أستبقى طيباتى، لأنى سمعت الله تعالى يقول عن أقوام ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ {الأحقاف/٢٠}

ومن المشهور أيضاً أن أبا موسى الأشعرى قدم على عمر فى وفد البصرة، وقال: كنا ندخل على عمر كل يوم، وله خبز ثلاث، فربما وافقناها مأدومة بزيت، وربما وافقناها بسمن، وربما وافقناها باللبن، وربما وافقناها بالقدائد (أى اللحوم المجففة) اليابسة، قد دقت ثم

أغلى بها، وربما وافقنا اللحم الغريض (الطرى) وهو قليل.

وقال لهم عمر يوماً: " أيها القوم! إنى والله لقد أرى تعذيركم وكراهيتكم طعامى. وإنى والله لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً، وأرفهكم عيشاً! أما والله لو شئت لدعوت بصلاء (شواء) وصناب (خردل) وصلائق (خبز رقاق) وكراكر وأسنمة وأفلاذ (من أطايب لحم البعير) ولكنى سمعت الله جل ثناؤه غير قوماً بأمر فعلوه فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾{الأحقاف/٢٠}

وكثيراً ما كان يقول: "النحن أعلم بطيب الطعام من كثير من آكليه، ولكنا ندعه ليوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها". والذى نعلمه من حياة عمر الأولى فى صدر شبابه، وقبل إسلامه، يؤيد ما يقول: فلقد كان صاحب خمر، يشرب بالكبير؛ وكان صاحب نساء. ومن توافرت فيه هاتان الصفتان، فحرى به أن يعرف أطيب الطعام.

ولقد التزم عمر فى الطعام مبدأ أخذ به نفسه وأسرته، أنه لا يجمع بين إدامين. ومما يروى فى هذا الصدد: أنه دخل على بنته حفصة زوج الرسول- فقدمت إليه مرقاً بارداً وصبت عليه زيتاً، فقال: أدمان فى إناء واحد؟! لا آكله حتى ألقى الله عز وجل.

وأحضر له لحم سمين ولبن، فأبى أن يأكلهما، وقال، كل واحد منهما أدام.

وذهب يتناول الطعام عند ابنه عبد الله،وبعد لقيمات قال إنى لأجد طعم دسم غير دسم اللحم: فقال عبد الله: يا أمير المؤمنين، إنى خرجت إلى السوق أطلب السمين لأشتريه، فوجدته غالياً، فاشتريت بدرهم من المهزول، وجعلت عليه بدرهم سمناً. فقال عمر؟ ما اجتمعنا عند رسول الله، إلا أكل أحدهما وتصدق بالآخر. فقال عبد الله، يا أمير المؤمنين، ولن يجتمعا عندى أبداً إلا فعلت ذلك!

وإذا كان مسلك عمر السابق يمكن تفسيره بتأسيه برسول الله وبصاحبه أبى بكر(1)، فإن المبدأ الذى أخذ به يؤكد المعنى الذى أبرزناه، وهو مضمون القدوة؛ ونعنى به أنه حرم على نفسه كل طعام لا يسع المسلمين: ومما يروى فى ذلك:

لما قدم عتبة بن فرقد أذربيجان، أكل الخبيص، وهو نوع من الحلوى تصنع من التمر والسمن أو مايشبهه. فلما وجدوه حلواً صنع منه سفطين عظيمين وأرسلهما إلى الخليفة عمر

---

(1) يروى أنه جئ لعمر بإناء فيه لحم غير طرى تعب عمر فى تناوله. فقال له الأشعث بن قيس: يا أمير المؤمنين لو أمرت بشئ من سمن فصب على هذا اللحم ثم طبخ حتى ينضج، كان ألين. فرفع عمر رأسه، وضرب صدر الأشعث بن قيس ثم قال: أدمان فى أدام؟! كلا! إنى لقيت صاحبى وصحبتهما. فأخاف إن خالفتهما أن يخالف ربى عنهما، ولا أنزل معهما حيث ينزلان.

ابن الخطاب فى المدينة، فلما تذوقه عمر، سأل الرسول: أكل المسلمين يشبعون من هذا فى رحالهم؟! قال الرسول لا. فقال عمر: أما لا، فأرددهما! وكتب إلى عتبة "أما بعد، فإنه ليس من كدك، ولا كد أمك، أشبع المسلمين مما تشبع منه فى رحلك!!".

وحضر عتبة بن فرقد طعاماً لعمر، فإذا هو طعام خشن لا يستطيع أن يستسيغه، فقال يا امير المؤمنين، هل لك فى طعام يقال له الحوارى (يصنع من لباب الدقيق) فقال عمر. ويلك، ويسع المسلمين كلهم؟!

قال لا والله. قال ويلك يا عتبة، أفأردت أن آكل طيباتى فى حياتى الدنيا وأستمتع بها!!

وقدم الشام فصنع له طعام لم ير قبله مثله، فقال: هذا لنا، فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير!! قال خالد بن الوليد: لهم الجنة. فاغرورقت عينا عمر، وقال، لئن كان حظنا فى هذا الطعام وذهبوا بالجنة، فلقد باينونا بونا بعيدا!!

ولهذا كان عمر لا يرفض طعاما يقدم إليه، فقد كان يأكل التمر بحشفه (بما فيه من تمر ردئ)، وكثيراً ما كان التمر والماء يمثل وجبة كاملة عنده، يمسح بعدها على بطنه ثم يقول: "ويح لمن أدخله بطنه النار" وكان ينصح المسلمين بالابتعاد عن الإكثار من الطعام حيث يقول: "إياكم والبطنة، فإنها مكسلة عن الصلاة، مفسدة للجسم، مورثة للسقم". وينصح بالإقلال من اللحم. فقد دخل على ابنه عاصم، وهو يأكل لحماً فقال ما هذا!! قال قرمنا إليه! قال ويحك، قرمت إلى شئ فأكلته، كفى بالمرء شرهاً أن يأكل كل مايشتهى! [1] ولهذا لم يقبل عمر بن الخطاب من عمرو بن معدى كرب أن يصف قوماً بالبخل، لأنهم أطعموه وهو ضيف بعض اللبن، وبقية من تمر، وقليلاً من السمن، وقال له: "إن فى ذلك لشبعاً!".

وربما اشتهى عمر طعاماً، ثم حرم نفسه منه لسبب أو لآخر، كما فى القصة التالية: اشتهى عمر ذات يوم سمكاً طرياً، فأخذ يرفأ (مولاه) ناقة فسافر ليلتين مقبلاً وليلتين مدبراً حتى أحضر السمك. وعند وصوله إلى المدينة طفق يغسل الراحلة من العرق فنظرها عمر فقال: عذبت بهيمة من البهائم فى شهوة عمر، والله لا يذوق عمر ذلك!

٢ـ لباس عمر: لم يكن لباس عمر بأحسن حالاً من طعامه، فلعله أول رئيس دولة عظمى فى التاريخ يلبس المرقعات، ويحتجب عن الناس لأن قميصه يرقع أو يُغسل! والمتواتر فى ذلك أكثر من أن يحصى، ومن أشهره:

---

(١) وشبيه بهذا ما روى من أن عمر بن الخطاب قابل جابر بن عبد الله، وقد اشترى لحماً فى يده. فقال له ماهذا يا جابر؟! قال اشتهيت لحماً فاشتريته. فقال عمر: أو كلما اشتهيت اشتريت يا جابر!!

قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: رأيت لعمر بن الخطاب إزاراً فيه إحدى وعشرون رقعة من أدم (أى جلد) ورقعة من ثيابنا!

- وقال أنس: رأيت فى قميص عمر أربع رقاع بين كتفيه.

- وقال أبو عثمان النهدى: رأيت عمر يرمى الجمرة وعليه إزاراً مرقوع بقطعة جراب.

- وأبطأ عمر بن الخطاب جمعة فى الصلاة فخرج، فلما صعد المنبر، اعتذر للناس، فقال: إنما حبسنى قميصى هذا، لم يكن لى قميص غيره!

- ومر عمر بن الخطا ب بدهقان إحدى القرى، فألقى إليه قميصه فقال: اغسل هذا. قال الدهقان: إلبس هذا فإنه أجمل وألين: قال عمر: أمن مالك؟ قال بلى، قال هل خالطه شئ من الذمة؟ قا ل لا إلا الخياطة. قال اغرب، هلم إلى قميصى، فلبسه و إنه لم يجف!

- وعن عبد الله بن عباس قال: خرجت أريد عمر بن الخطاب، فلقيته راكباً حماراً وقد ارتسنه بحبل أسود، وفى رجليه نعلان مخصوفتان، وعليه إزار وقميص صغير، وقد انكشف منه رجلاه إلى ركبتيه، فمشيت إلى جواره، وجعلت أجذب الإزار وأسويه عليه، كلما سترت جانباً انكشف جانب، فيضحك ويقول: إنه لا يطيعك، حتى جئنا العالية فصلينا، ثم قدم بعض القوم إلينا طعاماً من خبز ولحم. فإذا عمر صائم، فجعل يقدم إلى طيب اللحم ويقول: كل لى ولك! ثم دخلنا حائطاً فألقى إلى رداءه وقال أكفنيه، وألقى قميصه بين يديه وجعل يغسله وأنا أغسل رداءه، ثم جففناه وصلينا العصر ومشينا!

- وروى أنه ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ إلا وقد لبس الخز (الحرير) ما خلا عمر وعبد الله بن عمر!

وسواء تعلق الأمر بالطعام أو اللباس، فإن عمر يعلم يقيناً أن الإسلام لا يتطلب هذه القسوة، لا على النفس أو على الغير، وهو يقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾{الأعراف/٣٢} القدوة من ناحية، والزهد والتقشف من ناحية أخرى. ولهذا فإن عمر نفسه لم يفرض على الولاة أسلوبه فى الحياة. وكل ما طالبهم به القصد والاعتدال. فلقد وفد إليه عامله من اليمن وعليه حلة فاخرة، وهو مرجل دهين. فقال له: أهكذا بعثناك؟! فأمر بالحلة فنزعت، وألبس جبة صوف، ثم سأل عن ولايته، فلم يذكر إلا خير، فرده على عمله. ثم وفد إليه بعد ذلك، فإذا بالعامل أشعث مغبر، عليه أطلاس. فقال عمر: لا، ولا كل هذا! إن عاملنا ليس بالشعث ولا العافى، كلوا واشربوا وادهنوا، إنكم ستعلمون الذى أكره من أمركم.

وكتب إليه أبو عبيدة أنه لا يريد الإقامة بأنطاكية لطيب هوائها، ووفرة خيراتها مخافة أن يخلد الجند إلى الراحة، فلا ينتفع بهم بعدها فى قتال. فأنكر عليه عمر ذلك وأجابه "أن الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات؛ فقد قال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ {الأعراف/١٦٠}. وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم، وتدعهم يرغدون فى مطعمهم ويريحون الأبدان النصبة فى قتال من كفر بالله". وحدث حذيفة بن اليمان. أن أقبل على الناس وبين أيديهم القصاع، فدعاه عمر إلى الطعام وعنده خبز غليظ وزيت. فقال حذيفة: أمنعتنى أن آكل الخبز واللحم، ودعوتنى على هذا؟! قال عمر، إنما دعوتك على طعامى. أما ذاك فطعام المسلمين!

بل إن عمال عمررفضوا أن يعاملوا معاملة عمر لنفسه! ولعل هذا آية العجب لو وزن بمقاييس العصر الحاضر، من حيث الموازنة بين رؤساء الدول وباقى موظيفها. فقد قدم أبو موسى الأشعرى فى وفد البصرة على عمر، فقال أبو موسى: لو كلمتم أمير المؤمنين يفرض لنا من بيت المال أرزاقنا. فلما كلموه، قال لهم عمر: يا معشر الأمراء! أما ترضون لأنفسكم ما أرضاه لنفسى! قالوا يا أمير المؤمنين إن المدينة أرض العيش بها شديد، ولا نرى طعامك يغشى ولا يؤكل. وإنا بأرض ذات ريف. وإن أميرنا يغشى وإن طعامه يؤكل. فنكت فى الأرض ساعة ثم رفع رأسه فقال: نعم، فإنى قد فرضت لكم كل يوم من بيت المال شاتين وجريبين (مكيال) فإذا كان بالغداة فضع إحدى الشاتين على أحد الجريبين فكل أنت وأصحابك، ثم ادع بشرابك فاشرب ثم اسق الذى على يمينك ثم الذى يليه؟ ثم قم لحاجتك. فإذا كان بالعشى، فضع الشاة الغابرة على الجريب الغابر، فكل أنت وأصحابك، ثم ادع بشرابك فاشرب. ألا وأشبعوا الناس فى بيوتهم، وأطعموا عيالهم، فإن تحفينكم للناس لا يحسن أخلاقهم، ولا يشبع جائعهم! وواضح تماماً أن هذا النوع من الطعام، يختلف عما أخذ عمر به نفسه، وهو الخبز والزيت فى معظم الحالات[1].

إن أخشى ما كان يخشاه عمر وقد أثبتت الأحداث فراسته فيما بعد- أن تخرج النعمة الوافدة، العربى عن طبعه الأصيل، فينسى فى غمار اللذة، الهدف الكبير، والرسالة السماية

---

(١) فى هذا المعنى يقول الأستاذ عباس محمود العقاد، فى مؤلفه السابق "للمسلمين حل ما شاءوا من الطعام، أما الرجل الذى ينفق من بيت المال فله ما يكفيه، والحرج كل الحرج عليه -وهو فى عدل عمر وحزمه وجلده- أن يأخذ منه ما لا حاجة به إليه، وإنه ليزداد حرجا على ما فيه من قناعة أن يكون من أصحاب رسول الله، ويعلم كيف كان رسول الله يأكل فى بيته، وماذا كان يجد من الملبس له ولأهله، ثم يصيب من هذا أو ذاك، خيراً مما أصاب الرسول والولاة عنده مثل ما للمسلمين عامة من حق المتعة السائغة والنعمة التى ترضاها الرجولة، لا يأخذهم بمحاكاته لأنهم يتولون الأمر كما تولاه، بل ربما لامهم على التقتير كما كان يلومهم على الإسراف".

الخالدة التى حمل بها هذا الشعب. ومن هنا كان نفور عمر من انكباب ولاته على الترف الدنيوى. لأنهم بدورهم قدوة المسلمين كل فى ناحيته. نجد هذا المعنى واضحاً فى القصة التالية التى رواها الأحنف بن قيس حيث يقول: أخرجنا عمر فى سرية إلى العراق وبلاد فارس، فأصبنا من بياض فارس وخراسان، فحملنا معنا واكتسينا. فلما قدمنا على عمر، أعرض عنا بوجهه وجعل لا يكلمنا. فاشتد ذلك علينا فشكونا ذلك إلى ولده عبد الله فقال: لقد راى عليكم لباساً لم يلبسه رسول الله ﷺ ولا الخليفة من بعده. فأتينا منازلنا، فنزعنا ما كان علينا وأتيناه فى البزة (الهيئة) التى يعهدها منا. فقام فسلم علينا، على رجل رجل، واعتنق رجلاً رجلاً حتى كأنه لم يرنا، فقدمنا إليه الغنائم فقسمها بيننا بالسوية، فعرض فى الغنائم شئ من أنواع الخبيص، فذاقه، فوجده طيب الطعم والريح. فقال: يا معشر المهاجرين والأنصار، ليقتلن منكم الابن أباه، والأخ أخاه على هذا الطعام! ثم أمر به فحمل إلى أولاد من قتل من المسلمين، ولم يأخذ لنفسه شيئاً!

ومثلها أيضاً أن عمر استحضر عامله زياد بن عبد الله، فجاء وعليه ثياب من كتان، وخفان ساذجان (من نوع فاخر) وكان فى يد الخليفة مخصرة على رأسها حديد، فغمزها فى خفى زياد حتى آذى رجليه. فلما كان من الغد رجع إليه زياد فى خفين غليظتين، وعليه ثوبان من قطن. فلما رآه عمر، هش له، وقال: هكذا يا زياد هكذا يا زياد!

لقد أدرك عمر أن الله حين حمل العرب رسالة الإسلام، وفرض عليهم الجهاد، قد حولهم إلى جنود. والجندى لا يصلح له الترف، بل إن الترف يفسده، ويعين عليه عدوه. ولقد صدق عمر، ففى عهده اندفعت الجيوش الإسلامية كالإعصار الكاسح، لم يقف فى طريقها شئ إلا دمرته. حتى إذا أخلد المسلمون إلى الترف، وقلدوا غيرهم من الأمم، لم تقف لهم قائمة، وهزموا فى مشارق الأرض ومغاربها.

٢- **مركب عمر:** كان عمر يركب المألوف من الدواب عند العرب، وأشهرها الخيل والجمال، وهو لم يتخذ شيئاً مما يختص به الحكام أو رؤساء الدول من وسائل الركوب المميزة. بل إنه لم يجد حرجاً أن يركب مع غلام حماره فى يوم حار، فقد خرج الخليفة فى يوم قائظ، واضعاً رداءه على رأسه، فمر به غلام على حمار. فقال له احملنى معك. وأراد الغلام أن يترك الحمار للخليفة إكباراً له، ولكنه أبى وركب خلف الغلام، ودخلا المدينة والناس ينظرون.

ولقد سببت هذه البساطة حرجاً لولاته بالشام، حين ذهب إليها فى شئون الدولة، فقد قدم الجابية (موضع الشام) على جمل أورق، وهو حاسر الرأس، تلوح صلعته للشمس، ليس عليه قلنسوة أو عمامة، رجلاه بين شعبتى رحله بلا ركاب، وطاؤه كساء أنبجانى (نسبة إلى منبج)

ذو صوف هو ركابه إذا ركب، ووسادته إذا نزل؛ عليه قميص من كرابيس (أى قطن) مخطط، قد تخرق جنبه. فقال ادع لى رأس القرية. فلما جاء، طلب منه أن يغسلوا قميصه ويخيطوه، وأن يعيروه قميصاً أو ثوباً حتى يجف. فقيل لعمر، أنت ملك العرب وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل، وجئ له ببرذون، فطرح عليه قطيفته بلا سراج ولا رحل، وركبه فقال: احبسوا احبسوا! ما كنت أظن أن الناس يركبون الشياطين قبل هذا! وركب جمله ومضى[1].

وفى رواية أخرى أن الناس لما استقبلوه وهو على بعيره قالوا يا أمير المؤمنين، لو ركبت برذونا يلقاك عظماء الناس ووجوههم، فقال، لا أراكم ها هنا، إنما الأمر من ها هنا (وأشار بيده إلى السماء) خلوا سبيل جملى.

٤ـ **القدوة فى آل عمر:** وكما جعل من نفسه قدوة، فإنه جعل آله قدوة أيضاً، لأن الناس كما ينظرون إليه ينظرون إلى آله. ولقد كان بنو أمية فى خلافة عثمان سبباً فى اندلاع الفتنة الكبرى، لأنه الخليفة الطيب، وقد تقدمت به السن، لم يستطيع أن يكبح جماحهم، فاستأثروا بخيرات الدولة، مما أثار حفيظة المسلمين، ودفعهم إلى قتل عثمان ذى النورين، وهكذا يحمل كثير من الحكام الأبرياء، وزر أقربائهم الجشعين.

أما عمر، فكان أحصف وأقوى من أن تغيب عنه هذه الحقيقة. ولهذا فقد كان إذا نهى الناس عن شئ جمع أهله، ثم قال لهم: "إنى قد نهيت الناس عن كذا وكذا. وإن الناس ينظرون إليكم كما ينظر الطير إلى اللحم، فإن وقعتم وقعوا، وإن هبتم هابوا! وإنى والله لا أوتى برجل منكم وقع فيما نهيت الناس عنه إلا ضاعفت له العذاب لمكانه منى.. فمن شاء منكم فليتقدم، ومن شاء فليتأخر!! ".

القدوة فى حياة عمر العامة

ونعنى بها سلوكه كخليفة، ورئيس دولة، قد استودع السلطة العامة، وصار حفيظاً على أموال المسلمين، وهنا أيضاً نجد أن عمر قد جعل من نفسه، ومن آله، **قدوة حية على مدى العصور.**

وأول ما يعرض فى هذا المجال راتب عمر من بيت المال كرئيس دولة ونحن نعلم اليوم أن أكبر مرتبات تمنح للموظفين، هى مرتبات رؤساء الدول، بالإضافة إلى ما يلحق بها من بدلات ومزايا ظاهرة ومستترة؛ فما حظ عمر من ذلك؟!

لقد كان لعمر رأى فى هذا الأمر إبان خلافة أبى بكر، ذلك أن الخليفة الورع لم يخطر

---

(١) وفى رواية أخرى أن عمر لما ركب البرذون، صار هذا يتخلج به، وتصلصل جلاجله، فكره عمر ذلك منه، ونزل عنه، وضرب وجهه بردائه وقال: "قبح الله من علمك هذا من الخيلاء!!"

بباله حين خلف رسول الله، أنه سوف يؤجر على عمله، وظنها حسبة لوجه الله تعالى. ولكن مطالب الحياة له ولأسرته- اضطرته إلى ممارسة التجارة، فانشغل بذلك عن أمور المسلمين. فطلب إليه عمر التفرغ، على أن يؤجر على عمله من بيت مال المسلمين.

فلما آل الأمر إلى عمر، جمع الناس يستشيرهم فى مرتبه، وقال لهم: إنى كنت امرأ تاجرا، وقد شغلتمونى بأمركم هذا، فما ترون أنه يصلح لى من هذا المال؟! فقال عثمان، كُل وأطعم، وقال ذلك سعيد بن زيد، وأكثر القوم وعلى ساكت، فقال له عمر: وما تقول أنت فى ذلك؟ قال ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف، ليس لك من هذا الأمر غيره، فقال القوم: القول ما قال على بن أبى طالب.

وفى موضع آخر فصل عمر ما يستحله من بيت المال بقوله: "استحل منه حلتين: حلة للشتاء وحلة للصيف، وما يسعنى لحجى وعمرتى، وقوت أهلى"

وكان أيضا يقول: "إنى أنزلت نفسى من مال الله بمنزلة ولى اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، فإن أيسرت قضيت."

وكثيرا ما كان عطاء عمر من بيت المال لا يكفيه، وكان يحتال لمواجهة الموقف بأحد طريقين:

الأول: الاشتغال بالتجارة: فالثابت أن عمر كان يشتغل بالتجارة حتى بعد أن صار خليفة للمسلمين، ولا بد أن ذلك كان بالقدر الذى لا يشغله عن مهام الدولة. ولهذا فإنه كان يعامل الناس، ويستدين ويوفى، ويجهز العير إلى الشام فى التجارة. وقد أعوزه المال مرة فى هذا الخصوص، فأرسل يقترض من عبد الرحمن بن عوف وكان أكثر الناس ثراء- مبلغ أربعة الاف درهم؛ ولكن عبدالرحمن بن عوف، قال له خذها من بيت المال قرضاً. فقال عمر: فإن مت قبل أن تجئ العير، قلتم أخذها أمير المؤمنين، دعوها له، وأؤخذ يوم القيامة؟! لا! ولكنى أردت أن اخذها من رجل حريص شحيح مثلك، فإن مت أخذها من ميراثى.

الثانى: الاقتراض من بيت المال: فكان عمر إذا احتاج أتى صاحب بيت المال، فاستقرضه، فربما أعسر فيأتيه صاحب بيت المال يتقاضاه فيلزمه، فيحتال له عمر، وربما خرج عطاؤه فقضاه.

ويبدو أن عمر بن الخطاب لم يكن يلجأ إلى التجارة إلا بطريقة استثنائية، لا تشغله عن واجبات الدولة، وليس من شأنها أن تضعه موضع الشبهة. ودليل ذلك أنه لم يقبل من عماله الزيادة الكبيرة فى ثرواتهم بحجة أنهم اشتغلوا بالتجارة. وقد فعل ذلك مع الحارث بن وهب، وقال له "إنا والله ما بعثناك للتجارة، وصادر المال الزائد لصالح بيت المال".

وقال له "إنا والله ما بعثناك للتجارة، وصادر المال الزائد لصالح بيت المال".

وإن المرء ليعجب، أن يموت عمر مديناً، وتلك حاله في الزهد والتقشف، والبعد عن ترف الدنيا ونعيمها! وتروى كتب السير، أنه حين حضرته الوفاة، قال لابنه عبد الله: انظر ما على من الدين. فحسبوه، فوجدوه ستة وثمانين وألف درهم أو نحوه. قال عمر: إن وفى به مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فاسأل فيه بنى عدى (قبيلة عمر) فإن لم تف أموالهم فاسأل فيه قريشاً ولا تعدهم إلى غيرهم. قال عبد الرحمن بن عوف، ألا تستقرضها من بيت المال حتى تؤديها. فقال عمر: معاذ الله أن تقول أنت وأصحابك بعدى: أما نحن فقد تركنا نصيبنا لعمر، فتعزونى بذلك، فتتبعنى تبعته، وأقع فى أمر لا ينجينى إلا المخرج منه. ثم قال لعبد الله بن عمر: اضمنها. فضمنها، فلم يدفن عمر حتى أشهد بها ابن عمر على نفسه أهل الشورى وعدة من الأنصار، وما مضت جمعة، حتى حمل المال إلى عثمان بعد أن آلت إليه الخلافة.

على أن المسلمين كانوا إلى القدوة فى آل عمر، أحوج منهم إلى القدوة فى عمر ذاته، إذا لم يكن بهم حاجة إلى دليل ليتأكدوا من نزاهته المطلقة، وبعده عن الهوى، ولهذا فإن عمر ألزم آله بالخطة التى أخذ بها نفسه؛ بل إنه اتخذ الجانب الأحوط فى بعض الحالات، وعاملهم دون درجتهم الحقيقية. يؤيد ذلك الواقعة التالية: لما بعث سعد بن أبى وقاص بنصيب بيت المال من غنائم جلولاء، قام عمر بتوزيعها بين المسلمين، وأعطى عبد الله بن عمر نصيباً لم يرضه، لأنه كان دون ذو نصيب نظرائه: فلما خاطب والده فى ذلك قال له عمر: "يا عبد الله إن لك أسوة فى عمر، لا يسألنى الله يوم القيامة أنى ملت إلى أحد."

بل ربما قسى على أبنائه قسوة تجافى منطق العدالة المجردة، آخذاً بالأحوط، وتطهيراً لمال أبنائه من أن يخالطه مال حرام: فقد حدث أن اشترى عبد الله بن عمر إبلاً هزيلة، وساقها إلى الحمى، فلما سمنت ذهب بها إلى السوق لبيعها، فلما رآها عمر، قال لابنه يوضح له موضع الريبة فى كسبه: ارعوا إبل ابن أمير المؤمنين! اسقوا إبل ابن أمير المؤمنين! يا عبد الله بن عمر! خذ رأسمالك، واجعل الربح فى بيت مال المسلمين!

وشبيه بالحالة السابقة ما روى من أن عبد الله وعبيد الله ابنى عمر، خرجا فى جيش إلى العراق، فلما قفلا مرا على أبى موسى الأشعرى، وهو أمير البصرة، فرحب بهما، وأراد أن يسدى إليهما معروفاً، فقال لهما: ها هنا مال من مال الله، أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين وأسلفكماه، فتبتاعان به من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة، فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين، ويكون لكما الربح، ففعلا، وكتب إلى عمر ليأخذ منهما المال. فلما قدما على عمر. قال: أكل الجيش أسلف كما أسلفكما؟! فقالا، لا ، فقال عمر: أديا المال وربحه. أما عبد الله وكان أشبه الناس بأبيه ورعاً وتقوى، ومن ثم كان أحب آله إليه- فسكت. وأما عبد الله، فقد

الخليفة أن يجعل المال قراضاً (شركة) فأخذ رأس المال، ونصف ربحه، وترك لهما النصف مقابل ما تعرضا له من مخاطر ، وما بذلوه من جهد.

وبينما كان عمر يمشى فى سكة من سكك المدينة، إذا هو بصبية تطيش هزالاً، تقوم مرة وتقع أخرى. قال عمر: يا حوبتها، يا بؤسها، من يعرف هذه منكم؟! قال عبدالله. أما تعرفها يا أمير المؤمنين؟! قال لا، قال هذه إحدى بناتك. قال وأى بناتى هذه؟! قال هذه فلانة بنت عبد الله بن عمر!!! قال ويحك، وما صيرها إلى ما أرى؟! قال منعك ما عندك! قال عمر: ومنعنى ما عندى، منعك أن تطلب لبناتك ما يطلب القوم لبناتهم! إنك والله ما لك عندى غير سهمك فى المسلمين وسعك أو عجزك! هذا كتاب الله بينى وبينكم!!

وكان عامل بيت المال ينظفه يوماً، فوجد فيه درهماً، فدفعه إلى ابن لعمر، فاستدعاه الخليفة حين بلغه الأمر، ونهره وقال له: أوجدت على فى نفسك سبباً؟! أردت أن تخاصمنى أمة محمدﷺ فى هذا الدرهم يوم القيامة!!

وكان عمر يعرف ضعف النفس البشرية، ومحاولة الناس التقرب إلى الحاكم عن طريق مجاملة آله وذويه، وكان الخليفة يرى فى ذلك كسباً حرامٌ، بل ومعصية يجب أن يحصن أبناءه ضدها. وليس أبلغ فى الدلالة على ذلك من القصة التالية، التى كان بطلها عبد الله بن عمر، صورة أبيه فى الورع والتقوى والزهد. قال عبد الله: استأذنت عمر فى الجهاد، فقال: أى بنى أخاف عليك الزنا!! فقال عبد الله، أو على مثلى تتخوف ذلك؟ قال عمر: تلقون العدو، فمنحك الله أكتافيهم، فتقتلون المقاتلة، وتسبون الذرية، وتجمعون المتاع. فتقام جارية فى المغنم، فينادى عليها فتسوم بها، فينكل الناس عنك، ويقولون ابن أمير المؤمنين، ولله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فيها حق، فتقع عليها، فإذاً أنت زان!!!

وبهذا المنطق كان يرى أن كسب أولاده من التجارة ليس كله نتيجة لمهارتهم فيها، بل يرجع إلى مجاملة الناس لهم فى البيع والشراء. ومن ثم فهو كسب حرام، يجب أن يعود إلى المسلمين. ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمر قال: شهدت جلولاء (موقعة فى فارس) فابتعت من الغنائم بأربعين ألفاً، وقدمت على عمر فقال: يا عبد الله بن عمر، لو انطلق بى إلى النار، كنت لى مفتدى؟! قلت نعم بكل شئ أملك. قال فإنى مخاصم. وكأنى بك تبايع بجلولاء. يقولون: هذا عبد الله بن عمر صاحب رسول الله وابن أمير المؤمنين وأكرم أهله عليه.. وأن يرخصوا عليك كذا وكذا درهماً أحب إليهم من أن يغلوا عليك بدرهم. وسأعطيك من الربح أفضل ما ربح رجل من قريش. ثم أتى باب صفية بنت أبى عبيد. زوج عبد الله بن عمر. فاقسم عليها ألا تخرج من بيتها شيئاً، ثم تركنى أسبوعاً. ثم استدعى التجار، فباعوا متاعاً

بأربعمائة ألف، فأعطاني ثمانين ألفاً، وأرسل ثلاثمائة وعشرين ألفاً إلى سعد بن أبي وقاص قائد المعركة، وطلب إليه أن يقسم المال فيمن شهد الموقعة، فإذا كان أحد منهم مات، فليعط نصيبه إلى ورثته!

وما فعله مع أبنائه، فعله مع أزواجه: فقد أهدى أبو موسى الأشعري إلى عاتكه بنت زيد ابن عمرو بن نفيل زوج عمر، سجادة صلاة صغيرة. فلما رآها عمر، وعلم مصدرها، أمر بإحضار أبي موسى الأشعري. ولما حضر، أخذ عمر السجادة، وضرب بها رأس أبي موسى، ونهره قائلاً: ما يحملك على أن تهدي لنسائي؟! خذها فلا حاجة لنا فيها!

وقدم بريد ملك الروم على عمر، فاستقرضت إحدى زوجاته ديناراً واشترت به عطراً وجعلته في قوارير، وبعث به مع البريد إلى زوج ملك الروم. فقامت هذه بتفريغ القوارير مما فيها، وملأتها جواهر، وأرسلت بها إلى زوج عمر. فلما بلغ الخبر عمراً، أخذ الجوهر فباعه، ودفع إلى امرأته ديناراً، وجعل ما بقي من ذلك في بيت مال المسلمين!!

بل إن الأمر ليبلغ بعمر في بعض الحالات حد التزمت! ولو كان غير عمر هو الذي نسبت إليه تلك الأمور، لعدها الناس من قبيل المبالغات، ولكنها غير مستغربة من عمر. ومن ذلك:

كان عمر يدفع إلى امرأته طيباً من طيب المسلمين، فتبيعه امرأته فبايعت مرة، فجعلت تقوم وتزيد وتنقص وتكسره فيعلق بأصبعها شئ منه، فتمسح بأصبعيها على خمارها. فدخل، ووجد ريح المسك. فقال لزوجه، طيب المسلمين تأخذينه أنت فتطيبين به؟ وانتزع الخمار من رأسها. وأخذ جزءاً من المال، فجعل يصب الماء على الخمار، ثم يدلكه، ثم يشمه حتى ذهب ريح المسك؟!!

وقدم عليه مسك وعنبر من البحرين فقال: والله لوددت أني آخذ امرأة حسنة الوزن تزن لي هذا الطيب حتى أفرقه بين المسلمين. فقالت له امرأته عاتكة: أنا جيدة الوزن، فهلم أزن لك. قال لا. قلت ولم؟ قال عمر أخشى أن تأخذيه هكذا، فتجعليه هكذا (وأدخل أصبعيه في صدغيه) وتمسحين به عنقك، فأصيب فضلاً عن المسلمين!!

وقدم عليه صهره، وطلب منه أن يعطيه من بيت المال، فانتهره عمر وقال: أردت أن ألقى الله ملكاً خائناً؟! ثم أعطاه من صلب ماله.

وكان يقدم ذوى الفضل من المسلمين على آله: فقد قسم عمر أكسية من صوف وخزبين نساء أهل المدينة، وبقي منها كساء جيد. فقال له بعض من حضر يا أمير المؤمنين، اعط هذا

ابنة رسول اللهﷺ التى عندك يريدون أم كلثوم بنت على من فاطمة الزهراء رضى الله عنها- فقال عمر: أم سليط أحق به، فإنها ممن بايعن رسول الله، وكانت تحمل القرب تسقى الناس يوم أحد.

ولقد ضاقت نفوس آل عمر بهذه المعاملة القاسية، وإن كانت مثالية ولم يجدوا خيراً من أم المؤمنين حفصة بنت عمر، لتكلم أباها فى ذلك، فذهبت إليه، وقالت: يا أمير المؤمنين: حق أقاربك من هذا المال، قد أوصنى الله عز وجل إليك بالاقربين! فقال عمر: يا بنية! حق أقاربى فى مالى.. وأما هذا ففى المسلمين، غششت أباك، ونصحت أقرباءك. قومى! فقامت تجر ذيلها!

ولم يقف الأمر عند المعاملة المالية، بل جعل عمر من اله قدوة فى إقامة الحدود، كما تنطق به القصة المشهورة الخاصة بابنه عبد الرحمن والتى ترويها كتب السير على لسان عمرو بن العاص- حيث يقول: "ما رأيت أحداً بعد النبىﷺ وأبى بكر، أخوف لله من عمر. لا يبالى على من وقع الحق، على ولد أو والد. ثم قال، والله إنى لفى منزلى فى مصر، إذ أتانى آت فقال: هذا عبد الرحمن بن عمر، وأبو سروعة، يستأذنان عليك، فقلت: يدخلان، فدخلا وهما منكسران فقالا، أقم علينا حد الله، فإنا قد أصبنا البارحة شراباً فكسرنا. فزجرتهما وطردتهما. فقال عبد الرحمن: إن لم تفعل أخبرت أبى إذا قدمت عليه، فعلمت أنى إن لم أقم عليه الحد، غضب علىّ عمر وعزلنى، فأخرجتهما إلى صحن الدار، فضربتهما الحد، ودخل عبد الرحمن بن عمر إلى ناحية فى الدار فحلق رأسه، وكانوا يحلقون مع الحدود. ووالله ما كتبت لعمر بحرف مما كان، حتى جاءنى كتابه[1]، فإذا فيه "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمرإلى العاصى بن العاص، عجبت لك يا ابن العاص وجرأتك علىّ وخلافك عهدى، فما أرانى إلا عازلك! تضرب عبد الرحمن فى بيتك وتحلق رأسه فى بيتك، وقد عرفت أن هذا يخالفنى؟! إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك، تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت: هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت ألا هوادة لأحد من الناس عندى فى حق يجب لله عليه. فإذا جاءك كتابى هذا، فابعث به فى عباءة على قتب حتى يعرف سوء ما صنع. فبعث به كما قال أبوه. وكتبت إلى عمر كتاباً أعتذر فيه أنى ضربته فى صحن دارى، وبالله الذى لا يحلف بأعظم منه أنى لأقيم الحدود فى صحن دراى على الذمى والمسلم، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر، فقدم بعبد الرحمن على أبيه، فدخل وعليه عباءة، ولا يستطيع المشى من سوء مركبه، فقال يا عبد الرحمن فعلت وفعلت؟! فكلمة عبد الرحمن بن عوف، وقال يا أمير المؤمنين! قد أقيم عليه الحد، فلم يلتفت إليه عمر، فجعل عبد الرحمن يصيح: إنى مريض وأنت قاتلى: فضربه ثانية، وحسبه، فمرض ثم مات رحمه الله.

---

(١) ولا غرابة فى ذلك، فلقد كان لعمر عيونه التى تأتيه بأخبار الولاة

وقد بالغت بعض الروايات بحسن نية، وادعت أن عبد الرحمن مات وأبوه يقيم عليه الحد، وأنه أقام عليه الحد وهو ميت، وكل هذه مبالغة لا تصمد لتمحيص. وعبد الرحمن بن عمر، كان سليم العقيدة، وكذلك زميله أبو سروعة، كان من أهل بدر، وهما قد شربا النبيذ تأولاً، ظناً منها أنه غير مسكر. فلما سكرا، ووقع المحظور، طلبا التطهر بالحد، وكان يكفيهما الندم. ومن درس سيرة عمر، لا يستسيغ أن يقيم عمر الحد على ميت، فقد جئ له يوماً بشاب سكران، وأراد أن يشتد عليه، فبعث به إلى مطيع بن الأسود العبدى المشهور بالقسوة- ليقيم عليه الحد، ثم حضره وهو يضربه ضرباً شديداً، فصاح به: قتلت الرجل. كم ضربته، قال ستين،. قل أقص عن عشرين، أى أرفع عنه عشرين ضربة من أجل شدتك عليه، فيما تقدم من الضربات.

ما حققته القدوة من نتائج

بقدر ما تكون القدوة الحسنة خيراً وبركة على المحكومين، بقدر ما تكون مصدر متاعب لصاحبها. ولقد لقى عمر، كإنسان، جزاء قسوته على نفسه وعلى آله، واعترف بذلك. ويكفى أنه خطب أم كلثوم بنت أبى بكر إلى أختها أمر المؤمنين عائشة رضى الله عنها، فأبته، فزجرتها عائشة قائلة: أترغبين عن أمير المؤمنين، قالت نعم، إنه خشن العيش، شديد على النساء!

ولما أشرف عمر على الوفاة، نصحه المغيرة بن شعبة باستخلاف ابنه عبد الله. فقال له عمر: قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا، لا إرب لنا فى أموركم، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى.. أما لقد جهدت نفسى، وحرمت أهلى، وإن نجوت كفافاً لا وزر ولا أجر، إنى لسعيد!! فالقدوة الحسنة قد أجهدت عمر، وحرمت أهله.

ولكن القدوى الحسنة، بثمنها الغالى، قد آتت أكلها فى كثير من الميادين:

فهى قد أثمرت فى أسرة عمر ذاتها. فابنه عبد الله كما ذكرنا- كان صورة طبق الأصل من أبيه، وظل فى حياته الطويلة، يتخذ من والده العظيم قدوة طيبة.

ثم إن الخليفة الآخر، الذى يقرنه الناس بعمر، ونعنى به عمر بن عبد العزيز، هو حفيد عمر بن الخطاب؛ ولقد أعاد للمسلمين سيرة جده العظيم، فى خلال مدة حكمه القصيرة، حتى أن البعض يقرن بين الإثنين حين يقول "العمرين". فقد روى عن قتادة أنه سئل عن عتق أمهات الأولاد فقال: قضى العمران فما بينهما من الخلفاء بعتق أمهات الأولاد، فهو يقض بالعمرين، عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، على عكس المقصود من هذا الاصطلاح، لأنه لم يكن بين أبى بكر وعمر خليفة

ولكن آثار القدوة ظهرت بين الجماهير البعيدة عن عمر وآله. لأنهم المقصودون بتلك القدوة، والقدوة وحدها هى التى تفسر لنا أموراً، قد تبدو من قبل المبالغات فى الوقت الحاضر. ومن ذلك:

(أ) أمانة الجند عند جمع الغنائم: ويكفى أن نورد فى هذا المقام ما تسجله كتب التاريخ عقب فتح المدائن: "ذكروا أن سعداً (بن أبى وقاص) وجد فى خزائن كسرى ثلاثة آلاف ألف ألف ألف (ثلاث مرات) دينار.. وجاء الذين خرجوا فى أثر يزدجرد بتاج كسرى مرصعاً بالدر والجوهر، وبثيابه من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر.. وطارد القعقاع بن عمر فارسياً فقتله، وأخذ منه عربتين فيهما أسياف وأدراع لكسرى ولهرقل ولخاقان الترك وللنعمان ولملوك آخرين غزاهم الفرس وغزو الفرس. وجاء عصمة بن خالد الضبى

بسفطين فى أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضه وعلى ثغره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ولجامه كذلك، وفارس من فضة مكلل بالجوهر، وفى الآخر ناقة من فضة عليه خيوط من ذهب وبطان من ذهب ولها زمام من ذهب، وكل ذلك منظوم بالياقوت، وعليها رجل من ذهب مكلل بالجوهر؛ ووجد المسلمون بدرر المدائن سلالاً مختومة برصاص ظنوا ما فيها طعاماً، فإذا هى آنية الذهب والفضة... ترى أأغرت هذه الكنوز العرب، فهم أحد منهم أن يأخذ شيئاً منها لنفسه، ولا يرده إلى من ولاهم سعد قبضها ليقسمها من بعد؟! كلا. بل جاء كل بما استولى عليه من السلب فسلمه وإلى القبض، حتى يرى سعد فيه رأيه... وأقبل رجل إلى والى القبض بحق نفيس، فقال الوالى والذين معه، ما رأينا فيما عندنا مثل هذا يعدله أو يقاربه وسألوا الرجل، هل أخذت منه شيئاً؟ قال لا والله، لولا الله ما أتيتكم به. وسألوه من هو، فقال لا أخبركم فتحمدونى، ولكنى أحمد الله بثوابه. وعرف سعد أمر هذا الرجل وأمثاله فقال: والله إن الجيش لذو أمانة، ولولا ما سبق لأهل بدر لقلت إنهم على فضل أهل بدر!!

ولما بشر بشير بن الخصاصية بخمس الفئ إلى المدينة، ووضعه بين يدى عمر، دهش لما رأى كثرته ونفاسته، وإحضار المسلمين له كاملاً. فالتفت إلى من حوله يقول: إن قوماً أدوا هذا لأمناء! وأجابه على بن أبى طالب كرم الله وجهه "إنك عففت، فعفت رعيتك، ولو رتعت لرتعت!!" وهنا أصاب على بفراسته السبب الحقيقى لهذه الأمانة التى لم يعرف لها التاريخ مثالاً، والتى تكررت بعد ذلك فى مئات المعارك التى خاضها العرب فى عهد عمر .

(ب) وجود كثير من الحكام كانوا صورة مصغرة من عمر: وفيما يلى بعض نماذج منها قلما يجود بها الدهر، وأثر عمر فيها واضح تماماً:

سعيد بن عامر الجمحى وإلى حمص: نسب إليه أهل حمص- وكانوا كثيرى الشكوى كأهل الكوفة- أربعة أمور هى: أنه لا يخرج إليهم حتى يتعالى النهار، ولا يجيب أحداً بليل، وله يوم فى الشهر لا يخرج فيه إليهم، وأنه يغمى عليه فى بعض الأيام فلما حقق عمر فى تلك الأمور، تبينت له الحقائق التالية:

أنه لا يخرج إلى الناس، لأنه لا خادم له، ومن ثم فيضطر إلى عجن عجينه، ثم ينتظر حتى يختمر العجين، ويخبزه ثم يخرج للناس.

وأنه لا يجيب أحداً بليل، لأنه يتفرغ لعبادة الله، وقد جعل نهاره للناس.

وانه لا يخرج للناس يوماً فى الشهر، لأنه ليس له خادم يغسل ثيابه، ولا ثياب له يبدلها، ومن ثم فإنه فى هذا اليوم يغسل ثيابه، وينتظر حتى تجف، وبعدها يخرج للناس.

وأنه يغمى عليه فى بعض الأيام لأنه شهد مصرى خبيب الأنصارى بمكة، وقد بضعت قريس لحمه ثم حملوه على جذعة، فقالوا، أتحب أن محمداً ﷺ مكانك؟ فقال والله ما أحب أنى فى أهلى وولدى وأن محمداً شيك بشوكة، ثم نادى يا محمد! فما ذكر ذلك اليوم، وأنه لم يتقدم لنصرته، إلا أن الله عز وجل لن يغفر له ذلك الذنب أبداً، فيغمى عليه، فقال عمر: الحمد لله الذى لم يخيب فراستى، وبعث له بألف دينار ليستعين بها على إصلاح أمره، ففرقها فى الناس!!

عمير بن سعد: ظل هذا العامل عاما كاملاً لا تصل أخباره إلى عمر، فداخلته بشأنه ريبة، فكتب إليه "إذا جاءك كتابى هذا فاقبل، وأقبل بما جبيت من فئ المسلمين" فأخذ عمير جرابه، فجعل فيه زاده وقصعته وعلق أدواته وأخذ عصاه، ثم أخذ يمشى من حمص حتى دخل المدينة، وقد شحب لونه، واغبر وجهه، وطال شعره! فدخل على عمر وتلك حاله، فهاله أمره، وقال أما كان أحد يتبرع له بدابة تركبها؟! قال الوالى الورع: ما فعلوا، وما سألتهم ذلك! ولما سأله عن الفئ قال: "بعثتنى حتى أتيت البلد، فجمعت صلحاء أهلها، فوليتهم جباية فيئهم، حتى إذا جمعوه، وضعته مواضعه، ولو نالك منه شئ لأتيتك به فقال عمر: جددوا لعمير عهداً، فأبى الوالى، وقال: "إن ذلك لشئ مضى" لا عملت لك ولا لأحد من بعدك، واستأذنه فى اللحاق ببيته قريباً من المدينة. فقال عمر حين انصرف عمير. ما أراه إلا قد خاننا. فبعث فى أثره رسولاً، وأعطاه مائة دينار، وقال له، انطلق إلى عمير حتى تنزل به وكأنه ضيف، فإن رأيت أثر شئ فاقبل، وإن رأيت حالة شديدة، فادفع إليه هذه المائة دينار. فنزل به الرسول ثلاثة أيام، وليس لعمير وزوجه إلى قرصة من شعير كانوا يخصونه بها ويطوون حتى أتاهم الجهد. فأخرج الحارث الدنانير فدفعها إليه، فصاح الرجل لا حاجة لى فيها. فقالت له امرأته خذها إن احتجت إليها، وإلا ضعها فى مواضعها، فقسمها عمير بين أبناء الشهداء والفقراء. ولما بلغ ذلك عمر، استقدم عميراً، وأمر له بوسق من طعام وثوبين: فقال الرجل الصالح: "أما الطعام فلا حاجة لى فيه، قد تركت بالمنزل صاعين من شعير، إلى أن آكل ذلك يكون قد جاء الله تعالى بالرزق ولم يأخذ الطعام، وأما الثوبان، فقال: إن أم فلان عارية، فخذهما ورجع إلى منزلة!!

(جـ) تنفيذ الولاة لأوامر عمر حرفياً: لا نعرف فى التاريخ على طوله دولة سادتها الطاعة لولى أمرها كما حدث فى عهد عمر. ويقيناً أن ذلك لا يرجع إلى الهيبة وحدها، ولكنه يعود فى المقام الأول إلى القدوة التى ضربها عمر بنفسه وبآل بيته. ولأجل هذا ابتكر عمر ألواناً من محاسبة الولاة لم يعرفها العالم قبل عمر، ولم ينكرها عليه عماله، بل نفذوها راضين ومختارين، لأنهم وجدوها صدى لسلوك عمر. ومن ذلك:

بطريق سليم، صادرها كلها أو نصفها بحسب الأحوال. ولأجل هذا كان يأمر الولاة إذا عادوا إلى المدينة- أن يدخلوها نهاراً، ولا يدخلوها ليلاً كيلاً يحجبوا شيئاً من الأموال. وقد طبق عمر بن الخطاب مبدأ المقاسمة أو المصادرة على ولاة عديدين بل ومن كبار المسلمين الذين لا يشك فى إخلاصهم أو صدق عقيدتهم- ومن بينهم سعد بن أبى وقاص بطل القادسية، وخال رسول الله ﷺ، وأحد الستة الذين عهد إليهم بالخلافة من بعده! ومنهم خالد بن الوليد، سيف الإسلام، وبطل الحرب غير المنازع، والذى تذهب بعض الروايات إلى أن عمر قال بشأنه: لو أن خالداً حى لوليته الخلافة من بعدى! ومنهم أبو هريرة صاحب رسول الله والمحدث المشهور، وعمرو بن العاص فاتح مصر وغيرهم كثير. بل إن الطاعة قد ذهبت بخالد بن الوليد على مابينه وبين عمر- إلى أن يقاسم رسول عمر نعاله بالرغم من احتجاج ابى عبيدة بأن النعلين هما بمثابة شئ واحد لأن أحدهما لا يصلح دون الآخر! والذى لا شك فيه أن تلك المقاسمة لم يكن لها مخالفة ثابتة لشريعة الله، وإلا لكان لعمر مع المخالف شأن آخر، ولكنها كانت ترجع إلى مظنة الكسب الحرام بغيرقصد، كمجاملة الرعية للوالى، أو استفادة الوالى من منصبه فى تيسير أموره، ولقد رأينا فيما سلف أن عمر طبق المبدأ أولاً على أبنائه وعلى رأسهم عبد الله بن عمر أحب آله إليه، وعلى أزواجه، فهل يتردد الولاة بعد ذلك فى إطاعة أوامر عمر، حين يريد أن يطهر أموالهم، ويجنبهم محاسبة أحكم الحاكمين، والذى لا تخفى عليه خافية؟! ولكن التاريخ يسجل أن بعض الولاة لم تتسع نفوسهم لهذا الإجراء الذى يضعهم موضع الريبة أمام الناس، ولهذا رفضوا أن يستمروا فى العمل لعمر، ومنهم أبو هريرة، الذى رفض أن يعود إلى عمله بعد انتهاء محاسبته، فقال له عمر: تكره العمل، وقد طلبه من هو خير منك (يعنى نبى الله يوسف) قال أبو هريرة: أن يوسف نبى ابن نبى، وأنا أبو هريرة بن اميمة وأخشى ثلاثاً واثنتين: أخشى أن أقول بغير علم وأقضى بغير حكم، ويضرب ظهرى، ويشتم عرضى، وينزع مالى!!

وواضح مما سبق ان عمر يكون أول من استحدث نظام المحاسبة على أساس "من أين لك هذا"، ولكنه طبقه عملاً، فلم يكن نظاماً مظهرياً. وقد طبقه على الجيمع بلا استثناء، بل على أكبر الحكام وأقواهم، قبل صغارهم وضعافهم.

(د) تذنيب الولاة المنحرفين بالعمل فى ذات الظروف التى ألفوها قبل الولاية: من أشر ما تبتلى به الحكومات والإدارات على مر العصور، نسيان الحكام أصلهم، والبيئة الاجتماعية التى نشأوا فيها، وانصرافهم إلى حياة النعيم والملذات. وهذا المرض أظهر ما يكون فى فترات التحول الكبرى التى تتعرض لها الشعوب. ولقد استمد العرب قوتهم من العقيدة الراسخة اولاً، ثم من حياة التقشف والخشونة وبساطة العيش من ناحية ثانية. ولكن الإنسان ميال بطبعه إلى النعيم، والدعة، ومتعة الحياة، لا سيما حين يكون محروماً منها فى صدر

شبابه، ثم تتيسر له أسبابها. ولعل هذا المرض، هو الداء المشترك فى تدهور الدول منذ فجر التاريخ حتى الآن. وعمر اليقظ، اللماح، لم يكن ليتغيب عنه هذا الخطر المحدق بالدولة الوليدة؟. ومن ثم أبى بإصرار أن يغير من مألوف حياته وعاداته، ليقدم القدوة بنفسه؛ ثم حرص على أن يكون ولاته صورة منه. ومن نازعته نفسه إلى متعة الدنيا، وبدت عليه دلائل التحول، فلا بد من علاجه بسرعة وبحسم، حتى يقضى على الداء من أوله، ولا تتاح له فرصة الاستشراء. ويكفى أن نمثل لذلك بالمثالين التاليين:

المثال الأول: بينما عمر بن الخطاب يتصفح الناس يسألهم عن أخبار أمراءهم، إذ مر بأهل حمص، فشكوا له من أن أميرهم قد بنى علية يكون فيها، وأنه يحتجب عنهم. فاستقدمه عمر. فلما حضر، قال عمر: احبسوه عنى فى الشمس ثلاثة أيام! حتى إذا كان بعد ثلاث استحضره، وقال له: يا ابن قرط، ألحقنى إلى الحرة (وفيها إبل الصدقة وغنمها) حتى إذا جاء الحرة، ألقى عليه جبة، وقال انزع ثيابك، واتزر بهذه، ثم ناوله دلو، وقال إسق هذه الإبل. فصدع الوالى بالأمر، وظل يمارس هذا العمل حتى تعب. فقال له أمير المؤمنين: يا ابن قرط، متى كان عهدك بهذا؟! قال مليا (أى منذ زمن بعيد) يا أمير المؤمنين! قال له فلهذا بنيت العلية، وأشرفت بها على المسلمين والأرملة واليتيم؟! إرجع إلى عملك ولا تعد!!

المثال الثانى: شكا أهل مصر من واليها عياض بن غنم، من أنه حجب نفسه عن الناس، وانصرف إلى شئون نفسه، فأمر الخليفة بإحضاره، وكان رجلاً بدوياً، فلما رأى من ريف مصر بيض وسمن. فلما رآه عمر على حاله تلك قال له منذرا: استعملناك، وشرطنا عليك شروطاً، فتركت ما أمرتك به، وانتهكت ما نهيتك عنه! أما والله لأعاقبنك عقوبة أبلغ إليك فيها. ائتونى بدراعة من كساء، وعصا، وثلاثمائة شاة من شاه الصدقة ثم التفت إلى الوالى المنحرف وقال له: البس هذه الدراعة، وقد رأيت أباك، وهذه خير من دراعته! وهذه خير من عصاه!! اذهب بهذه الشاه فارعها فى مكان كذا وكذا (وكان ذلك فى يوم صائف) ولا تمنع السائل من ألبانها شيئاً، وأعلم أنا آل عمر، لم نصب من شاة الصدقة ومن ألبانها ولحومها شيئاً! فلما أمعن رده وقال أفهمت ما قلت لك؟! وردد عليه الكلام ثلاثاً. فلما كان فى الثالثة ضرب بنفسه الأرض بين يديه وقال: ما أستطيع ذلك، فإن شئت فاضرب عنقى. قال له عمر: فإن رددتك فأى رجل تكون؟! قال لا ترى إلا ما تحب! فرده فكان خير عامل!!

هذان الرجلان جديران بالتأمل: فعمر فى الحالتين رد العامل إلى عمله، وصلح حاله فى المرتين، مما يدل على أن عمر كان يدرك خفايا النفس البشرية، ويعلم يقيناً أن احتمال الانحراف فى تلك الظروف كان أمراً طبيعياً. وعمر كما تدل الحال- لم يكن يقصد العقاب لذاته أو الانتقام، ولكنه كان يريد التهذيب والتقويم والإصلاح، بتنبيه العامل المنحرف إلى مدى الجرم الذى ارتكبه. وفى قوله لعياض بن غنم، أن الملبس الذى يعرضه عليه، والعصا

الذى يزوده بها لرعى الغنم، خير مما كان متوافرا لأبيه، فيه أبلغ دلالة. وتنفيذ العمال لأوامر عمر. كان مفهوما، لأن عمر نفسه كان يقوم متطوعا بذات الأعمال التى يعتبرها عقابا وتهذيبا لعماله. فلقد رأينا فيما سلف كيف أن عمر كان يجرى وراء إبل الصدقة الضالة فى يوم قائظ، لم يحتمل عثمان أن يواجهه! وأنه يداوى الدواب، ويحصيها، ولم تكن ملابسه بأفضل مما ألبسه لولاته المنحرفين!

وإن المرء ليعجب من صنيع عمر فى ظروفه تلك إذا ما قارنه بالمتبع اليوم فى كثير من الدول المتحضرة، فمذهب التأديب بالعمل، الذى اعتبره البعض فتحا جديدا فى تهذيب العاملين المخطئين، قد أدركه عمر ببساطة، وطبقه بفاعلية. والخشية من تحول بعض القيادات الشعبية إلى طبقة جديدة، تستأثر بخيرات المجتمع لنفسها، كان الشغل الشاغل لعمر، وواجهه بإجراءات حاسمة. وكل ذلك من سمات القيادة الملهمة بالفطرة.

بل لم تقف أوامر عمر إلى ولاته عند حياتهم العامة، وإنما تعدت ذلك إلى حياتهم الخاصة. ومن ذلك هذه القصة ذات الدلالة البالغة: لما كانت القادسية، فتن المسلمون بجمال الأعجميات، وأكثروا من الزواج من نساء أهل الكتاب، وأدرك عمر الخطر الكامن وراء هذا الإتجاه، وأراد أن يضع حدا له، فبعث إلى حذيفة واليه على المدائن يقول:

بلغنى أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب فطلقها. فكتب إليه حذيفة، لا أفعل حتى تخبرنى أحلال أم حرام، وما أردت بذلك. فكتب إليه عمر: لا بل حلال، ولكن فى نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم. فقال حذيفة: الآن فطلقها.

رجَال عُمَر

يقوم الخليفة فى الأمة بين الله وعباده فى إجراء العدل وتأييد الحق، وإقامة الدين وسياسة الدنيا به، والزام كل إنسان حد ما له وما عليه دون بغى عليه أو استطالة منه على سواه. ولكن يتعذر على الخليفة وحده أن يباشر كل شئ، من ذلك فى ملك مترامى الأطراف، فكان لا بد من تفويض منه إلى عمال يقومون عنه بذلك الأمر فى نواحيهم، ويكونون بينه وبين الرعية يطالعونه بأمورهم ويسوسونهم بسياسته.

وكان حريصاً على اتباع الكتاب الكريم فيما جاء به والاستناد بسُنة رسول الله ﷺ. وكان حريصاً على أن يأخذ عماله بسيرته ويؤدبهم بآدابه رعاية للرعية وتحقيقاً لحسن ملكة الإسلام وسماحة الدين وعدله. فكان يعد نفسه شريكاً للعامل فى كل هفوة يهفوها، قسيماً له فى كل جريمة يقترفها، لأنه إنما يأتى ذلك بما له من السلطان الذى يستمده منه ويرى نفسه مسئولا أمام الله عن ذلك

قال الأستاذ الخضرى: "كان عمر ممن يشترون رضا العامة بمصلحة الأمراء فكان الوالى فى نظره فرداً من الأفراد يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس. فكان حب المساواة لا يعدله شئ من أخلاقه، إذا اشتكى العامل أصغر الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكى والمشكو منه، يسوى بينهما فى الموقف حتى يظهر الحق، فإن توجه قبل العامل اقتص منه إن كان هناك داع إلى القصاص أو عامله بما تقضى به الشريعة أو عزله". وإن هذا الرأى الذى كان يراه عمر واستغرق وجدانه ومشاعره هو الرأى الذى ينص عليه فى قوانين أكثر الأمم عدالة وحرية وأحرصهم على المساواة بين أفرادها. ولم يأت عمر بدعاً فيما كان يصنع، فقد كان مظهراً لا مبتدئاً، إذ تقرر ذلك بمقتضى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ {الحجرات/١٣} وبمقتضى قول رسول الله ﷺ فى حجة الوداع: "لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى". وإنما جعل هذا الخلق ظاهراً فى عمر أن الفتوحات قد كثرت والملك قد اتسع فكثرت العمال وطال زمن عمر وحدثت الأحداث وظهرت خطته فى ذلك واضحة

وسواس الأمم يختلفون فى شأن مؤاخذة العامل ذى السلطان بما يصدر منه من الهفوات، ومجازاته بما يجترم من السيئات، لأن فريقاً يرون التجاوز عن سيئاته وغض الطرف عن زلاته أهيب لمقامه فى نظر الرعية، ولئلا يكون ذلك مدرجة لكثرة مطالب الرعية وكيدها للعمال وتجنيها عليهم. وقد كان أبو بكر على هذا الضرب من السياسة مع قواده وعماله فى أيام أهل الردة وقيام الاضطراب فى كل ناحية، وهى حال خاصة يغتفر فيها ما لا يغتفر فى غيرها، وكان عمر يخالفه فى هذا النحو من السياسة ويشير عليه بالاقتصاص من كل مخالف. وقد نهج عمر هذه الخطة فيما بعد حين استدعى سعد بن أبى وقاص من الكوفة

لشكوى رفعها بعض من ألبوا عليه فى وقت كان المسلمون فى أشد الحاجة إليه، إذ كانت البعوث تضرب على الناس وهم فى التهيؤ لمناهضة العجم الذين جمعوا الجموع لحرب المسلمين وإخراجهم من فارس، فلم يكرثه ذلك ولم يشغله عن النظر فى شكوى الشاكين، وسعد من نفس عمر بالمنزلة التى دفعت به إلى جعله من أصحاب الشورى الذين ينتخب الخليفة منهم من بعده وقد قال للمؤمنين: "إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم فى هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد يعنى الفرس- وايم الله لا يمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم و إن نزلوا بكم"

ذلك أن مصلحة العامة عنده فوق كل شئ

***

كان عمر شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم يقيم عليهم العيون يوافونه بأخبارهم ولا يترك خبر سوء يبلغه عن أحدهم دون تحقيقه والتثبت فى شأنه تثبتاً لا يدع للشك مجالاً ولا يغفل أن يرسل إليهم الأوامر تباعاً أن يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبغوا ولا يغدروا.

ولما غدر الهرمزان بعد العهد خشى أن يكون ذلك من ظلم أصابه من المسلمين فاستقدم وفداً من البصرة فيهم الأحنف بن قيس وسأله عن غدره أعن ظلم؟ قال: لا. فكتب إلى عتبة ابن غزوان زيادة فى الوصية ومبالغة فى التوكيد: "أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى، فإنكم إنما أدركتم على عهد عاهدكم عليه، وقد تقدم إليكم فميا أخذ عليكم، فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً" وبلغه ان حرقوصا عامله على الأهواز نزل جبلاً كؤوداً يشق على من رامه والناس يختلفون إليه فكتب إليه: "أما بعد، بلغنى أنك نزلت منزلاً كؤودا لا تؤتى فيه إلا على مشقة. فأسهل ولا تشق على مسلم ولا معاهد، وقم فى أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصف لك الدنيا، ولا تدركنك فترة ولا عجلة فتكدر دنياك وتذهب آخرتك"

وخطب عمر فقال: "يا أيها الناس: إنى والله ما أرسل عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم، ولكنى أرسلهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم ويقضوا بينكم بالحق، ويحكموا بينكم بالعدل، فمن فعل به شئ سوى ذلك فليرفعه إلىّ، فوالذى نفس عمر بيده لأقصنه منه" فوثب عمرو بن العاص فقال:

"يا أمير المؤمنين: أرأيت إن كان رجل من أمراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته أنك لتقصه منه؟ قال: أى والذى نفس عمر بيده إذن لأقصنه منه وكيف لا أقصنه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقص من نفسه، ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم

فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم"

وعن أبى رواحة قال: كتب عمر بن الخطاب إلى العمال "اجعلوا الناس عندكم فى الحق سواء، قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم، اياكم والرشا، والحكم بالهوى، وأن تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من النهار"

وكان عمر يأمر عماله فى كل سنة يوافوه فى موسم الحج، ومن كانت له شكوى أو مظلمة وافاه إلى هذا الموسم كذلك. ورفعها على العامل بحضرته. وهناك ترد إلى المظلوم ظلامته ويشكيه من خصمه. فكان العمال يخافون الافتضاح فى موقف الحج على رؤوس الأشهاد ويحدوهم هذا الخوف على الابتعاد عن الظلم، ولقد أحضر عمر كثيراً من عماله الذين لهم فضل عظيم فى الفتوح وأثر كبير فى نصرة الدين، فهذا سعد بن أبى وقاص من أخوال رسول الله ﷺ وهو فاتح القادسية والمدائن والعراق ومدوخ الفرس وممصر الكوفة، اشتكى عليه بعض رعيته فأرسل محمد بن مسلمة يحقق الشكاية علناً، وجاء بسعد وخصومه إلى عمر فوجده بريئاً من كل ما قرف به ولكنه عزله احتياطاً. وأوصى عند وفاته أن يولى لأنه لم يعزله لجناية او خيانة

والمغيرة بن شعبة كان أميراً على البصرة، وهو ذو بلاء وغناء فى نصرة الدين وفتوح فارس وغيرها، اتهمه بعض من كان معه بتهمة شنيعة فلم يلبث أن أرسل إليه كتاباً عاتبه فيه وعزله وأمر غيره. وهذا هو الكتاب: "أما بعد فقد بلغنى نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميراً فسلم ما فى يدك والعجل العجل". فقدم على عمر ومعه الشهود الذين شكوه فلم تثبت التهمة عليه وأقام عمر الحد عليهم بما فرضه الله لمثلهم

وهذا عمار بن ياسر كان أميراً على الكوفة، وهو من السابقين الأولين، أنهى إلى عمر قوم من الكوفة أنه لا يحتمل ما هو فيه من الولاية عليهم، وأنه ليس بأمير يقدر على هذا العمل، فأمره عمر بأن يقدم عليه فى وفد من أهل الكوفة فسألهم عمر معما يشكون من عمار، فقال قائلهم إنه غير كاف ولا عالم بالسياسة، وقال قائل منهم إنه لا يدرى علام استعمل، فاختبره عمر اختباراً يدل على سعة علمه بفارس ونواحى الكوفة وتصوره موقع كل بلد، فلم يحسن عمار الإجابة فى بعض ما سئل عنه فعزله، ثم دعاه بعد ذلك فقال له أساءك حين عزلتك؟ فقال: والله ما فرحت حين بعثنى ولقد ساءنى حين عزلتنى. فقال لقد علمت ما أنت بصاحب عمل ولكن تأولت قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ {القصص/٥} "أن لا تركبوا برذوناً ولا تأكلوا نقياً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس، إن فعلتم شيئاً من ذلك حلت بكم العقوبة"

***

أما انتخابه للأمراء وتحريه لأن يكونوا ذوى عفه وقناعة فكان على أتمة وقد تيسر له من هذه الطائفة ما لم يتيس لغيره. وكان كثيراً من عماله ينهجون منهجه ويترسمون خطواته. فمن عماله سلمان الفارسى على المدائن، كان يلبس الصوف ويركب الحمار ببردعته بغير اكاف ويأكل خبز الشعير. ولما حضرته الوفاة بكى فقال له سعد بن أبى وقاص: يا أبا عبد الله ما يبكيك؟ فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن فى الأخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون، وأرى هذه الأساودة حولى. فنظروا فلم يجدوا فى البيت إلا إداوة وركوة ومطهرة. وكان أبو عبيدة بن الجراح عامله على الشام يظهر للناس وعليه الصوف الجافى، فعزل فى ذلك، فقال ما كنت بالذى اترك ما كنت عليه فى عصر رسول الله ﷺ.

وكان عامله على حمص سعيد بن حذيم. فشكاه اهل حمص إلى عمر وسالوه عزله. وكان عمر يعتقد انهم ظالمون له، فقال اللهم لا تفل فراستى فيهم، وجمع بينهم وبينه فقال: ما تنقمون منه؟ قالوا لا يخرج إلينا حتى يرتفع النهار. قال ما تقول يا سعيد؟ قال يا امير المؤمنين إنه ليس لأهلى خادم؛ فاعجن عجينى ثم اجلس حتى يختمر ثم اخبز خبزى ثم اتوضا واخرج إليهم. قال: وماذا تنقمون منه؟ قالوا لا يجيب بليل. قال قد كنت أكره هذا، إنى جعلت الليل كله لربى وجعلت النهار لهم. قال: ماذا تنقمون منه، قالوا فى الشهر يوم لا يخرج إلينا؟ قال: نعم ليس لى خادم فاغسل ثوبى ثم اجففه فامسى. فقال عمر: الحمد لله لم يفل فراستى فيكم يا أهل حمص، فاستوصوا بواليكم خيراً، وبعث إليه بألف دينار يستعين بها فأبقى منها يسيراً وفرق سائرها فى اليتامى والفقراء والمساكين ولم يغير من عادته

وكان عمر إذا بلغه عن عامل من عماله ريبة فى معصية لم يمهله أن يعزله لأن استصلاح الرعية خير من الابقاء عليه. من ذلك أنه استعمل النعمان بن فضلة على ميسان من بلاد فارس وكان يقول الشعر فقال:

الاهل أتى الحسناء ان حليلـــها بميسان يسقى فى زجاج وحنتم

إذا شئت غنتنى دهاقين قريـــة وصناجة تشدو على كل ميســـم

فإن كنت ندمانى فبالأكبر اسقنى ولا تسقنى بالأصغـــر المتثلـــم

لعل أميـــر المؤمنين يســـؤوه تنادمنـــا بالجوســـق المتـــهـــدم

فقال عمر أى والله أنه يسوءنى ذلك، وعزله. فقدم على عمر وقال: والله ما أحب شيئاً مما قلت ولكنى كنت امرأ شاعراً وجدت فضلاً من القول فقلت فيه الشعر. فقال عمر: والله لا تعمل لى عملاً ما بقيت. وقد أشار المعرى إلى هذه الحادثة بقوله:

أنعمان ما سر ابن حنتمه الذى سررت به من شرب ما فى الحناتم

قال الأستاذ الخضرى: "ولم يمض عامل زمن عمرموثوقاً له فى كل أيامه إلا القليلين، وفى مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح"

كان عمر قد أقام محمد بن مسلمة مفتشاً عاماً يرسله إلى كل بلد اشتكى على أميره، وكان عمر يثق به ثقة تامة، وكان أهلاً لذلك منه، وقد كان من رأيه أن يحقق الأمر تحقيقاً علنياً على ملأ من الاشهاد إذ لا محل للتأثير فى الشهود والخصوم، لأن يد عمر كانت قوية جداً وقد زاد فى حرية الناس كثيراً، فما كان أحد يخشى أميراً ولا عمر بن الخطاب، اللهم إلا المريب فإن عقابه عليه كان صارماً

***

ومما ساس عمر به عماله أنه كان يحصى عليهم أموالهم قبل توليهم، فإذا زاد مال بعض ولاته صادرهم عليه كله أوبعضه ذلك أنه كان يرى أن لا يتناول العامل من مال الأمة فوق كفايته، فإذا تأثل مالاً كان بذلك إما مريباً أخذه من غير حله فبيت مال المسلمين أولى به، وفيهم اليتيم والمسكين والضعيف وذو الحاجة، وإما أن يكون راتبه والمسلمون أولى بما فضل عن كفاية العامل الذى يعمل بالأجر. قد يجد هذا العمل مجالاً للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية، ولكن عمر كما قال الأستاذ الخضرى- كان يعرف من عماله من يستحق هذه العقوبة أن تقع عليه، إذ ماذا يعمل برجل ولاه، وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه، ثم يراه بعد ذلك قد أثرى ثروة لو جمعت أعطياته ما بلغتها؟ ولم ير عمر أمام ذلك إلا هذه المصادرة وقد اكتفى بأن يشاطر العامل ما يملك.

أخباره مع عماله ووصاياه لهم:

كان عمر رضى الله عنه شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم، وبلغ به ذلك أن أقام عليهم العيون يوافونه بأخبارهم، وجعل أحد الصحابة وهو من أهل التقى والصدق واسمه محمد بن مسلمة قاصاً أى محققاً لأخبارهم ومقتصاً لآثارهم، فإذا شكا أحد من الرعية أحداً من العمال أرسل محمداً المذكور يقتص الخبر ويحقق الشكوى تحقيقاً علنياً لا في السر كي لا يؤخذ العامل بوشاية واش أو سعاية مفتر، فيذهب ويجمع إليه الناس فى المسجد، وربما طاف عليهم فى أحيانهم يسألهم عن عملهم بسيرة الأمير وبأسباب الشكوى منه، ومن ذلك ما ذكره الطبرى فى تاريخه عند الخبر عن إرسال الجيوش إلى نهاوند فى أخبار سنة (٢١هـ) قال ونزل بسعد (أى ابن أبى وقاص) أقوام وألبوا عليه فيما بين تراسل القوم واجتماعهم إلى نهاوند ولم يشغلهم ما دهم المسلمين من ذلك، وكان ممن نهض الجراح بن سنان الأسدى فى نفر فقال عمر إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم فى هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد وايم الله لا يمنعنى ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزلوا (يعنى الفرس) بكم فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس فى الاستعداد للأعاجم والأعاجم فى الاجتماع وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذى يقتص آثار من شكى زمان عمر[1]، فقدم محمد على سعد ليطوف به على أهل الكوفة والبعوث تضرب على أهل الأمصار إلى نهاوند، فطوف به على مساجد أهل الكوفة لا يتعرض للمسئلة عنه فى السر وليست المسئلة فى السر من شأنهم إذ ذاك. وكان لا يقف على مسجد فيسئلهم عن سعد إلا قالوا لا نعلم إلا خيراً ولا نشتهى به بدلاً ولا نقول فيه ولا نعين عليه: إلا من مالأ الجراح بن سنان وأصحابه فأنهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءاً إلى أن قال الطبرى وخرج محمد به (أى بسعد) وبهم إلى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر فسأله عمر عن أوجه الشكوى فأنكرها ولم يسعهم إثباتها فردهم عمر وخشى إذا أبقى سعداً على الكوفة أن يكون بينهم وبينه أمر فعزله احتياطاً وسأله من خليفتك على الكوفة فقال له عبد الله بن عبد الله بن عتبان فأقره.

ومنه تعلم كيف كانﷺ مراقباً لعماله كثير التحقيق عن أخبارهم لا يتعجل فى أمرهم إذا جاءته شكاية على أحدهم بل يتثبت الخبر بنفسه ويحققه بمواجهته، فإن ثبت عليه شئ مما يدعيه الشاكى عزله وله بهذا الصدد أخبار كثيرة مع عماله.

وكانﷺ لا يحب أن يفرق بين عماله فى المعاملة لا بين الحر والعبد ولا بين القوى والضعيف، أخرج ابن جرير الطبرى عن الأسود بن يزيد قال كان الوفد إذا قدموا على عمر سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً، فيقول هل يعود مرضاكم فيقولون نعم، فيقول هل يعود

---

(١) وظيفة محمد بن مسلمة هذه تشبه وظيفة المفتشين لهذا العهد.

العبد فيقولون نعم، فيقول كيف صنيعه بالضعيف، وهل يجلس على بابه فإن قالوا لا عزله.

وكان لا يغفل عن أن يرسل الأوامر إلى عماله تباعاً فى أن يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبغوا أو يغدروا، ومن ذلك أنه لما وفد عليه الأحنف بن قيس وسأله عن حالة الذمة فى ولاية البصرة وصرفه كما تقدم الخبر عن ذلك فى الفصل السابق كتب معه كتاباً إلى عتبة ابن غزوان أمير أمير البصرة يوصيه فيه بأهل الذمة هذه صورته (عن تاريخ الطبرى)

"أعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغى، فإنكم إنما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه، وقد تقدم إليكم فيما أخذ عليكم، فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً"

وبلغه مرة أن حرقوصاً عامله على الأهواز نزل جبل الأهواز والناس يختلفون إليه، والجبل كؤود يشق على من رامه فكتب إليه ما صورته نقلا عن تاريخ الطبرى فى حوادث سنة (١٧هـ):

(أما بعد) بلغنى أنك نزلت منزلاً كئوداً لا تؤتى فيه إلا على مشقة فأسهل ولا تشق على مسلم ولا على معاهد، وقم فى أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصف لك الدنيا، ولا تدركنك فترة ولا عجلة فتكدر دنياك وتذهب آخرتك

هذه لعمرى الرأفة بالرعية وهذا منتهى الحنان وغاية الحرص على راحة الناس، فاللهم إن خليفة لا يغفل حتى عن أمثال هذه الجزئيات لخليفة لا يخلفه الزمان ولا يوهن له سلطان ولا يمحى ذكره عن صفحات الجنان فرضى الله عنه وأرضاه

ومن وصاياه للعمال ما أخرجه الطبرى عن أبى عمران الجونى قال كتب عمر إلى أبو موسى: إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجه، فأكرم من قبلك من وجوه الناس، وبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف فى الحكم وفى القسم

ومراده بهذه الوصية أن يكرم أبو موسى وجوه الناس ليألفوه، ويرفعوا إليه حوائج المسلمين وأمور الضعفاء كى يكون عارفاً بحاجات الرعية من كل الطبقات فينصف هذا الحكم، وذلك فى القسم، ولا يفوت عدله فرداً من أفراد الرعية الذين لا يصلون إليه

وروى الطبرى أن عمر كان يقول فى عماله: اللهم إنى لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا إمرة عليه دونى، ومع كل هذا التشديد على العمال فإنه ﷺ كان دائماً قلقاً على الرعية خائفاً من أن يجار عليهم بأمر لا يصله خبره، لهذا عزم قبيل قتله أن يسافر ويطوف على العمال جميعهم ليبحث عن أمور الرعية ويقضى حاجاتهم: فقد أخرج الطبرى عن الحسن قال: قال عمر بن الخطاب لئن عشت إن شاء الله لأسيرن فى الرعية حولاً، فإنى أعلم

أن للناس حوائج تقطع دونى، أما عمالهم فلا يرفعونها إلى وأماهم فلا يصلون إلى فأسير إلى الشام فاقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الجزيرة فاقيم بها شهرين، ثم اسير إلى مصر فاقيم بها شهرين ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين والله نعم الحول هذا، ونحن نقول نعم الخليفة هذا ولا والله لا يخلفه خليفة فى المسلمين، ولا يدانيه ملك من ملوك الأرض أجمعين.

هكذا كان قلقه على الرعية وتطلعه إلى أخبار العمال مع تحريه فى انتخابهم أهل الأمانة والتقى والكفاءة لولاية أمور الرعية، حتى كان أكثر عماله ناهجين فى العدل منهجه، سالكين فى الزهد والورع والعفه طريقه، فمن عماله سلمان الفارسى وكان عامله على المدائن وكان على جانب من الزهد والتقى والصلاح عظيم، فكان يلبس الصوف ويركب الحمار ببردعته بغير إكاف، ويأكل خبز الشعير فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبى وقاص يا أبا عبد الله أذكرك الله عند همك إذا هممت، وعند لسانك إذا حكمت، وعند يدك إذا قسمت، فجعل سلطان يبكى فقال يا أبا عبد الله ما يبكيك: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول إن فى الأخرة عقبة لا يقطعها إلا المخفون، وأرى هذه الأساودة (جمع سواد وهو المال الكثير) حولى فنظروا فلم يجدوا فى البيت إلا دواة وركوة ومطهرة.

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافى فعذل على ذلك، وقيل له إنك بالشام وأمير المؤمنين وحولنا الأعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك: فقال ما كنت بالذى أترك ما كنت عليه فى عصر رسول الله.

جاء فى كنز العمال عن عاصم بن أبى النجود أن عمر بن الخطاب كان إذا بعث عماله شرط عليهم أن لا تركبوا برذونا ولا تأكلوا نفياً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس. إن فعلتم شيئاً من ذلك فقد حلت بكم العقوبة. ثم يشيعهم فإذا أراد أن يرجع قال: إنى لم أسلطكم على دماء المسلمين، ولا على أعشارهم ولا على أبشارهم[1] ولا على أعراضهم ولا على أموالهم ولكنى بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة، وتقسموا فيهم فيئهم، وتحكموا بينهم بالعدل، فإن أشكل عليكم شئ فارفعوه إلىّ: ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها ولا تجمروها[2] فتفتنوها، ولا تعتلوا عليها فتحرموها جودوا القرآن: (وفى رواية) وأقلوا من الرواية.

وكان إذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمروءة عزله فى الحال، ففى المناقب لأبى

---

(١) كناية عن أجسامهم وأموالهم.
(٢)فى القاموس جمره تجميرا جمعه والقوم على الأمر تجمعوا إلى أن قال والجيش حبسهم فى أرض العدو ولعله هو المراد.

الفرج بن الجوزى عن ابن سعد قال: كان عمر بن الخطاب استعمل النعمان بن نضلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال:

ألا هل أتى الحسناء أن حليلها ... بميسان يسقى فى زجاج وحنتم

فى أبيات يقول فى ختامها:

لعل أمـــير المؤمنين يسوءه ... تنادمنـــا بالجوسق المتـــهدم

فلما بلغ عمر قوله قال: نعم والله إنه ليسوءنى من لقيه فليخبره أنى قد عزلته، فقدم عليه رجل من قومه فأخبره بعزله فقدم على عمر فقال والله ما أحب شيئاً مما قلت ولكن كنت امرءاً شاعراً وجدت فضلاً من قول فقلت فيه الشعر فقال عمر والله لا تعمل لى على عمل ما بقيت، وفى رواية عن عثمان الخرامى عن أبيه قال لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب إلى النعمان بن نضلة (بسم الله الرحمن الرحيم) ﴿حم ، تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ {غافر ١/٢/٣}

أما بعد فقد بلغنى قولك:

لعل أمير المؤمنين يسوءه ... تنادمنا بالجوسق المتهدم

وايم الله ليسوءنى وعزله.

ومن عجيب سياسته مع العمال أنه كان يحصى أموالهم قبل العمل، وما زاد بعده يصادرهم على كله أو بعضه -كما سبق- ومن هذا ما رواه الطبرى أن عمر استعمل عتبة بن أبى سفيان على كنانة، فقدم المدينة بمال فقال له ما هذا يا عتبة قال مال خرجت به معى وتاجرت فيه. قال ومالك تخرج المال معك فى هذا الوجه فصيره فى بيت المال.

وروى أن خالداً لما أدرب هو وعياض إلى بلاد الروم انتجعه من العراق رجال منهم الأشعث بن قيس فوصله بعشرة آلاف درهم فبلغ ذلك عمر فكتب إلى أبى عبيدة أن يحصى مال خالد ويصادره على النصف، فدعاه وتلا عليه أمر أمير المؤمنين وصادره على نصف ماله حتى الخفين أخذ منهما واحداً وترك له الآخر. وكان خالد بن الوليد أميراً على قنسرين من قبل أبى عبيدة لا من قِبل عمر، ففى رواية أخرى للطبرى أن عمر كان لا يخفى عليه شئ فى عمله، فكتب إليه من العراق بخروج من خرج من الشام وبجائزة من أجيز، فدعا البريد وكتب معه إلى أبى عبيدة أن يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث أمن ماله أم من إصابة أصابها (يعنى من المغنم) فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف واعزله على كل حال

واضمم إليك عمله. فكتب أبو عبيدة إلى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر فقام البريد فقال أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من إصابة فلم يجبه حتى أكثر عليه وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئاً فقام بلال (مولى رسول الله)ﷺ إليه فقال إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته، وقال ما تقول أمن مالك أم من إصابة قال لا بل من مالى فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده، ثم قال (نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا) وأقام خالد متحيراً لا يعلم أمعزول هو أم غير معزول وأبو عبيدة لا يخبره كرامة له، وكأن عمر لما أبطأ عليه الخبر علم بالذى كان فكتب إلى خالد بالقدوم عليه فعتب خالد على أبى عبيدة لأنه لم يعلمه بأمر عمر من قبل، فقال أبو عبيدة إنى والله ما كنت لأروعك ما وجدت لذلك بداً وقد علمت أن ذلك يروعك. ثم إن خالداً رجع إلى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل، ثم أقبل إلى حمص فخطبهم وودعهم ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال لقد شكوتك إلى المسلمين وبالله إنك فى أمرى غير مجمل[1] يا عمر، فقال عمرمن أين هذا الثرى. قال من الأنفال والسهمان مازاد على الستين ألفاً فقوم عمرعروضه[2]. فخرجت إليه عشرون ألفاً فأدخلها بيت المال، ثم قال يا خالد والله إنك علىّ لكريم، وإنك إلى لحبيب، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شئ. ثم إن عمر كتب إلى الأمصار إنى لم أعزل خالداً عن سخطه ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه ويبتلوا به فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لا يكونوا بعرض[3] فتنة. ويقال إنه عوضه عما أخذه منه وكتب إلى الناس. وهكذا أيضاً شاطر سعد بن أبى وقاص على ماله وشاطر أبا هريرة، ولما أبى أن يشاطره ضربه وصادر غيرهم أيضاً ورد أموالهم لبيت المال. وهذا أمر لا يعجب من صدوره عن عمر على شهرته بالعدل لانه لابد أن يكون له فى هذا رأى سديد ومرمى بعيد، ولعل الحامل له على ذلك هو لأنه كان يرى أن هذا المال حق المسلمين فينبغى له أن يكون لعامة المسلمين حتى لا يتكاثر به الأغنياء ويتعالوا به على الفقراء، ويدلنا على هذا ما رواه ابن جرير الطبرى فى تاريخه عن السائب بن يزيد قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول والله الذى لا إله إلا هو (قالها ثلاثاً) ما من أحد إلا له فى هذا المال حق أعطيه أو منعه، وما أحد أحق به من أحد عبد مملوك أنا فيه إلا كأحدهم ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله، والرجل وبلاؤه فى الإسلام، والرجل وقدمه فى الإسلام، والرجل وغناؤه (كفايته) فى الإسلام، والرجل وحاجته، والله لئن بقيت ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه

(١) مجمل من أجمل فى الطلب واعتدل ولم يفرط.
(٢) متاعه.
(٣) بطريق

وأخرج عن حبيب بن أبى وائل قال: قال عمر بن الخطاب لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين.

رسائل عمر إلى عماله

[يأمرهم بالعدل]

كتب إلى أبى عبيدة حين ولى الخلافة يوليه على جند الشام:

أوصيك بتقوى الله الذى يبقى ويفنى ما سواه، الذى هدانا من الضلالة، وأخرجنا من الظلمات إلى النور، وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذى يحق عليك، لا تقدم المسلمين إلى هلكة رجاء غنيمة، ولا تنزلهم منزلاً قبل أن تستريده(1) لهم وتعلم كيف مأتاه، ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس، وإياك وإلقاء المسلمين فى الهلكة، وقد أبلاك الله بى وأبلانى بك فأغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها، وإياك أن تهلك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم (هكذا وردت صورة هذا الكتاب فى تاريخ الطبرى) ورأينا صورة غيرها فى حقائق الأخبار وهى بنصها، (بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح: سلام عليك فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى وأسلم على نبيه محمدﷺ، وقد وليتك أمور المؤمنين فلا تستحى فإن الله لا يستحى من الحق، وإننى أوصيك بتقوى الله العظيم الذى لا يفنى ويفنى سواء الذى استخرجك من الكفر إلى الإيمان، ومن الضلالة إلى الهدى، وقد وليتك على جند خالد فاقبض الجيش منه ولا تنفذ المسلمين إلى الهلاك رجاء غنيمة، ولا تبعث سرية إلى جمع كثير ولا تقل إنى أرجوا لكم النصر، وإياكم والتغرير وإلقاء المسلمين إلى الهلكة، وأغمض عن الدنيا عينك وأنه عنها قلبك، وإياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصرعهم واختبرت سرائرهم وبينك وبين الآخرة بيت كالحمام، وقد تقدم إليه سلفك فتنتظر سيراً أو سفراً طويلاً من دار قد مضت نضارتها وذهبت منها زهارتها فأحرم الناس الخارج إلى غيرها، واتق الله فى سرك ونجواك وتفكر فى زاد التقوى وراع المسلمين ما استطعت، وأما الحنطة والشعير التى وجدتموها فى دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهى للمسلمين، وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس والسلام.

وكتب إلى أبى عبيدة يلومه على تركه حصار حلب:

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح، سلام عليكم فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه سيدنا محمدﷺ، وبعد فقد ورد كتابك على مع رسلك فسرنى ما سمعت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء، وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب إلى النواحى التى قربت من إنطاكية فهذا بئس الرأى، أتترك رجلاً ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنه، وتسمع أهل النواحى والبلاد بأنك ما قدرت عليه، فما هذا رأى فيضعف رأيك، ويعلو ذكره بما صنع، ويطمع من لم يطمع فترجع إليك الجيوش وتكاتب ملوكها، فإياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين، فبث الخيل فى السهل والسعة،

---

(1) تختبره.

واكففها فى المضايق والجبال، ومن المعدات إلى حد الدروب ومن صالحك منهم فأقبل صلحه، ومن سالمك فسالمه، والله خليفتى عليك وعلى جميع المسلمين، وقد أنفذت إليك كتابى هذا ومعه أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه لله ولرسوله ورغب فى الجهاد فى سبيل الله وهم عرب وموال رجال وفرسان والمدد يأتيك متولياً إن شاء الله تعالى

كتب أبو عبيدة كتاباً إلى عمر يخبره فيه بأنه لا يريد الإقامة بأنطاكية لطيب هوائها وخوف اخلاد الجيوش إلى الراحة فأجابه بما نصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة بن الجراح، سلام عليك، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه سيدنا محمد ، وأشكره ملياً (كثيراً) على ما وهب من النصر للمسلمين، وجعل العاقبة للمتقين، ولم يزل معيناً لطيفاً، وأما قولك إنك لم تقم بإنطاكية لطيب هوائها، فالله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات، قال تعالى فى كتابه العزيز ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ {المائدة/٥١} وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم، وتدعهم يرغدون[١] فى مطعمهم ويريحون الأبدان النصبة فى قتال من كفر بالله، وأما قولك إنك تنظر أمرى الذى آمرك به أن تدخل الدروب خلف العدو، فأنت الشاهد وأنا الغائب والشاهد لا يرى ما لا يرى الغائب، وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالأخبار، فإن رأيت الدخول إلى الدروب صواباً فابعث إليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم، وإن طلبوا منك الصلح فصالحهم، وأما قولك إن العرب أبصرت نساء الروم فأرادوا التزويج، فمن أراد ذلك فدعه إن لم يكن له فى الحجاز أهل، ومن أراد أن يشترى الإماء فدعه ذلك أصون لفروجهم، والسلام عليكم وعلى جميع من معك من المسلمين، ورحمة الله وبركاته.

وكتب إليه كتاباً فقرأه على الناس بالجابية ونصه:

من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى أبى عبيدة بن الجراح، سلام عليك أما بعد فإنه لم يقم أمر الله فى الناس إلا حصيف العقدة[٢] بعيد الغرة[٣] لا يطلع الناس منه على عورة ولا يخنق فى الحق على جرته[٤] ولا يخاف فى الله لومة لائم (كنز العمال).

---

(١) يتوسعون ويتنعمون.
(٢) قوله حصيف العقدة أى محكمها، والعُقدة بالضم الولاية على البلد أو هى من عقد الحبل ربطه وهى كناية عن إحكام الأمر بالمعنى الثانى وإحكام الولاية بالمعنى الأول.
(٣) الغرة هى الغفلة
(٤) قال فى لسان العرب لا يصلح هذا الأمر إلا لمن لا يحنق على جرته أى لا يحقد على رعيته، وفلان لا يحنق على جرته أى لا يكتم سراً.

وكتب إلى ابنه ينصحه:

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد: فإن من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه ومن شكر له زاده، ومن قرضه جزاه، فاجعل التقوى عماد قلبك وجلاء بصرك فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسنة له، ولا جديد لمن لا خلق له (العقد الفريد).

وكتب إلى أبى موسى الأشعرى يوصيه:

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فأن الناس نفرة عند سلطانهم، فأعوذ بالله أن تدركنى وإياك عمياء مجهولة، وضغائن محمولة وأهواء متبعة ودنيا مؤثرة فأقم الحدود ولو ساعة من نهار، وإذا عرض لك أمران أحدهما لله والأخر للدنيا، فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا فإن الدنيا تنفد والأخرة تبقى، وكن من خشية الله عز وجل وأخف الفساق واجعلهم يداً يداً، ورجلاً رجلاً، وإذا كانت بين القبائل ثائرة[1] وتداعوا بآل فلان فإنما تلك نجوى الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا إلى أمر الله، وتكون دعواهم إلى الله وإلى الإمام، وقد بلغ أمير المؤمنين أن ضبة تدعوا بآسل ضبة، وإنى والله ما أعلم أن ضبة ساق الله بها خيراً قط، ولا منع بها من سوء قط فإذا جاءك كتابى هذا فانهكهم عقوبة حتى يفرقوا[2] إن لم يفقهوا وألصق بغيلان ابن خرشة من بينهم، وعد مرضى المسلمين واشهد جنائزهم، وافتح بابك وباشر أمرهم بنفسك، فإنما أنت امرؤ منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً، وقد بلغ أمير المؤمنين أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة التى مرت بواد خصيب فلم يكن لها همة إلا السمن، وإنما حتفها فى السمن واعلم أن للعامل مرداً إلى الله فإذا زاغ العامل زاغت رعيته، وإن اشقى الناس من شقيت به رعيته والسلام (مفتاح الأفكار).

وكتب إلى معاوية وقيل إلى أبى عبيدة:

(بسم الله الرحمن الرحيم). أما بعد: فإنى لم آلك فى كتابى إليك ونفسى خيراً، وإياك والاحتجاب وأذن للضعيف، وأدنه حتى تبسط لسانه، وتجرىء قلبه، وتعهد الغريب، فإنه إذا طال حبسه وضاق إذنه ترك حقه وضعف قلبه، وإنما ترك حقه من حبسه، واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستبن لك القضاء، وإذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والإيمان القاطعة فامض الحكم (مفتاح الأفكار).

---

(١) قوله ثائرة أى عداوة ، وقوله يفيئوا أى يرجعوا.
(٢) وقوله حتى يفرقوا أى يخافوا ويفزعوا، وإذا كانت بتشديد الراء فمعناها يتفرقوا.

كتابه لأهل ايلياء "القدس"

(بسم الله الرحمن الرحيم(: هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم و أموالهم و لكنائسهم و صلبانهم، و سقيمها و بريئها، و سائر ملتها، إنه لا تسكن كنائسهم، و لا تهدم و لا ينقص منها و لا من حيزها، و لا من صلبهم و لا من شئ من أموالهم، و لا يكرهون على دينهم، و لا يضار أحد منهم، و لا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، و على أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، و عليهم أن يخرجوا منها الروم و اللصون[1]، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه و ماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان[2]، فمن شاء منهم قعد و عليه مثل ما على أهل الأرض قبل مقتل فلان. فمن شاء منهم قعد و عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم، وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية، شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة ١٥هـ (تاريخ الطبرى).

---

(١) وفى رواية: واللصوص، وهو الظاهر.
(٢) هكذا فى الأصل.

كتابه إلى أهل لد:

بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لد، ومن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص من حيزها ولا مللها ولا من صلبهم ولا من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين ان يعطوا الجزية كما يعطى أهل مدائن الشام، وعليهم إن خرجوا مثل ذلك الشرط إلى آخره (عن الطبرى).

كتب إلى سعد في اليوم الذى يرتحل فيه من شراف

أما بعد، فإذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوارس، وشرق بالناس وغرب بهم (عن الطبرى)

وكتب إليه أيضاً جواباً عن كتابه

أما بعد، فتعاهد قلبك، وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة، ومن غفل فليحدثهما والصبر الصبر، فإن المعونة تأتى من الله على قدر النية. والأجر على قدر الحسبة، والحذر الحذر على من أنت عليه وما أنت بسبيله، واسألوا الله العافية، وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله. واكتب إلى أين بلغك جمعهم ومن رأسهم الذى يلى مصادمتكم، فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتابة به إليك قلة علمى بما هجمتم عليه، والذى استقر عليه أمر عدوكم، فصف لنا منازل المسلمين، والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة كأنى أنظر إليها، واجعلنى من أمركم على الجلية، وخف الله وارجه ولا تدل بشئ، واعلم أن الله قد وعدكم، وتوكل لهذا الأمر بما لا خلف له، فاحذر ان تصرفه عنك، ويستبدل بكم غيركم.

وكتب إلى سعد وهو بشراف بريد العراق وحرب الفرس ما نصه:

أما بعد: فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين، وتوكل على الله، واستعن به على أمرك كله، واعلم فيما لديك أنك تقدم على أمة عددهم كثير، وعدتهم فاضلة، وبأسهم شديد، وعلى بلد منيع، وإن كان سهلا كؤوده لبحوره وفيوضه ودآدئه[1] إلا أن توافقوا غيضاً من فيض، وإذا لقيتم القوم أو احدأمنهم فابدءوهم الشر والضرب، وإياكم والمناظرة

(١) كؤوده أى صعبه، وفيوضه: أى مياهه الفائضة والدآدا جمع دأداه، وهو الفضاء الواسع، وتوافقوا أى تلاقوا: غيضاً من فيض أى قليلامن كثير: النقب الطريق يكون فى الجبل والثقب وجمعهاأنقاب، ولعل مراده بالأنقاب هنا أنقاب القناطر التى على الأنهار، والحجر والمدر كناية عن البادية والعمران أو المدن والفضاء لأن المدر هى المدن والحجر هى نقا الرمل، وقوله أنغضتهم أى حركتهم.

لجموعهم، ولا يخدعنكم فإنهم خدعة مكرة، أمرهم غير أمركم، إلا أن تجادوهم، وإذا انتهيت إلى القادسية فى باب فارس فى الجاهلية وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأصل، وهو منزل رغيب خصيب رحيب دونه قناطر وأنهار ممتنعة، فتكون مسالحك على أنقابها، ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما، ثم الزم مكانك فلا تبرحه، فإنهم إذا أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم، فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم، وإن تكن الأخرى كان الحجر فى أدباركم فانصرفتم من أدنى مدبرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح ويرد لكم الكرة عليهم (هذا الكتاب وما قبله عن الطبرى):

وكتب إلى سعد:

وقد جاءنى كتابك وفهمته، فأقم مكانك حتى ينغض الله عدوك، واعلم أن لها ما بعدها، فإن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن، فإنه خرابها إن شاء الله (الطبرى).

وكتب إليه أبو عبيدة ومعاذ بن جبل ينصحانه

(بسم الله الرحمن الرحيم): من أبى عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب: سلام عليك، فإنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو (أما بعد) فإنا عهدناك وأمر نفسك لك مهم، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها، يجلس بين يديك الصديق والعدو، والشريف والوضيع، ولكل حصة من العدل، فانظر كيف أنت يا عمر عند الله، وإنا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه، وتجب[1] له القلوب. وتنقطع فيه الحجج بحجة ملك قهرهم بجبروته، والخلق داخرون[2] له يرجون رحمته ويخافون عقابه، وإنا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة يرجع فى آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة، وإنا نعوذ بالله أن تنزل كتابنا سوى المنزل الذى نزل من قلوبنا فإنا إنما كتبنا إليك نصيحة لك والسلام.

فتكب إليهما

(بسم الله الرحمن الرحيم): من عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح ومعاذ بن جبل: سلام عليكما، فإنى أحمد إليكما الله الذى لا إله إلا هو (أما بعد) فقد جاءنى كتابكما تزعمان أنه بلغكما أنى وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها يجلس بين يدى الصديق

(١) تخاف
(٢) أى أذلاء صاغرون

والعدو ،والشريف والوضيع، وكتبتما أن انظر كيف أنت يا عمر عند ذلك، وإنه لا حول ولا قوة لعمر عند ذلك إلا بالله، كتبتما تحذرانى ما حذرت به الأمم قبلنا، وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد ويأتيان بكل موعود، حتى يصير الناس إلى منازلهم من الجنة والنار، ثم توفى كل نفس بما كسبت إن الله سريع الحساب، كتبتما تزعمان أن أمر هذه الأمة يرجع فى آخر زمانها أن يكون إخوان العلانية أعداء السريرة، ولستم بذاك، وليس هذا ذلك الزمان، ولكن زمان ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة، فتكون رغبة بعض الناس إلى بعض إصلاح دينهم ورهبة بعض الناس إصلاح دنياهم، وإنما كتبتما نصيحة لى، وقد صدقتما فتعهدانى منكما بكتاب فلا غنى بى عنكما والسلام عليكما (مفتاح الأفكار).

وجوب التناصح فى الإسلام

وأنت ترى من هذين الكتابين كيف كان المسلمين يتناصحون بالمعروف عملاً بأمر كتابهم وهدى نبيهم، ولا يمتنعون عن أداء النصيحة للإمام لكونه إماماً له عليهم السلطان، بل يرون أن النصيحة به أحرى وله أولى، وأن له عليهم حق الطاعة، كما لهم عليه حق النصيحة والإرشاد إلى مواقع الخطأ والتعهد بما يقيم الأود ويصلح العمل، شأن الأمم التى تعاون رؤساءها على البر، وتعتمد فى رفع شأنها على قوة التكافل فى الحق والتعاون على شؤون الملك، وقد انتهت بهم حرية الفكر والانطلاق عن قيود العبودية والقيام على حسن المناصحة، ألا يغفلوا ساعة عن نصيحة الإمام وهو من هو: فذ الأمة الإسلامية وفخر الإسلام والمثل المضروب فى التقوى والعدل عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعنهم أجمعين، وقد بلغ بهم الإغراق فى حرية الضمائر وعدم الإمساك عن الحق أن قال أحدهم لمثل ذلك الخليفة العظيم لما سأله عما إذا ترخص بأمر من أمور المسلمين (لو فعلت لقومناك تقويم القدح) أى تقويم السهم المعوج، كما رأيت ذلك فيما سبق فما ازداد ذلك الخليفة العظيم إلا سروراً بقول ذلك المسلم، واستبشاراً فى أن المسلمين قائمون على شؤونهم، رجال فى أخلاقهم متمسكون بشرع نبيهم متنبهون لكل خطأ يصدر عن خليفتهم، وكان ذلك دأبه مع الناس فى استطلاع طلع ضمائرهم من جهته ليعلم مبلغ الحياة فيهم، ويسترشد إلى عيوبه بجميل نصحهم وصادق قولهم، ولم يكن يخطر له على بال أو يمر له فى خيال أن استرشاده بآراء ذوى الرأى والبصيرة من المسلمين وانتصاحه بنصائحهم فيه حطة من شأنه أو مس لسلطانه، لهذا كتب لأبى عبيدة ومعاذ لما نصحاه فى آخر كتابه (قد صدقتما فتعهدانى منكما بكتاب فلا غنى بى عنكما) وقد رأيت فيما مر زجره لمن اعترض على قائل قال له اتق الله يا عمر، وقوله

للمعترض دعه فلا خير فيكم إذا لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نسمعها، إذا تقرر هذا علمنا أن التناصح بين المسلمين واجب لا يستثنى منه أمير ولا صغير، بل الأمير أولى بأن ينصح ويستنصح بسبب ما أوسد إليه من أمور الملك التى ليس من طوق الآحاد القيام بها، إلا إذا سلكوا سبيل الأثرة وأطاعوا هوى النفوس فكان الإنفراد بالسلطان والتسلط على الرعية والتطوح بمصالح الملك والدولة فى مهاوى الهوى أحب إليهم من الانتصاح بنصيحة الأعوان والأخذ على شكائم النفوس الأمارة بالسوء، التى يقودها الهوى إلى تصور أن الإمارة مرتبة لا ينبغى لها أن تكون إلا فى مصاف الملائكة المقربين أو الأنبياء المعصومين، وحبذا لو تحقق هذا التصور لإنسان من أولئك الرؤساء، إذن والله لحكموا الناس بحكم الأنبياء، وهو هوالتناصح الذى يهربون منه التعاون الذى يترفعون عنه، وحسب هذا الترفع آفة أنه أودى بدولة بنى مروان فى إبان شبابها كما أودى بكثير من أضرابها.

المناصحة بالمعروف أس من أسس السعادة فى كل قبيل وعصر، بل هى مدرسة الأمة التى يتربى فيها الأخلاق وتنمو الفضيلة وتتطهر الأعراق وتنبت روح الألفة والتعاون، وليس لمدرسة مثلها أثر فى الأخلاق ومؤثر فى نفوس الأمة قط، إذ تتناول بالتعليم الكبير والصغير عفواً بلا أجر، وتسرى روحها بين الطبقات مختارة بلا إكراه، فيربى الكبير والصغير ويرشد المهتدى الضال، وينصح الصغير الكبير، وكلهم يتبادل العوض مع الآخر بما ينفعه فى أخلاقه ويقوم أوده فينتفع الكل بالكل، وتنعم السعادة والرخاء سائر الناس.

أجل هذه هى المدرسة التى ربت مثل معاذ وأبى عبيدة وعمر وأضرابهم من عامة المسلمين وخاصتهم، فسادوا بالمناصحة والإخلاص على كل الأمم وأدهشت سيرتهم عقول الشعوب، وامتد ظل سلطانهم على نصف الكرة ونالهم من السعادة والعز والمجد فوق ما رأيت فى هذا الكتاب.

وهى هى المدرسة التى علمت الشعوب الأوربية حرية الضمائر والأفكار، ورفعتهم من حضيض الجهالة، وسلكت بهم سبيل المجد وسودتهم لهذا العهد على الأمم، فملكوا ثلاثة أرباع المعمور.

ليس بعجيب أن يصير المسلمون فى أسر الدول المتغلبة، ويتقلص ظل مجدهم عن الأرض بعد إذ كان شأنهم فى المناصحة والقيام على الحق ما ذكر، ثم بلغ ترك المناصحة

وانحطاط النفوس والأخلاق بفريق كبير منهم أن صاروا يعدون الناصح بالمعروف خارجاً عن دينه خارجاً على سلطانه، والدين يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ﴾{النساء/١٣٥}﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾{الأنعام/١٥٢} والنبى يقول (من لم يحمد عدلاً ولا يدم جوراً فقد بارز الله تعالى بالمحاربة)[1]. ومن البديهى أن مدح العدل وذم الجور إنما يكون بأن يقول المسلم للعادل المحسن عدلت وأحسنت، وللجائر على نفسه أو على غيره جرت وأسأت، فاستقم كما أمرت، وهو من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، الذى وردت آياته الباهرة فى الكتاب الكريم.

ومن الإغراق فى الجهالة فى الانحطاط أن يرى المسلمون بلادهم تتخرب واستقلالهم ينتزع وملكهم يزول ودولتهم تدول، والأوربيون قد غلبوا على أمرهم وزاحموهم فى ملكهم وتحكموا فيهم وفى دولهم وسبقوهم فى العلم والمعارف والاختراع وأجلبوا علهيم بالخيل والرجل وسدوا دونهم منافذ الصناعة والتجارة، وإذا دعاهم ناصح من إخوانهم غيور من بنى دينهم إلى النظر فى أسباب انحطاطهم وارتقاء غيرهم وتقهقرهم وتقدم سواهم وأبان لهم طرفاً من تلك الأسباب وحكمهم فى التفريق بين خطئها والصواب أعرضوا عنه إعراض المريض عن الماء الزلال، بل ربما رماه بعضهم بأنواع الزور وتقرب بماله وأهله ودمه إلى ولاة الأمور رجاء نيل الحظوة عندهم والتزلف إليهم واكتساب رضاهم، وإن أغضب الله والمروءة والوجدان، وخرج عن الإنسانية والدين إذا لا وازع من النفس ينهاه ولا فضيلة تلوى عنان شهوته عن ظلم أخيه.

---

(١) أخرج هذا الحديث فى أسد الغابة فى ترجمة المغيرة بن نوفل.

الخطب العمرية

أول خطبه خطبها عمرﷺ أن صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال:

(اللهم إنى شديد فلينى، وإنى ضعيف فقونى، وإنى بخيل فسخنى) وقد رأينا هذه الخطبة فى العقد الفريد بعباة أطول إلا أنها لا تخرج عن هذا المعنى.

وفى تاريخ الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال لما ولى عمر بن الخطاب خطب الناس على منبر رسول اللهﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال.

أيها الناس إنى قد علمت أنكم كنتم تؤنسون منى شدة وغلظة، وذلك أنى كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه وجلوازه (شرطيه)، وكان كما قال الله تعالى بالمؤمنين رءوفاً رحيماً، وكنت بين يديه كالسيف المسلول إلا أن يغمدنى أو ينهانى عن أمر فاكف عنه، وإلا أقدمت على الناس لمكان أمره فلم أزل مع رسول اللهﷺ على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راض والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد، ثم قمت ذلك المقام مع أبى بكر الصديق خليفة رسول الله بعد رسول الله وكان من قد علمتم فى رغبه ولينه، فكنت خادمه وجلوازه وكنت كالسيف المسلول بين يديه على الناس، أخلط شدتى بلينه إلا أن يتقدم إلى فأكف وإلا أقدمت، فلم أزل حتى توفاه الله فكان عنى راضياً والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد. ثم صار أمركم اليوم إلى وأنا أعلم أنه يقول قائل كان يشتد علينا والأمر إلى غيره فكيف به لما صار الأمر إليه، فاعلموا أنكم لا تسألون عنى أحداً قد عرفتمونى وخبرتمونى وقد عرفت بحمد الله من محمدﷺ نبيكم ما قد عرفت، وما أصبحت نادماً على شئ كنت أحب أن أسأله إلا وقد سألته، واعلموا أن شدتى التى كنتم ترونها ازدادت أضعافاً عن الأول على الظالم والمتعدى، والأخذ للمسلمين لضعيفهم من قويهم، وإنى بعد شدتى تلك واضع خدى إلى الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف، إن كان بينى وبين من هو منكم شئ من أحكامكم أن أمشى معه إلى من أحبه منكم فينظر فيما بينى وبينه: فاتقوا الله عباد الله وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم.

وفى تاريخ الحافظ ابن عساكر أيضاً عن الشعبى قال: لما ولى عمر بن الخطاب صعد المنبر فقال:

ما كان الله ليرانى أن أرى نفسى أهلاً لمجلس أبى بكر فنزل مرقاة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: اقرءوا القرآن تعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وترتبوا للعرض الأكبر يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية. إنه لم يبلغ حق ذى حق

أن يطاع في معصية الله[1] الا وأني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة ولي اليتيم إن استغنيت عففت وأن افتقرت أكلت بالمعروف.

وفي الخراج لأبي يوسف خطبة بهذا المعنى إلا أنها أطول وأجمع رواها عن طلحة بن معدان قال:

خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمد الله وأثنى عليه، ثم صلى على النبي وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال: أيها الناس لم يبلغ ذو حق في حقه أن يطاع في معصية الله، وإني لا أجد هذا المال يصلحه إلا خلال ثلاث أن يؤخذ بالحق ويعطى في الحق ويمنع من الباطل، وإنما أنا ومالكم كولي اليتيم إن استغنيت استعففت وإن افتقرت أكلت بالمعروف، ولست أدع أحداً يظلم أحداً ولا يعتدى عليه حتى أضع خده على الأرض واضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق، ولكم عليّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها: لكم على ألا أجبي شيئاً من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ولكم على إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه: ولكم على ألا أزيد أعطياتكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم: ولكم على ألا ألقيكم في المهالك ولا أجمركم "أحبسكم" في ثغوركم وقد اقترب منكم زمان قليل الأمناء كثير القراء قليل الفقهاء كثير الأمم يعمل فيه أقوام للآخرة، يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب، ألا من أدرك ذلك منكم فيتق الله ربه وليصبر: يأيها الناس إن الله عظم حقه فوق حق خلقه، فقال فيما عظم من حقه ﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ {آل عمران/٨٠} ألا وإني أبعثكم أمراء ولا جبارين، ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم، فأدروا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم، لا تغلقوا الأبواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم، ولا تستأثروا عليهم وقاتلوا لهم الكفار طاقتهم فإذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك فإن ذلك أبلغ في جهاد عدوكم، أيها الناس إني أشهدكم على أمراء الأمصار إني لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيئهم ويحكموا بينهم فإن أشكل عليهم شئ رفعوه إليّ.

هذه الخطبة من أجمع خطبه، لأنها تمثل عدله وسياسته وعقيدته وتحدد وظيفته وتبين مقاصده وتنبئ عن إخلاصه في خدمة المسلمين، وشدته على الظالمين ورأفته بالمظلومين إلى غير ذلك مما يدركه القارئ من معاني هذه الخطبة الغراء فرضي الله عنه.

---

(١) يعني بذي الحق نفسه وهو الحق الذي يعين به حد السلطة العليا بما لا يتعدى ما أمر الله من العدل إلى ما تأمر به النفس وتطلبه السيادة وهو من قبيل أبي بكر رضي الله عنه في إحدى خطبه أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فرضي الله عن تلك النفوس السامية ما كان أعرفها للحق والعدل، وألزمها لشرعه الإنصاف مع الرعية

وخطب خطبة:

فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه:

يأيها الناس إنى قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب عن مهم أموركم ما توليت ذلك منكم، ولكفى عمر مهماً محزناً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها ووضعها أين أضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربى المستعان فأن عمر أصبح لا يثق بقوة ولا حيلة إن لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده (تاريخ الطبرى).

وخطب فقال:

إن الله عز وجل قد ولانى أمركم وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم، وإننى أسأل الله أن يعيننى عليه وأن يحرسنى عنده كما حرسنى عند غيره، وأن يلهمنى العدل فى قسمكم كالذى أمر به، ولن يغير الذى وليت من خلافتكم من خلقى شيئاً إن شاء الله، إنما العظمة لله عز وجل وليس للعباد منها شئ، فلا يقولن أحد منكم إن عمر تغير منذ ولى، أعقل الحق من نفسى وأتقدم وأبين لكم أمرى فأيما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة أو عتب علينا فى خلق فليؤذننى[1] فإنما أنا رجل منكم فعليكم بتقوى الله فى سركم وعلانيتكم، وحرماتكم، وأغراضكم وأعطوا الحق من أنفسكم، ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلى فإنه ليس بينى وبين أحد من الناس هوادة[2]، وأنا حبيب إلى صلاحكم عزيز على عتبكم، وأنتم أناس عامتكم حضر فى بلاد الله وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه، وإن الله عز وجل قد وعدكم كرامة كثيرة، وأنا مسئول عن أمانتى وما أنا فيه ومطلع على ما بحضرتى بنفسى إن شاء الله لا أكله إلى أحد ولا أستطيع ما بعد منه إلا بالأمناء وأهل النصح منكم للعامة ولست أجعل أمانتى إلى أحد سواهم إن شاء الله (تاريخ الطبرى).

وخطب أيضاً

فقال بعد ما حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبى ﷺ: أيها الناس إن بعض الطمع فقر وإن بعض اليأس غنى، وإنكم تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون، وأنتم مؤجلون فى دار غرور، كنتم فى عهد رسول الله تؤخذون بالوحى، فمن أسر شيئاً أخذ بسريرته ومن أعلن شيئاً أخذ بعلانيته فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر، فإنه من أظهر لنا شيئاً وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً، واعلموا أن بعض الشح شعبة من النفاق ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ

---

(١) اى فليعلمنى وهى من اذنه بالأمر اى اعلمه به.

(٢) الهوادة بالفتح الصلح والاختصاص بالميل.

شحَّ نفسه ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ {الحشر/٩} أيها الناس اطيبوا مثواكم وأصلحوا أموركم واتقوا الله ربكم، ولا تلبسوا نساءكم القباطى فإنه إن لم يشف فإنه يصف[١] أيها الناس إنى لوددت أن أنجو كفافاً لا لى ولا على وإنى لأرجو إن عمرت فيكم يسيراً أوكثيراً أن أعمل بالحق فيكم إن شاء الله وألا يبقى أحد من المسلمين وإن كان فى بيته إلا أتاه حقه ونصيبه من مال الله ولا يعمل إليه نفسه ولم ينصب[٢] إليه يوماً وأصلحوا أموالكم التى رزقكم الله ولقليل فى رفق خير من كثير فى عنف، والقائل حتف من الحتوف يصيب البر والفاجر، والشهيد من احتسب نفسه وإذا أراد أحدكم بعيراً فليعمد إلى الطويل العظيم فليضربه بعصاه فإن وجده حديد الفؤاد فليشتره (تاريخ الطبرى ٤).

وخطب أيضاً:

فقال: إن الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر، واتخذ عليكم الحج فيما أتاكم من كرامة الآخرة والدنيا عن غير مسئلة منكم له ولا رغبة منكم فيه إليه، فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته، وكان قادراً أن يجعلكم لأهون خلقه عليه فجعل لكم عامة خلقه عليه ولم يجعلكم لشئ غيره، وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ[٣] عليكم نعمه ظاهرة وباطنه، وحملكم فى البر والبحر ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون، ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بنى آدم ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ثم صارت تلك النعم نعمة وصلت إلى امرئ خاصة إلا لو قسم ما وصل إليه منها بين الناس كلهم أتعبهم شكرها وفدحهم[٤] حقها، إلا بعون الله مع الإيمان بالله ورسوله فأنتم مستخلفون فى الأرض قاهرون لأهلها قد نصر الله دينكم، فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم إلا أمثال أمة مستعبدة للإسلام وأهله يجزون لكم يستصفون معائشهم وكدائحهم ورشح جباهم[٥]، عليهم المؤونة ولكم المنفعة وأمة تنتظر وقائع الله وسطواته فى كل يوم وليلة قد ملأ الله قلوبهم رعباً فليس لهم معقل[٦] يلجئون إليه ولا مهرب يتقون به، قد دهمتم جنود الله عز وجل ونزلت بساحتهم مع رفاغة العيش[٧] واستفاضة المال، وتتابع البعوث وسد الثغور بإذن الله مع العافية الجليلة العامة، التى لم تكن هذه الأمة على أحسن منها مذ كان الإسلام والله المحمود مع الفتوح العظام فى كل بلد، فما عسى أن يبلغ مع هذا شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد

---

(١) القباطى أثواب مشهورة وشف رق لمحكى ما تحته ويصف لعله من الوصف أو من المواصف وهو أن يصفوا الشئ بعضهم لبعض

(٢) ولا يعمل إليه نفسه أى لا يجهد نفسه إليه أى يأتيه بلا طلب، ولم ينصب أى لم يتعب

(٣) أفاض

(٤) أثقلهم

(٥) قوله يجزون أى يعطون الجزية، وكدائحهم أى سعيهم أو مكاسبهم، ورشح الجباه عرقها.

(٦) حصن وملجأ.

(٧) رفاغة العيش سعته وخصبة

المجتهدين مع هذه النعم التى لا يحصى عددها ولا يستطاع أداء حقها إلا بعون الله ورحمته ولطفه فنسأل الله الذى لا إله إلا هو الذى أبلانا هذا أن يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة إلى مرضاته، واذكروا عباد الله بلاء الله عندكم واستتموا نعمة الله عليكم وفى مجالسكم مثنى وفرادى، فإن الله عز وجل قال لموسى ﴿أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ {إبراهيم/٥} وقال لمحمد ﷺ ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ﴾{الأنفال/٢٦} فلو كنتم إذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها وتستريحون إليها مع المعرفة بالله ودينه وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك، ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة وأثبته باتمه جهالة، فلو كان هذا الذى استشلاكم[1] به لم يكن معه حظ فى دنياكم، غير أنه ثقة لكم فى آخرتكم التى إليها المعاد والمنقلب، وأنتم من جهد المعيشة على ما كنتم عليه أحرياء أن نشحوا على نصيبكم منه وأن تظهروه على غيره قبله، أما إنه قد جمع لكم فضيلة الدنيا وكرامة الآخرة، ومن شاء أن يجمع له ذلك منكم فأذكركم الله الحائل بين قلوبكم إلا ما عرفتم حق الله فعملتم له وقسرتم أنفسكم على طاعته، وجمعتم مع السرور بالنعم خوفاً لها ولإنتقالها ووجلا منها ومن تحويلها فإنه لا شئ أسلب للنعمة من كفرانها، وأن الشكر أمن للغير ونماء للنعمة واستجلاب للزيادة، هذا لله على من أمركم ونهيكم واجب (تاريخ الطبرى).

وخطب لما شيع جيش سعد بن أبى وقاص

إن الله تعالى ضرب لكم الأمثال وصرف لكم القول ليحيى به القلوب، فإن القلوب ميتة فى صدورها حتى يحييها الله، من علم شيئاً فلينتفع به. وإن للعدل أمارات وتباشير فأما الأمارات فالحياء والسخاء والهين واللين، وأما التباشير فالرحمة، وقد جعل الله لكل أمر باب، ويسر لكل باب مفتاحاً، فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد، والاعتبار ذكر الموت بتذكر الأموات والاستعداد له بتقديم الأعمال، والزهد أخذ الحق من كل أحد قبله حق (أى عنده) وتأديه الحق إلى كل أحد له حق، ولا تصانع فى ذلك أحداً، واكتف بما يكفيه من الكفاف فإن من لم يكفه الكفاف لم يغنه شئ، إنى بينكم وبين الله وليس بينى وبينه أحد وإن الله قد ألزمنى رفع الدعاء عنه فانهوا شكاتكم إلينا، فمن لم يستطع فإلى من يبلغناها نأخذ له الحق غير متعتع[2] (تاريخ الطبرى)

وسمع مرة أن نفراً يقولون لو مات عمر لبايعنا فلاناً اعتماداً منهم على أن بيعة أبى بكر

(١) استشلاه دعاه لينجيه من ضيق أو هلاك
(٢) فى القاموس تعته أى تلتله وحركه بعنف أو أكرهه فى الأمر

تمت بمبايعة نفر من المهاجرين والأنصار فأراد عمر أن يبين لهم أن بيعة أبى بكر كانت فلتة وأن أهليته واستعداده وحرج الموقف الذى وقف به المسلمون يومئذ سوغ تلك البيعة، فخطب فيهم هذه الخطبة التى رواها الشيخان فقال:

قد بلغنى أن فلاناً منكم يقول لو مات عمر بايعت فلاناً فلا يغترن امرؤ أن يقول إن بيعة أبى بكر كانت فلتة، ألا وإنها كانت كذلك إلا أن الله وقى شرها، وليس فيكم اليوم من تقطع إليه الأعناق مثل أبى بكر وإنه كان من خيرنا حين توفى رسول الله، وأن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا فى بيت فاطمة وتخلف الأنصار عنا بأجمعها فى سقيفة بنى ساعدة، واجتمع المهاجرون إلى أبى بكر فقلت يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان فذكرا لنا الذى صنع القوم، فقالا أين تريدون يا معشر المهاجرين قلت نريد إخواننا من الأنصار فقالا عليكم أن لا تقربوهم واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين، فقلت والله لنأتينهم. فانطلقنا حتى جئناهم فى سقيفة بنى ساعدة فإذا هم مجتمعون وإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت من هذا قالوا سعد بن عبادة فقلت ماله قالوا وجع، فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله وقال (أما بعد) فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة[1] منكم يريدون أن تختزلونا من أصلنا وتحصنوننا من الأمر، فلما سكت أردت أن أتكلم وقد كنت زورت مقالة أعجبتنى أردت أن أقولها بين يدى أبى بكر، وقد كنت أدارى منه بعض الجد وهو كان أحلم منى وأوقر فقال أبو بكر على رسلك فكرهت أن أغضبه وكان أعلم منى، والله ما ترك من كلمة أعجبتنى فى تزويرى إلا قالها فى بداهته وأفضل حتى سكت فقال:

أما بعد فما ذكرتم من خير فأنتم أهله ولم تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين أيهما شئتم. فأخذ بيدى وبيد أبى عبيدة بن الجراح، فلم أكره مما قال غيرها وكان والله أن أقدم فتضرب عنقى لا يقربنى ذلك، من ثم أحب إلىّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر فقال قائل من الأنصار أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب، منا أمير ومنكم أمير، يا معشر قريش وكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى خشيت الاختلاف فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار، أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمراً هو أوفق من مبايعة أبى بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بعدنا بيعة، فإما أن نبايعهم على ما نرضى، وإما أن نخالفهم فيكون فيه فساد.

---

[1] الدفة الجيش يدفون نحو العدو، والاختزال: الانتطاع، وتحصنوننا تكفوننا.

وخطب فقال:

أيها الناس ما الجزع مما لابد منه، وما القطع فيما لا يرجى وما الحيلة فيما سيزول، وإنما الشئ من أصله وقد مضيت قبلنا أصول ونحن فروعها فما بقاء الفرع بعد أصله، إنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضل[1] المنايا فيهم وهم نصف المصائب، مع كل جرعة شرق وفى كل أكلة غصص لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يستقبل معمر من عمره شيئاً إلا بهدم اخر من أجله، وأنتم أعوان الحتوف على أنفسكم فاين المهرب مما هو كائن، وإنما ينقلب الهارب فى قدرة الطالب، فما أصغر المصيبة اليوم مع عظم الفائدة غداً وأكثر جنبة الجانب، جعلنا الله وإياكم من المتقين (مفتاح الأفكار).

وخطب فقال:

أيها الناس: إنه أتى علىّ حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنه إنما يريد به الله وما عنده إلا وقد خيل إلىّ إن أقواماً يقرأون القرآن يريدون به ما عند الناس، وألا فأريد والله بقراءتكم وأريده بأعمالكم، فإنا كنا نعرفكم إذ الوحى ينزل وإذ النبى ﷺ بين أظهرنا فقد رفع الوحى وذهب النبى، فإنما نعرفكم بما أقول لكم ألا فمن أظهر لنا خيراً ظننا به خيراً وأثنينا به عليه، ومن أظهر لنا شراً وأبغضناه عليه، اقدعوا[2] هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلعة فإنكم إلا تقدعوها تنزغ بكم إلى شر غاية، إن هذا الحق ثقيل مرئ، وإن الباطل خفيف وبطئ وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة، ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلاً (مفتاح الأفكار).

وخطب فقال:

إنما الدنيا أمل مخترم[3] وأجل منتقض وبلاغ إلى دار غيرها، وسير إلى الموت، ليس فيه تعريج، فرحم الله امرأ فكر فى أمره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه، بئس الجار الغنى يأخذك بما لا يعطيك من نفسه فإن أبيت لم يعذرك، إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية إلى السقم، وعليكم بالقصد فى قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة، وإن العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه (مفتاح الأفكار).

---

(١) فى أساس البلاغة وخرجوا إلى النضال وهم يتناضلون وينتضلون: ومعناه يتراءون ويتبارون

(٢) قوله اقدعوا أى كفوا، وقوله نفس طلعة تكثر التطلع إلى الشئ

(٣) مخترم أى منتقص وقوله منتقض من الانتقاض هو التراجع والانتكاث.

الفتح الإسلامى

بقيادة عمر بن الخطاب

عمر الفاتح

الروح الذى وجه المسلمين إلى النصر الباهر

مهما بعد العهد فيس ينقضى عجب المؤرخين وعشاق البطولة من فعال قواد العرب القدماء أمثال المثنى بن حارثة، وخالد بن الوليد، وسعد بن أبى وقاص، وأبى عبيدة بن الجراح، وعمرو بن العاص، وحذيفة بن اليمان. فهم الذين قوضوا ملك كسرى وزازلوا عرش قيصر، وهم الذين شادوا فى مدى من الزمن لا يتجاوز عشر سنوات ملكاً ضخما انتظم الجزيرة والعراق وفارس والشام ومصر، ولكن ينبغى ألا ينسينا لألاء هذه الفتوح، وما انعقد على مفارق هؤلاء الأبطال المغاوير من أكاليل المجد، أنهم ما كانوا يفعلون ما فعلوا ويبلون ما أبلوا لولا روح فياض غمرهم، وعقل جبار سيطر عليهم، وعزيمة ماضية صرفتهم، هى روح عمر بن الخطاب وعقله وعزيمته

ولعلنا لا نكون مسرفين إذا قلنا أنهم جميعاً لم يزيدوا على أن يكونوا أعواناً وجنوداً لعب بهم عمر لعبة الحرب الرهيبه مع كسرى وقيصر، وانه فى حقيقة الأمر هو الفاتح الذى فتح الممالك ودوخ الأمصار، وأقام الدولة العربية عالية الذرى ثابتة الأساس متينة البنيان. ورعى الله أبا الطيب حيث يقول:

الرأى قبل شجاعة الشجعان	هو أول وهو المحل الثانى
ولربما طعن الفتى أقرانه	بالرأى قبل تطاعن الأقران

لم يكن عمر قبل الخلافة بالجندى البارز بروز من ذكرنا من القواد. وتعليل ذلك الخمول الظاهرى غير عسير، لقد كانت سنه فى الجاهلية أصغر من أن تأذن له بغشيان الحرب. أما زمن النبوة والخلافة الأولى فكان سداد رأيه وشجاعته الأدبية أثر عند الرسول وعند أبى بكر من شجاعته الحربية، فكان عندهما أظهر فى مقام الرأى والمشورة منه فى مشاهد الجلاد والطعن. على أن عمر كان من غير شك ذا كفاية حربية ممتازة اكتسبها من حضوره المشاهد مع رسول الله ومن تدبيره قتال الردة مع أبى بكر. وقد أدرك أبو بكر تلك الكفاية وود لو أنه انتفع بها انتفاعاً مباشراً. فيروى أنه قال وهو على فراش الموت: "ووددت أنى كنت إذ وجهت خالد بن الوليد إلى الشام كنت وجهت عمر بن الخطاب إلى العراق فكنت بسطت يدى كلتيهما فى سبيل الله".

فقد عده أبو بكر عدل "سيف الله" وضريعه، وكفى بذلك دليلاً على رسوخ قدمه فى فن

الحرب وكفايته فى شئون القتال، فلما ولى عمر الخلافة ظهرت تلك الكفاية أيما ظهور وأثمرت أيما ثمر

كانت كفاية عمر الحربية من ذلك الطراز العالى الذى يقوم على قوة التصور، وسلامة الادراك، والاحاطة بطبائع البشر أفراداً كانوا أو جماعات،وعلى معرفة الفرص عند سنوحها والعلم بطرق افتراضها، ومواجهة الأزمات والطب لها، هذا إلى نشاط جم، وعزيمة صارمة، وذهن نفاذ. وهى صفات لم تجتمع بعد رسول الله لواحد من المسلمين غير عمر بن الخطاب

وكان لعمر مظهر ومخبر، ويا بعد ما كان بين مظهره ومخبره! فهو بادى الرأى رجل من اهل المدينة، ساذج العيش، يأكل اجشب الطعام، ويلبس أخشن الثياب، وينام حيث يدركه النوم، سلاحه درته، ومطيته قدمه، يروح ويغدو كأحد الناس، لا يفضلهم إلا بأنه أول خدامهم، وأشبه سادتهم بعبدانهم. بيد أنه إذا تأمله المتأمل وقد نصب نفسه لحرب الفرس والروم لرأى دون ذلك المظهر أحوذياً مشمراً، قد استحضر فى ذهنه ميادين القتال فى الشرق والغرب، فهو ينتخب الرجال ويعبئ الجنود، ويرسم المواقع، ويختط الخطط، ويبعث رجلاً بعينه إل العراق وآخر إلى الشام وثالثاً إلى مصر، ويأمر بالإقدام تارة، وبالأحجام أخرى، وينقل الأمداد من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، لا يكاد يستأخر حسابه فى ذلك أو يستقدم يوماً واحداً. فإذا ما أحكم الخطة وأعد العدة قال لأصحابه فى هدوء الواثق بنجاح مسعاه: "قد رمينا ملوك العجم بملوك العرب، فانظروا عم تنجلى!" فإذا ما أفلح سعيه، وأثمر غرسه وجاءه نبأ الفتح والظفر تلقاه فى خشوع وإخبات وتواضع تزيده روعة وعظمة وجلالا.

وعهد الفاروق عمر بن الخطاب، هو عهد الفتح الإسلامى الذهبى، فقد حالف النصر فيه أعلام المسلمين، فامتدت دولتهم حتى جاوزت أفغانستان إلى حدود الصين شرقاً، والأناضول وبحر قزوين شمالاً، وتونس وما وراءها من إفريقيا الشمالية غرباً، وبلاد النوبة جنوباً.

لقد فتح عمر العراق وإيران وأكثر مناطق إرمينية وأرض الشام بما فيها سوريا ولبنان وشرقى الأردن وفلسطين، ومصر وليبيا والنوبة، وخاضت جيوش المسلمين فى أيامه ثلاث معارك حاسمة من معارك الفتح الإسلامى: معركة (القادسية) التى فتحت للعرب المسلمين أبواب العراق والأهواز، ومعركة (بابليون) التى فتحت لهم أبواب مصر وليبيا والنوبة، ومعركة (نهاوند) التى فتحت لهم أبواب بلاد فارس كلها.. كل هذا الفتح العظيم أنجز خلال عشر سنوات من سنة ثلاث عشرة هجرية (٦٣٣م) إلى سنة ثلاث وعشرين هجرية (٦٤٣م)، فقد قبض أبو بكر بعد مغيب الشمس من سماء الأثنين لاحدى وعشرين ليلة خلت

من شهر جمادى الآخرة للسنة الثالثة عشرة من الهجرة فتولى عمر الخلافة، وتوفى ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين الهجرية، فكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام.

فى هذه المدة القصيرة، فتح عمر كل هذه الفتوح، فلا عجب أن يذهل هذا الفتح عالم يومئذ ويدهش المؤرخين الذين فصلوا حوادثه وحاولوا استقصاء أسبابه، فذكروا أن من هذه الأسباب: العقيدة الإسلامية التى رفعت نفسية ومعنويات المسلمين، وانحلال الفرس والروم، ونظام الحكم فى شبه الجزيرة العربية الذى تطور خلال السنوات العشرين التى تلت هجرة الرسولﷺ تطوراً مكن الأماكن العربية من مواجهة تلك الأحداث التاريخية الجليلة فى طمأنينة زادتها اعتزازاً بنفسها وشعوراً بقوتها وإيماناً برسالتها العالمية.

فإذا أسرع الفتح ما أسرع فى عهد عمر، فيجب أن يكون له تأثير شخصى على الجيوش الإسلامية: فى تنظيمها وتسليحها وتدريبها وإدارتها وقيادتها، وذلك ما لم يبحثه الباحثون من الناحية العسكرية الفنية بشكل متكامل حتى اليوم.

كانت سياسة عمر أن يقف بالفتح فى حدود العراق والشام لا يتعداهما وأن يجمع العرب بذلك فى وحدة تمتد من جنوب شبه الجزيرة العربية إلى شمال بادية (السماوة)، لذلك كتب إلى سعد بن أبى وقاص، بعد فتح المدائن حين بعث يستأذنه فى مطاردة الفرس وراء جبلهم: "وددت لو أن بين السواد والجبل سداً لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم! حسبنا من الريف السواد. إنى اثرت سلامة المسلمين على الأنفال". وقال لما فتحت الأهواز وما يليها: قال "وددت أن بيننا وبني فارس جبلاً من نار لا نصل إليهم منه ولا يصلون إلينا".

على أن الحوادث كثيراً ما تكون أقوى من الرجال، وكثيراً ما حملتهم على تعديل اتجاههم وتغيير سياستهم، وقد حملت الحوادث عمر على تعديل سياسته بإزاء الفرس وبأزاء الروم على كره منه بادئ الأمر، ثم ملأته حماسة للسياسة الجديدة، بعد أن حالف النجاح هذه السياسة إلى مدى لم يتوقعه الخليفة ولم يتوقعه أحد غيره.

ولكن هذا النجاح كان بفضل قيادة عمر الفذة بالإضافة إلى العوامل الأخرى، تلك القيادة التى امتازت بميزتين ظاهرتين: الأولى مقدرته المدهشة على اختيار القادة العامين والقادة المرؤسين، والثانية قابليته الموهوبة والمكتسبة على القيادة العليا والقيادة التعبوية أيضاً، فكيف كان ذلك؟؟

ما هى المزايا التى كان يريد عمر أن تتوفر فى القائد الذى يؤمره على جيوش المسلمين؟

١ـ أن يكون القائد صحابياً، لأنهم كانوا لا يؤمرون فى الفتوح إلا الصحابة، فكان عمر لا يولى إلا الصحابة ولا يرضى أبداً أن يعمل صحابى بأمرة غير صحابى.

فقد كان للصحابة بصورة عامة تجارب طويلة مفيدة فى القتال تحت لواء الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام، اقتبسوا خلالها أعلى وأسمى ضروب التضحية والفداء وأنبل وأرفع آداب الحرب والسلام.

فقد كان الصحابة يقدمون ببسالة على خوض المعارك، لذلك كان القتل فيهم أكثرمن غيرهم: كان القتل فى الهاجرين والأنصار وأهل القرى أكثر منهم فى أهل البوادى، وذلك فى معركة اليمامة بين المسلمين وعلى رأسهم خالد بن الوليد وبين المرتدين وعلى رأسهم مسيلمة الكذاب. وقد قتل من المهاجرين والأنصار فى هذه المعركة من المدينة ثلاثمائة وستون ومن المهاجرين والأنصار من غير المدينة ثلاثمائة رجل، وقد أمر أبو بكر الصديق بجمع القرآن لما رأى من كثرة من قتل من الصحابة لئلا يذهب القرآن.

وعند مسير خالد بن الوليد من العراق إلى أرض الشام، أمره أبو بكر الصديق أن يأخذ معه نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيبانى، فاحضر خالد أصحاب رسول اللهﷺ الذين كانوا معه واستأثر بهم لنفسه تاركاً للمثنى مثل عددهم ممن لم يكن له مع الرسول القائد صحبه، واستأثر أيضاً لنفسه بمن كان قدم على النبىﷺ وافداً تاركاً للمثنى بن حارثة الشيبانى مثل عددهم من أهل القناعة، ثم قسم سائر الجند قسمين، فلما رأى المثنى صنع خالد غضب وقال: "والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبى بكر! وبالله ما أرجو النصر إلا بأصحاب النبىﷺ"، فلما رأى خالد ذلك أرضاه. لقد أمد رسول اللهﷺ أصحابه بنفحة منه، وكان دائماً أسوة حسنة لهم يقتفون آثاره، ويهتدون بهديه ولا يحيدون عن تعاليمه أبدا، فكانوا يتسابقون إلى الموت ويحرضون على الاستشهاد.

٢ـ وكان عمر يفضل السابقين الأولين من الصحابة على غيرهم إلا أنه يقصر بهم عملهم، فكان يفضل عليهم حينذاك من برز بأعماله.

فقد كان أول ما عمل عمر بعد موت أبى بكر الصديق رضى الله عنهما، أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيبانى إلى أهل فارس، وذلك قبل صلاة الفجر من الليلة التى مات بها أبو بكر، ثم أصبح فبايعه الناس، فعاد فندب الناس لقتال الفرس.

وتتابع الناس على البيعة فى ثلاثة أيام، كل يوم يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس، وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم، فلما كان اليوم الرابع، عاد فندب الناس إلى العراق، فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود، ثم ثنى سعد بن عبيد، وسليط بن قيس؛ فلما تكامل حشد ذلك البعث، قال قائل لعمر:

"أمر عليهم رجلاً من السابقين من المهاجرين والأنصار"؛ فقال عمر: "لا والله! لا أفعل. إنما رفعكم الله بسيفكم وسرعتكم إلى العدو، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء، فأولى بالرياسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء. والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتدابا". ثم دعا أبا عبيدة وسليطا وسعدا فقال مخاطبا سعدا وسليطا: "أما انكما لو سبقتماه لوليتكما"، ثم قال لأبى عبيدة: "اسمع من أصحاب النبى ﷺ وأشركهم فى الأمر، ولا تجتهد حتى تتبين، فإنها حرب، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث الذى يعرف الفرصة والكف".

٣ـ وكان عمر يفضل أن يكون القائد مكيثا غير متهور يعرف الفرص وينتهزها ويعرف كيف ومتى يقاتل ومتى يكف عن القتال. قال عمر لسليط: "لولا عجلة فيك لوليتك، ولكن الحرب زبون لا يصلح لها إلا الرجل المكيث".

٤ـ وكان عمر يريد أن يكون القائد قويا مسيطرا ذا شخصية نافذة، فإذا وجد رجلاً أقوى من رجل فضل الأقوى على القوى، فقد استعمل معاوية بن أبى سفيان على الشام وعزل شرحبيل بن حسنة وقام بعذره فى الناس فقال: "إنى لم أعزله عن سخطه، ولكنى أريد رجلاً أقوى من رجل"؛ وكان يقول: "إنى لأتحرج أن استعمل الرجل وأنا أجد أقوى منه".

٥ـ وكان يريد القائد شجاعا راميا، فحين وجه سعد بن أبى وقاص إلى العراق قائدا عاما، قال: "إنه رجل شجاع رام".

٦ـ وكان عمر إذا اجتمع إليه جيش من المسلمين، أمر عليهم أميرا من أهل العلم والفقه، ولا يرضى أن يؤمر أهل الوبر على أهل المدر، فقد قال لعتبة بن غزوان: "من استعملت على أهل البصرة؟" فقال: "مجاشع بن مسعود"، قال: "تستعمل رجل من أهل الوبر على أهل المدر[1]؟".

تلك هى المزايا التى كان يريد عمر توفرها فى القائد: ماض ناصع مجيد فى الحرب وفى خدمة الإسلام، له تجربة عملية فى القتال، مكيث غير متهور يعرف الفرص ويدرك الوقت والمكان المناسبين لنشوب القتال والكف عنه، قوى الشخصية مسيطر على رجاله، شجاع رام، عالم فقيه، وتلك

---

(١) الوبر: بفتحتين للبعير واحدها وبرة، وأهل الوبر هم أهل البادية، والحضر: أهل المدن. والمعنى: أتستعمل أعرابيا على حضرى؟

عُمَــر
ومعرفة مبادئ الحرب

كـان عمـر أحـد خريجـي مدرسـة الرسـولﷺ القائـد فـي ممارسـة فنـون الحـرب ومعانـاة أهوالها.

كان عمر قبل إسلامه كأى عربى ليس غريباً على ساحات الوغى وأخبار الحروب، ولكن هذه المعلومات الابتدائية عن المعارك صقلها وهذبها بالممارسة الفعلية وبالتوجيه العملى والنظرى لسيد القادة وقائد السادةﷺ.

ولقد كان لعمر طبيعة موهوبة للجندى الممتاز فاجتمع لديه بعد تجاربه الطويلة للحرب بعد إسلامه، الطبع الموهوب والعلم المكتسب، وبذلك أصبح قائداً مثالياً له مزايا القائد المثالى علماً وعملاً.

شهد عمر مع رسول اللهﷺ بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وخيبر والفتح وحنيناً وغيرها من المشاهد، وكان أشد الناس على الكفار. وأراد رسول اللهﷺ أن يرسله إلى مكة يوم الحديبية: فقال: "يا رسول الله! قد علمت قريش شدة عداوتى لها، وإن ظفروا بى قتلونى"، فتركه وأرسل عثمان بن عفان.

وقد ولاه النبىﷺ قيادة سرية من المسلمين، فقد بعثه فى شعبان سنة سبع من هجرة رسولﷺ فى ثلاثين رجلاً إلى (عجز)[1] هوازن بـ (تُربة)[2]، فخرج وخرج معه دليل من بنى هلال، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فأتى الخبر هوازن فهربوا. وجاء عمر محالهم فلم يلق منهم أحداً فانصرف راجعاً إلى المدينة، فلما كان بمحل بينه وبين المدينة ستة أميال قال له الدليل: "هل لك فى جمع آخر من خثعم؟"، فقال عمر: "لم يأمرنى رسول اللهﷺ بهم، إنما أمرنى بقتال هوازن".

هذه السرية تدلنا على ثلاث نتائج عسكرية: الأولى أن عمر أصبح مؤهلاً للقيادة إذ لولا ذلك لما ولاه النبىﷺ الكريم قيادة سرية من سرايا المسلمين تتجه إلى منطقة بالغة الخطورة وإلى قبيلة من أقوى القبائل العربية وأشدها شكيمة.

---

(1) عجز: محل بينه وبين مكة أربع ليال بطريق صنعاء يقال له: تربة بضم العين. انظر السيرة الحلبية (٢١٠/٣). وفى معجم البلدان (٣٧٤/٢): أن تربة على مسافة يومين من مكة.

(2) تربة: واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها. انظر التفاصيل فى معجم البلدان (٣٧٤/٢) وفى طبقات ابن سعد (١١٧/٢): أنها بناحية العبلاء على أربع ليال من مكة طريق صنعاء ونجران.

والثانية، أن عمر الذى كان يكمن نهاراً ويسير ليلاً، مشبع بمبدأ المباغتة، أهم مبادئ الحرب على الإطلاق، مما جعله يباغت عدوه ويجبره على الفرار، وبذلك انتصر بقواته القليلة على قوات المشركين الكثيرة

والثالثة، إن عمر ينفذ أوامر قائده الأعلى نصاً وروحاً ولا يحيد عنها، وهذا هو روح الضبط العسكرى روح الجندية فى كل زمان ومكان.

وبعد التحاق النبى ﷺ بالرفيق الأعلى وتولى أبى بكر الصديق كان عمر أحد جنود بعث أسامة بن زيد، وحين أراد أبو بكر انفاذ هذا البعث إلى واجبه حسب أوامر النبى ﷺ شيع هذا الجيش فقال لقائده أسامة: "إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل" فأذن له؛ فكان عمر أبرز عضو من أعضاء المجلس الأعلى للقيادة العامة فى عهد أبى بكر الصديق.

كان أبو بكر يستشير عمر فى تعيين القادة الذين يوليهم قيادة جيوش المسلمين، فقد عقد أبو بكر أول لواء إلى أرض الشام لخالد بن سعيد بن العاص، ولكنه عزله قبل أن يسيِّره، وكان سبب عزله أنه تربص ببيعة أبى بكر شهرين، ولقى على بن أبى طالب وعثمان بن عفان، فقال: "يا أبا الحسن! يا بنى عبد مناف! أغلبتم عليها؟"، فقال على: "أمغالبة ترى أم خلافة؟!"،... أما أبو بكر فلم يحقدها عليه، وأما عمر فاضطغنها عليه، فلما ولاه أبو بكر لم يزل به عمر حتى عزله عن الأمارة وجعله ردئاً للمسلمين بـ (تيماء)[1] وأمره ألا يفارقها إلا بأمره وأن لا يدعوا من حوله من العرب إلا من ارتد، وأن لا يقاتل إلا من قاتله[2].

وكان يستشيره فى تسيير الجيوش إلى الجهاد فقد دعا أبو بكر أهل الرأى وفى مقدمتهم عمر، وذكر لهم أن رسول الله ﷺ عول أن يصرف همته إلا الشام، فقبضه الله إليه واختار له ما لديه، وطلب رأيهم فى ذلك، فكان عمر أسبقهم إلى إجابته فقال: "... سرب الخيل فى أثر الخيل وابعث الرجال تتبعها الرجال والجنود تتبعها الجنود..."، فلما لم يتحمس الحاضرون لهذه الدعوة لان هيبة الروم أخذتهم صاح فيهم عمر: "ما لكم يا معشر المسلمين لا بجيبون خليقة رسول الله إذا دعاكم لما يحييكم؟!" فهزت هذه الصيحة الحاضرين، فرضوا بالجهاد. فكتب أبو بكر إلى اليمن وأهل مكة يستنفرهم للجهاد فى أرض الشام.

وكان يشتشيره عند إعداد الخطط السوقية (الاستراتيجية) لجيوشه، فكان عمر يعاونه فى ذلك أعظم المعاونة.

---

(١) تيماء: بلد فى أطراف الشام بين الشام ووادى القرى على طريق حاج الشام ودمشق. انظر التفاصيل فى معجم البلدان.

(٢) ابن الأثير (١٥٤/٢) والطبرى (٥٨٦/٢). وفى البلاذرى (١١٦): ان عمر كلم أبا بكر فى عزل خالد لأنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب، فعزله.

وأصبح عمر بعد وفاة "أبى بكر" القائد الأعلى لقوات المسلمين المسلحة، فكان أول ما عمل، أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيبانى إلى أهل فارس، وذلك قبل صلاة الفجر من الليلة التى مات بها الصديق أبو بكر. ثم أصبح فبايعه الناس، فعاد فندب الناس لقتال الفرس. وتتابع الناس على البيعة ثلاثة أيام، كل يوم يندبهم فلا ينتدب أحد إلى فارس، وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم، لشدة سلطانهم وشوكتهم وعزهم وقهرهم الأمم؛ فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس إلى العراق، فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود، فأمره على الجيش لأنه كان أول الناس انتداباً.

وأمر المثنى بن حارثة الشيبانى بالتقدم إلى أن يقدم عليه أصحابه، وأمر باستنفار من حسن إسلامه من أهل الردة، فكان بعث أبى عبيد أول جيش سيره عمر.

لقد طبق عمر بذلك مبدأ (التحشد) تطبيقاً رائعاً.

وكان عمر قد قال لأبى عبيد: "إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية... تقدم على قوم تجرأوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه؛ فانظر كيف تكون، واحرز لسانك، ولا تفشين سرك، فأن صاحب السر ما يضبطه متحصن ولا يؤتى من وجه يكرهه، وإذا ضيعه كان بمضيعة".

وهذا يدل على أن عمر كان يعرف تفاصيل دقيقة عن الحالة الاجتماعية لعدوه، لذلك أوصى قائده بالحذر واليقظة، وأرشده إلى مفتاح كل ذلك وهو كتمان السر حتى لا يعرف عدوه نياته قبل الأوان، فيباغته عدوه قبل أن يباغت هو عدوه. وقبل معركة (البويب). ندب عمر الناس إلى المثنى بن حارثة الشيبانى، وكان فيمن ندب قبيلة (بجيلة)، فجعل الناس يتحامون العراق ويتثاقلون عنه، حتى همّ أن يغزو بنفسه، وقدم عليه خلق من الأزد يريدون غزو الشام فدعاهم إلى العراق، وكتب إلى أهل الردة فلم يأته أحد إلا رمى به المثنى.

لقد طبق عمر فى ذلك مبدأين من مبادئ الحرب المهمة: مبدأ التحشد، وذلك بحشد أكبر عدد من القوات فى ربوع العراق، ومبدأ (توخى الهدف)، وذلك بالإصرار على فتح العراق مهما يكلفه الأمر ومهما تكن الظروف والأحوال.

وقبل معركة (القادسية) الحاسمة، حين علم عمر باجتماع الفرس على (يزدجرد) بعد توليه عرش أجداده الأكاسرة وتجهزهم مما أثار قرى العراق ومدنه على المسلمين، قال: "والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب"، ثم كتب إلى عماله: "لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس، أو نجدة أو رأى، إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى... والعجل العجل..."، فلم يدع رئيساً ولاذا رأى وذا شرف وبسطة ولا خطيباً ولا شاعراً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس وغررهم؛ وكتب إلى المثنى ومن معه يأمرهم بالخروج من بين العجم، والتفرق فى المياة

التى تلى العجم، وأن لا يدعوا فى ربيعة ومضر وحلفائهم أحداً من أهل النجدات إلا احضروه إما طوعاً أو كرهاً.

وأراد عمر أن يغزو بنفسه وعسكر لذلك خارج المدينة المنورة: فاستخلف على بن أبى طالب عل المدينة، وجعل طلحة بن عبيد الله على المقدمة، والزبير بن العوام وعبد الرحمن ابن عوف على المجنبتين "ولكن وجوه أصحاب النبى ﷺ أشاروا عليه أن يبعث رجلاً من أصحاب النبى ويرميه بالجنود، فإن كان الذى يشتهى فهو الفتح، وإلا أعاد رجلاً وبعث آخر، ففى ذلك غيظ العدو"، فجمع عمر الناس وقال لهم: "إنى كنت عزمت على المسير، حتى صرفنى ذوو الرأى منكم، وقد رأيت أن أقيم وابعث رجلاً، فأشيروا علىّ برجل".

وأمر عمر سعد بن أبى وقاص على حرب العراق بعد مشاورات طويلة أجراها عمر مع خاصة المسلمين وعامتهم، فسرحه فيمن اجتمع إليه من الرجال، وأمده بعد خروج سعد بألفى يمانى وألفى نجدى، وأمر عمر بنى أسد أن ينزلوا على حد أرضهم بين الحزن والبسيطة فنزلوا فى ثلاثة آلاف، ولم يدع عمر ذا رأى ولا شرف ولا خطيباً ولا شاعراً ولا وجيهاً من وجوه الناس إلا سيره إلى سعد.

وكتب عمر إلى سعد يأمره: "أن يقاتل المسلمون الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ولا يقاتلوهم فى عقر دارهم، فإن يظفر الله المسلمين فلهم ما وراءهم، وإن كانت الأخرى رجعوا إلى فئة، ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرا على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم"، وكتب عمر أيضاً إلى أبى عبيدة بن الجراح ليصرف أهل العراق ومن اختار أن يلحق بهم من أرض الشام إلى العراق.

وكتب عمر إلى سعد ومن معه من الجنود: "أما بعد. فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى العدة فى الحرب. وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا، لم نغلبهم بقوتنا. وأعلموا أن عليكم فى سيركم حفظه من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله، ولا تقولوا: إن عدونا شر منا يسلط علينا، وإن أسأنا فرب قوم سلط عليهم شر منهم، كما سلط على بنى إسرائيل لما علموا بمساخط الله كفرة المجوس: **﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ {الإسراء/٥}**، وأسألوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم، أسأل الله ذلك لنا ولكم.

"وترفق بالمسلمين فى مسيرهم، ولا تجشمهم مسيراً يتعبهم، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم، حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينقص قوتهم، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم جام الأنفس والكراع، وأقم بمن معك كل جمعة يوماً وليلة، حتى تكون لهم راحة يجمون فيها أنفسهم ويرمون (أى يصلحون) أسلحتهم وأمتعتهم، ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه، ولا ترزأ أحداً من أهلها شيئاً، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها، فما صبروا لكم فوفوا لهم، ولا تنتصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح.

"وإذا وطئت أدنى أرض العدو، فاذك العيون بينك وبينم (أى بثها) ولا يخف عليك أمرهم، وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه، فإن الكذوب لا ينفعك خبره وإن صدق فى بعضه، والغاش عين عليك وليس عيناً لك، وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم، فتقطع السرايا إمدادهم ومرافقتهم، وتتبع الطلائع عوراتهم، وانتق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك، وتخير لهم سوابق الخيل، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك، واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد، والصبر على الجلاد، ولا تخص بها أحداً بهوى، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك، ولا تبعث طليعة ولا سرية فى وجه تتخوف فيه ضيعة ونكاية، فإذا عانيت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك واجمع إليك مكيدتك وقوتك، ثم لا تعاجلهم المناجزة ما لم يستكرهك قتال، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها فتصنع بعدوك كصنيعة بك، ثم أذك أحراسك على عسكرك، وتحفظ من البيات جهدك، ولا تؤتى بأسير ليس له عهد إلا ضربت عنقه لترهب بذلك عدوك وعدو الله، والله ولى أمرك ومن معك وولى النصر لكم على عدوكم، والله المستعان" .

إن إجراءات عمر قبل معركة القادسية تمثل ذروة تطبيق مبدأ (التحشد)، كما أن وصيته لسعد بالقتال على حدود بلاد العرب تطبيق لمبدأ (الأمن) ومبدأ (المرونة)[1].

أما وصيته لسعد ولرجاله بتقوى الله وطاعته والابتعاد عن المعاصى، فتمثل أسمى غاية لتطبيق مبدأ (إدامة المعنويات).

أما وصاياه لسعد عن الحذر واليقظة، والمسير، والاستراحة الأسبوعية وإدامة سلاح الجيش وخيوله، والمحافظة على أهل الذمة، وإذكاء العيون واختيارهم، واتخاذ التدابير

---

[1] مبدأ المرونة الذى كان يسمى قبل الحرب العالمية الثانية (قابلية الحركة) أصبح الآن يسمى مبدأ (المرونة)، ومعناها: قوة العمل السريع وقوة الحركة.

التعبوية للأمن، والحصول على المعلومات عن العدو وعن أرض المعركة، والحذر من مباغتة العدو لجيشه، والحزم.. الخ، فتعتبر من ألمع ما كتب فى هذا الموضوع، كما أنها دليل على معرفة عمر لتفاصيل ودقائق التعبئة الصغرى واهتمامه الشديد بتطبيق مبدأ (الأمور الإدارية) ومبدأ (الاقتصاد بالمجهود).

ووجه عتبة بن غزوان إلى البصرة وقال له: "يا عتبة! إنى قد استعملتك على أرض الهند، وهى حومة من أحومة العدو، وأرجو أن يكفيك الله ما حولها ويعينك عليها؛ وقد كتبت إلى الحضرمى يمدك بعرفجة بن هرثمة، وهو ذو مجاهدة ومكايدة للعدو، فإذا قدم عليك فاستشره؛ وادع إلى الله، فمن أجابك فاقبل منه، ومن أبى فالجزية، وإلا فالسيف؛ واتق الله فيما وليت، وإياك أن تنازعك نفسك إلى كبر مما يفسد عليك إخوتك؛ وقد صحبت رسول الله فعززت به بعد الذلة، وقويت بعد الضعف، حتى صرت أميراً مسلطاً مطاعاً: تقول فيسمع منك، وتأمر فيطاع أمرك؛ فيا لها نعمة إن لم ترفعك فوق قدرك، وتبطرك على من دونك. واحتفظ من النعمة إحتفاظك من المعصية، ولهى أخوفها عندى عليك أن تستدرجك وتخدعك فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم... إعيذك بالله ونفسى من ذلك، إن الناس أسرعوا إلى الله حتى رفعتهم الدنيا فأرادوها، فأرد الله ولا ترد الدنيا، واتق مصارع الظالمين".

هذه الوصية نموذج رفيع من الوصايا: تقدم معلومات عن المنطقة، وتؤكد على الخطر المحدق، وتحث على تجميع للقوة درءاً لذلك الخطر، وتحث على الاستشارة، وتوضح تعاليم الفتح فى الإسلام، وتأمر بالتقوى والعدل، وتنهى عن الكبر والبطر...

وفى هذه الوصية، دليل على معرفة عمر لرجاله فرداً فرداً، من هو الرجل المناسب للعمل المناسب، وتلك مزية لعمر جعلته لا يخطئ فى اختيار الرجال لمعاونته فى تحمل أعباء الحكم فى الحرب وفى السلم، هذه المزية التى لم يكتب التاريخ لرجل دولة أن ينجح بدونها.

وسمع عمر بأعمال خالد بن الوليد فى أرض الشام بعد عزله، وكان حينذاك يعمل قائداً مرؤوساً لأبى عبيدة بن الجراح، فهتف من أعماق قلبه: "أمّر خالد نفسه! يرحم الله أبا بكر، هو كان أعلم بالرجال منى!"، وقال عن خالد والمثنى: "إنى لم أعزلهما عن ريبة، ولكن الناس عظموهما، فخشيت أن يوكلوا إليهما". إنه أراد أن يبذل المقاتلون أقصى جهودهم لنيل النصر وأن يحسبوا فى الظروف الحربية أسوأ الاحتمالات، وأن يعدوا لكل احتماله عدته، فلا يتواكلون معتمدين على كفاية قادتهم أو على عددهم وعددهم مما يؤدى إلى نكبتهم كما حدث ذلك يوم (حنين) إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئاً. قال عمر: "لأعزلن خالد بن الوليد

والمثنى بنى شيبان، حتى يعلما أن الله إنما كان ينصر عباده، وليس إياهما كان ينصر"، فلم يكن عمر يرضى عن غرور القائد ولا عن غرور الجنود.

وبعد فتح (أنطاكية) من أرض الشام، كتب عمر إلى أبى عبيدة بن الجراح: "رتب بأنطاكية جماعة من المسلمين، واجعل بها مرابطة، ولا تحبس عنهم العطاء"، وهذا تطبيق عملى لمبدأ (الأمن) ولمبدأ (الأمور الإدارية).

ولما فرغ سعد بن أبى وقاص من أمر القادسية، أقام بها بعد الفتح شهرين وكاتب عمر فيما يفعل، فكتب إليه عمر يأمره بالمسير إلى (المدائن)، وأن يخلف النساء والعيال بـ (العتيق) وأن يجعل معهم جنداً كثيفاً، و"أن يشركهم فى كل مغنم ما داموا يخلفون المسلمين فى عيالاتهم. وفى هذا الأمر المختصر، طبق عمر مبدأ (اختيار المقصد وإدامته)، ومبدأ (التعرض) ومبدأ (تحشيد القوة) ومبدأ (الاقتصاد بالمجهود) ومبدأ (الأمن)، ومبدأ (إدامة المعنويات) ومبدأ (الأمور الإدارية). ولا أعلم رسالة عسكرية قليلة الكلمات كثيرة الفائدة مثل هذه الرسالة الموجزة.

وبعد فتح (المدائن)، إنسحب الفرس باتجاه (جلولاء)، وعسكرت قواتهم الضاربة هناك، فكتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر. "سرح هاشم بن عتبة إلى (جلولاء) فى إثنى عشر ألفاً، واجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو التميمى، وعلى ميمنته مسعر بن مالك، وعلى ميسرته عمرو بن مالك، واجعل على ساقته عمرو بن مرة الجرمى". وهذا يدل على معرفة عمر بالرجال وبالأساليب التعبوية التى تحقق لجيشه مبدأ (الأمن).

كما كتب إلى سعد عندما علم بتجمع العدو فى (تكريت) يقول: "سرح إليه عبد الله بن المعتم، واستعمل على مقدمته ربعى بن الأفكل، وعلى الخيل عرفجة بن هرثمة، وهذا يدل على معرفة عمر بالرجال أيضاً وبالأساليب التعبوية السائدة فى الجيوش حينذاك.

وعبر العلاء بن الخضرمى من البحرين إلى فارس بغير إذن عمر، فحالت الفرس بين المسلمين وبين سفنهم فلم يجدوا إلى الرجوع سبيلاً. وأخذت الفرس طرقهم، فعسكروا وامتنعوا. ولما بلغ عمر صنيع العلاء، أرسل إلى عتبة بن غزوان يأمره بانفاذ جيش كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا، فأرسل عتبة جيشاً فى إثنى عشر ألف مقاتل، فهزموا الفرس وأنقذوا جيش العلاء وعادوا إلى البصرة؛ وقد عزل عمر العلاء بن الخضرمة عن (البحرين) لمخالفته الأوامر، لقد طبق مبدا (الأمن) فى منعه العلاء من العبور إلى فارس بحراً وطبق مبدأ (التحشد) فى إرسال المدد إليه لإنقاذ جيشه من الورطة التى وقع فيها. وكان عزل العلاء دليلاً على تمسك عمر بتنفيذ أوامره وعدم إفساح المجال لمخالفتها وعدم السكوت عن المخالفين.

وفى (الأهواز) استطاع (يزدجرد) أن يحشد جيشاً ضخماً، فجاءت الأخبار حرقوص بن زهير وصحبه، فكتبوا إلى عمر بالخبر، فكتب عمر إلى سعد أن: "إبعث إلى الأهواز جنداً كثيفاً مع النعمان بن مقرن المزنى وعجل فلينزلوا بإزاء (الهرمزان) ويتحققوا أمره" وكتب إلى أبى موسى الأشعرى أن "أبعث إلى (الأهواز) جنداً كثيفاً وأمر عليهم سعد بن عدى أخا سهيل، فابعث معه البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وعرفجة بن هرثمة وغيرهم، وعلى أهل الكوفة والبصرة جميعاً أبو سبرة بن أبى رهم". وهذا يدل على أن عمر كان يعرف رجاله ومزاياهم معرفة دقيقة، وأنه طبق مبدأ (التحشد) تطبيقاً رائعاً

وَثيـقة تسـليم

بَيت المقــدس

للخَليفة عمَر بن الخطاب

***

جاء خروج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من عاصمته فى المدينة المنورة بالحجاز ليستلم بنفسه بيت المقدس فى فلسطين شاهداً عملياً قدمه هذا الخليفة العظيم للأجيال العربية عن أصالة حقهم فى هذه المدينة الخالدة، التى أسسها أجدادهم العرب القدامى من أهل فلسطين، ومثلاً تطبيقياً لما يجب أن ينهض به القومة على الأمة العربية -خالفاً عن سالف- فى سبيل حماية مقدسات هذه المدينة من مطامع المغامرين من اليهود الذين اشتهروا فى التاريخ باسم دعاة الصهيونية، وحتى تظل هذه المدينة العربية الأصلية - كعهدها، دائماً وأبداً - مدينة السلام، ذلك أن هذا الخليفة اختص بيت المقدس وحدها بهذا التكريم من دون المدن الأخرى التى فتحها المسلمون على عهده، وبادر إلى تلبية النداء الذى أعلن فيه أهل القدس، وعلى رأسهم البطريق صفرنيوس، عن رغبتهم فى أن يتسلم مدينتهم المقدسة الخليفة شخصياً، دون غيره من قادة جيوش التحرير الإسلامية المجاهدة فى الشام وفلسطين.

وكشفت سرعة استجابة الخلافة الإسلامية لمطالب أهل القدس عن تطور جديد فى حياة هذه المدينة، قوامه أمران هامان:

أولهما: إن كبار أهل الحل والعقد من الصحابة، وهم الهيئة التنفيذية العليا التى ضمها فى الدولة الإسلامية إذ ذاك (مجلس الشورى) قد أكدت بتأييدها خروج الخليفة لإستلام القدس ارتباط الأصول الدينية لهذه المدينة بالدين الإسلامى الجديد وأن واجب الدفاع عن تلك المقدسات وأصولها هو دفاع عن الدين الإسلامى نفسه.

وثانيهما: أن الخليفة أراد أن يؤكد من جانبه أن تحرير القدس لن يتم إلا بتحرير فلسطين، وأن الموقف بات يتطلب توليه القيادة العليا بنفسه لجيوش التحرير فى الشام وفلسطين، على أساس أن الجهاد فى سبيل تلك الأرجاء هو جهاد مقدس يجب أن يسهم فيه على قدم المساواة

جميع أبناء الدولة العربية الإسلامية، كبيرهم وصغيرهم، طلباً للعزة فى الدنيا، والفوز بجنات النعيم.

وكانت التقارير التى وصلت من قادة الجيوش الإسلامية فى الشام وفلسطين إلى عاصمة الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة تحث على سرعة خروج الخليفة بنفسه لتحرير القدس وفلسطين. ذلك أن أعداء المسلمين هناك، وهم البيزنطيون، الذين عرفهم العرب باسم الروم، قد صمموا أمام زحف الجيوش الإسلامية المظفر على الانسحاب من كبرى مدن الشام وفلسطين واتخاذ مدينة بيت المقدس قاعدة يعيدون فيها تعبئة قواتهم لإفساد التقدم الإسلامى، باستغلال مناعة هذه المدينة المقدسة. وكان صاحب هذه الخطة البيزنطية هو (أرتيون) قائد الروم الذى اشتهر عند العرب باسم (الارطبون) وبادر الخليفة عمر بن الخطاب بتوجيه عمرو بن العاص لمحاربة هذا القائد قائلاً: "قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب". غير أن قائد الروم انسحب أمام جيش عمرو بن العاص عند اجنادين ولجأ بقواته إلى بيت المقدس، حيث أفصح عن خطته فى التصدى للمسلمين.

وأعلن أرطبون الروم من قاعدته فى بيت المقدس عن خطته الخبيثة فى كتاب بعثه به إلى عمرو بن العاص فى اجنادين جاء فيه: "إلى عمرو: إنك صديقى ونظيرى، أنت فى قومك مثلى فى قومى، والله لا تفتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين فارجع ولا تغر فتلقى ما لقى الذين قبلك من الهزيمة". وكتب عمرو بن العاص إلى الخليفة يوضح له الموقف الجديد فى القدس وفلسطين قائلاً له: "إنى أعالج حرباً كؤوداً صدوماً، وبلاداً ادخرت لك فرأيك" – ولما كان الخليفة عمر يثق كل الثقة فى تقارير عمرو بن العاص فإنه بدأ يستعد للخروج بنفسه لتحرير هذه البلاد التى ادخرها الله له كما ذكر قائده المحنك فى أرض فلسطين.

وعزز هذه الاستعدادت فى عاصمة الخلافة التقارير التى وردت بدورها من أبى عبيدة بن الجراح القائد العام للجيوش الإسلامية فى الشام. إذ أراد هذا القائد أن يبعث جيوشه من دمشق إلى فلسطين لشد أزر عمرو بن العاص، وعقد مجلساً حربياً للتشاور فى الأمر، ولتقرير الجبهة التى تتجه إليها تلك الجيوش. إذ كان أمام هذا القائد العام خطتان: إحداهما ترى أن تتوجه الجيوش أولاً لفتح قيسارية التى كان لقاء جند الروم فيها يحول دون انطلاق عمرو ابن العاص من أجنادين، والثانية: تنادى بأن تزحف الجيوش رأساً إلى بيت المقدس للحيلولة دون استقرار الأرطبون وقواته بها.

واستقر رأى المجلس الحربى على ضرورة استشارة الخليفة عمر بن الخطاب فى هذا الشأن حيث قال معاذ بن جبل لأبى عبيدة: أيها الأمير اكتب إلى أمير المؤمنين عمر فحيث أمرك امتثله. فقال أبو عبيدة: أصبت الرأى يا معاذ. ثم كتب إلى الخليفة شارحاً له الموقف.

وجمع عمر بن الخطاب (مجلس الشورى) من كبار الصحابة، وقرأ عليهم كتاب أبى عبيدة، فقال على بن أبى طالب بعد مداولات واسعة تبلور فيها الموقف: "يا أمير المؤمنين مر صاحبك ينزل بجيوش المسلمين إلى بيت المقدس فإذا فتح الله بيت المقدس، صرف وجهه إلى قيسارية، فإنها تفتح بعد إن شاء الله تعالى". وعندئذ كتب الخليفة بهذا الرأى الذى استقر عليه مجلس الشورى لأبى عبيدة جاء نصه كما يلى:

"بسم الله الرحمن الرحيم

"من عبد الله عمر إلى عامله بالشام أبى عبيدة

"أما بعد.. فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو وأصلى على نبيه، وقد وصلنى كتابك تستشيرنى إلى أى ناحية تتوجه، وقد أشار ابن عم رسول الله المسير إلى بيت المقدس، فإن الله يفتحها على يديك، والسلام".

وهلل جند المسلمين فرحاً فى الشام لزحفهم على بيت المقدس، وتقدموا وعلى رأسهم القائد العام أبو عبيدة بن الجراح، وحين اقتربت الجيوش الإسلامية من هذه المدينة أعلن سكانها العصيان على الأرطبون، وعرضوا على أبى عبيدة رغبتهم فى تسليم مدينتهم إلى الخليفة نفسه وبعث القائد العام قائلاً لهم: "ما ترون رحمكم الله فيما كتب إلينا أمين هذه الأمة؟" واستقر الرأى على تلبية طلب أهل القدس، وأتم الخليفة الاستعداد للخروج إلى فلسطين حيث بات لديه علم دقيق بأحوالها من مصدرين هامين: أحدهما من عمرو بن العاص، والآخر: من أبى عبيدة بن الجراح، وكل منهما يؤكد ضرورة أنباء مسير عمر بن الخطاب بنفسه إلى فلسطين انسحب الأرطبون سريعاً من بيت المقدس حيث عجز عن المقام بها لعدم تعاون سكان البلدة معه، واتجه إلى مصر حيث كانت إذ ذاك تحت سيطرة الروم.

وكان الطريق الذى سلكه الخليفة عمر بن الخطاب للذهاب إلى بيت المقدس يسير وفق خطة رسمها بنفسه، استهدف منها أن تبقى أمام الصحابة والتابعين وتابعى التابعين منهم بإحسان إلى يوم الدين، نموذجاً يهديهم سواء السبيل، من أجل الحفاظ على هذه المدينة المشرفة، ورعاية مقدساتها الجليلة، إذ جمعت تلك الخطة بين الاستعداد الحربى الكامل وبين الالتزام بالبساطة التامة البعيدة عن الزهو والخيلاء، فغادر الخليفة المدينة المنورة متجهاً، إلى (أيلة) وهى العقبة الحالية باعتبارها مفتاح المدخل الجنوبى لفلسطين.

ثم سار إلى الجابية فى مرتفعات الجولان الحالية، حيث جعل من هذا المكان الاستراتيجى بين سوريا وفلسطين مقراً لعقد مؤتمر حربى استدعى إليه قادة الجند بالشام للتشاور معهم فى طلب أهل القدس، ووضع أمثل السبل لإتمام فتح فلسطين.

وتوجه أبو عبيدة بن الجراح القائد العام لجيوش الإسلامية بالشام إلى الجابية حيث التقى الخليفة عمر بن الخطاب هناك وتعانقا. ثم توافد على الخليفة سائر القادة، وجماعات من المسلمين حضرت لتحية الخليفة، وصلى الخليفة بالحاضرين صلاة الفجر وخطبهم، ثم تدارس مع القائد العام الوضع فى بلاد الشام حتى حضرت صلاة الظهر، حيث جرت فى خشوع جليل، رواه أحد شهود العيان قائلاً: "فأذن بلال فى ذلك اليوم، فلما قال: الله أكبر، خشعت جوارحهم، واقشعرت أبدانهم، فلما قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، بكى الناس بكاء شديد عند ذكر الله ورسوله، وكاد بلال أن يقطع الأذان، فلما فرغ من الأذان صلى عمر بالحاضرين".

وجرت وسط هذه المظاهر الجليلة جلسات المؤتمر الحربى بالجابية تحت رئاسة الخليفة للنظر فى شأن القدس، وحضر فى ذلك الوقت وفد شعبى يمثل أهالى القدس لمقابلة الخليفة عمر وتسليم بلدتهم له، وجاء تشكيل هذا الوفد على تلك الصورة دلالة واضحة على أن انسحاب الروم من بيت المقدس كان أمراً حتمياً فرضته الرغبة الشعبية فى هذه المدينة على أولئك المستعمرين البغاة، وشاهداً قوياً على أن أهالى القدس وجدوا فى الدولة العربية الإسلامية الفتية ينبوعاً دافقا يغذى أصولهم العربية، ويهيئ لهم استعادة سالف أمجاد مدينتهم وأمنها، وكان أهم مطلب ركز الوفد الشعبى عليه هو ألا يساكنهم مدينتهم أحد من اليهود، الذين اشتهروا بمحاولاتهم العديدة لاغتصاب هذه المدينة، وأثارة القلائل فيها ضد السلطات بمحاولاتهم العديدة لاغتصاب هذه المدينة، وإثارة القلائل فيها ضد السلطات الحاكمة تحت ستار الاحتماء بقدسية تلك المدينة، وكان أخطر محاولات اليهود التى شهدها أهالى القدس قبل الفتح الإسلامى ما حدث على عهد الامبراطور الرومانى هارديان سنة ١٣٥م، إذ قاموا بأعمال شغب واسعة فى القدس، دفعت هذا الامبراطور إلى الإسراع بنفسه إلى بيت المقدس، وطرد اليهود منها كلية، وبلغ الحنق بهذا الامبراطور حداً دفعه إلى أن يطلق على بيت المقدس اسمه الأول، وصارت تدعى نسبة إليه باسم "إيلياء" وذلك رغبة فى سد السبل نهائياً أمام اليهود لاستغلال اسم هذه المدينة المقدسة.

وظلت مدينة بيت المقدس تحمل اسم "إيلياء" حين خرج الوفد الشعبى من أهلها لمقابلة الخليفة عمر بن الخطاب، وطلبوا منه أن يسجل هذا الاسم فى وثيقة تسليم مدينتهم له، دلالة على خلوها تماماً من اليهود، وإصراراً منهم على ألا يساكنهم فيها أحد من اليهود، وكان هذا المطلب الشعبى لأهل القدس هو نفس المطلب الذى أصر عليه البطريق صفرنيوس حين عرض تسليم المدينة المقدسة للخليفة عمر بن الخطاب شخصياً، ووافق الخليفة على مطالب أهل القدس وسجلها فى وثيقة محددة البنود، أضاف إليها شروطاً تنص على احترام مقدسات هذه المدينة وما يكفل لها السلامة أيضاً من بقايا الروم فيها وعملائها. وجاء نص هذه الوثيقة

التاريخية المؤكدة لخلو القدس من اليهود وارتباطها بأصولها العربية، وكذلك بالدين الإسلامى الجديد على النحو التالى:

"بسم الله الرحمن الرحيم

- هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان.
- أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها.
- انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شئ من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم.
- ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.
- وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن.
- وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص.
- فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.
- ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصبهم، حتى يبلغوا مأمنهم.
- ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية.
- ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم.
- وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية.
- شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية ابن أبى سفيان.
- وكتب وحضر سنة خمس عشرة.

وكشفت هذه الوثيقة التاريخية بنصوصها الصريحة عن حقيقتين راسختين.

أولهما: أن اليهود لم يكن لهم وجود على الإطلاق فى بيت المقدس حين زحفت الجيوش الإسلامية على بلاد الشام، وأن أهالى القدس أنفسهم كانوا يقفون قبل الإسلام بالمرصاد لدسائس منحرفى اليهود وهم ما زعموه بهتاناً من حقوق لهم فى هذه المدينة المقدسة، وأن الإسلام حين امتد إلى أرض فلسطين جاء ليدعم هذه الحقيقة التاريخية ويؤكدها بخصوص خلو بيت المقدس تماماً من اليهود.

ثانيهما: أن المسلمين يكنون للمقدسات المسيحية فى بيت المقدس نفس الإجلال الذى يكنه المسيحيون أنفسهم لتلك المقدسات، وأن المسلمين يجدون فعلاً فى النصارى أقرب مودة إليهم، وأهلاً للتعاون فى رعاية المقدسات الدينية فى هذه المدينة الخالدة.

وعاد الوفد الشعبى لبيت المقدس من الجابية يحمل هذه الوثيقة التاريخية، ويستعد لاستقبال الخليفة فى المدينة المشرفة، وكان الخليفة يستعد لهذه الزيارة استعداداً يجعل منه نموذجاً عملياً أمام المعاصرين وغيرهم من الأجيال العربية وغير العربية على مر العصور عن إيمان المسلمين بمكانة بيت المقدس فى الدين الإسلامى الجديد، والتطبيق العملى لاحترام المسلمين لمقدسات هذه المدينة، فعمد الخليفة أولاً إلى تامين بيت المقدس وسائر ديار فلسطين من اى هجوم غادر قد يشنه الروم إذ اقام حاميه فى إيلياء بقياده علقمه بن مجزر، وأخرى فى الرملة بقيادة علقمة بن حكيم، على حين ضم إليه فى الجابية عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وغيرهم من القادة العاملين فى تحرير ارض فلسطين.

وغار عمر بن الخطاب مقره فى الجابية بمرتفعات الجولان إلى بيت المقدس فى موكب جمع بين المهابة والجلال والبعد التام عن مظاهر الزهو والخيلاء، ووصف أحد المعاصرين هذا الموكب قائلاً: إن الخليفة حين جاء ميعاد زيارة بيت المقدس أمر الناس بالركوب، ومعظمهم من كبار قادة الجند والصحابة الأجلاء. ولما هَم الخليفة بالركوب على بعيره وعليه مرقعة الصوف قال المسلمون: يا أمير المؤمنين، لو ركبت غير بعيرك جواداً، ولبست ثياباً لكان ذلك أعظم لهيبتك فى قلوب القوم. وأقبلوا يسألونه ويطوفون به إلى أن أجابهم إلى ذلك. ونزع مرقعته، ولبس ثياباً بيضاء. قال الزبير: أحسبها كانت من ثياب مصر تساوى خمسة عشر درهما، وطرح على كتفه منديلاً من الكتان، دفعه إليه أبو عبيدة. وقدم له برذوناً أشهب. فلما صار عمر فوقه جعل البرذون يهملج (أى يسير عجباً). وعندئذ نزل الخليفة مسرعاً وضرب وجه البرذون وقال: لا علم الله من علمك!، هذا من الخيلاء. ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده. ثم صاح بالناس قائلاً: أقيلونى عثرتى أقالكم الله عثراتكم يوم القيامة، لقد كاد أميركم يهلك مما داخله من الكبر. ثم إنه نزع البياض، وعاد إلى لبس مرقعته وركوب بعيره، فعلت ضجة المسلمين بالتهليل والتكبير.

ودخل موكب الخليفة عمر بن الخطاب مدينة بيت المقدس يوم الخميس الموافق ٣ مايو سنة ٦٣٦م، حيث استقبله زعماء المدينة وعلى رأسهم البطريق صفرنيوس، وسط مظاهر الحفاوة من السكان جميعاً. واستهل الخليفة زيارته بمشاهدة الأماكن المقدسة، والكنائس الكبيرة فى القدس، حيث تولى البطريق صفرنيوس شرح تاريخ تلك المشاهد الدينية. وحرص الخليفة طوال هذه الزيارة على دعم حقوق المسيحيين فى مقدساتهم وتجنب كل ما قد يثير الريب حولها. إذ تصادف أن حل ميعاد الصلاة، وهو يزور كنيسة القيامة، وسأل البطريق

عن مكان يصلى فيه فلما أجابه البطريق: صل مكانك – أى الخليفة – خرج من الكنيسة، وصلى فى مكان بالقرب منها، ولما أتم الصلاة قال للبطريق: أيها الشيخ، لو صليت فى كنيسة القيامة لاتخذها المسلمون معبداً لهم.

وكان الخليفة حريصاً أيضاً فى تلك الزيارة على مشاهدة معالم المسجد الأقصى الذى حمل له صورة واضحة عن الرسول الكريم ليلة الإسراء والمعراج وكذلك مشاهدة الصخرة المقدسة. وتكرر وقوف الركب فى عدة أماكن التبس على البطريق نفسها أنها المسجد الأقصى، وكان الخليفة أعلن فى كل مرة أن أوصاف تلك الأماكن لا تنطبق على ما تعيه ذاكرته من الأوصاف التى نقلها عن الرسول الكريم. وكان موقع المسجد الأقصى والصخرة المقدسة قد تعرضت للإهمال فى الأيام الأخيرة من حياة القدس فى ظل استعمار الروم، وغدت بقعة تغطيها القمامة. وحين اقترب الركب من هذا المكان، بدأ الخليفة فحص معالمه بنفسه، وتأكد أنه المكان المبارك. وعندئذ أخذ الخليفة – كما وصف أحد المرافقين له – يحثو القمامة فى كمه ويذهب ليلقيها فى وادى النار (قدرون) الواقع شرق المكان، فاقتدينا به وحثونا كما حثا مرات كثيرة حتى ظهر المكان وتطهر واتضحت معالمه، كما ظهرت الصخرة المباركة وتطهرت.

وأمر الخليفة ببناء مسجد فى هذا المكان، بحيث كانت الصخرة فى الخلف، ولتكون القبلة فى صدر المسجد، دفعاً لأية شبهات قد تثار حول هذا المسجد الإسلامى، وشرح الخليفة ما قام به مؤكداً أنه جعل رائده "كما جعل رسول الله قبلة مساجدنا صدورنا" ثم أضاف الخليفة قوله "فإنا لم نؤمر بالصخرة، ولكنا أمرنا بالكعبة".

وصلى الخليفة بالحاضرين، بعد أن أمر المؤذن بإقامة الصلاة، وقرأ سورة (ص) وسجد فيها، ثم قام وقرأ فى الثانية سورة (الإسراء). وجاءت تلاوة هذه الآيات البينات إعلاناً رسمياً عن ربط الأصول الدينية القدس الشريف بالدين الإسلامى الجديد، وأمضى الخليفة عشرة أيام فى القدس، قام فيها بأعمال جليلة غدت تكون العهد الجديد للقدس فى ظل حماية العروبة والإسلام، كما ترك فى يد أبناء هذا البلد الشريف وثيقة تاريخية تدعم حقهم فى صيانة بلدهم، وجعلها على مر العصور مدينة عربية خالصة، رائدها – كما كانت منذ نشأتها على يد سكانها من العرب القدامى – أن تكون "مدينة السلام".

لقد كان عمر جندياً ممتازاً، وقائداً مجرباً، يعرف تفاصيل التعبئة الصغرى، ويتحلى بمزية الضبط المتين، ويعرف مزايا رجاله ويوليهم المناصب استناداً لتلك المزايا فقط، ويطبق جميع مبادئ الحرب المعروفة بشكل مثالى وبكل حرص فى الحرب.

لقد كان قائداً فذاً لا يتكرر على تعاقب الأيام والعصور إلا نادراً... وقد لا يتكرر أبداً.

لقد أنجز عمر بن الخطاب كل واجباته قائداً أعلى بشكل يدعوا إلى التقدير العميق والإعجاب الشديد.

وتهيأت له الأسباب الجوهرية لإنجاز تلك الواجبات بكل جدارة وقد مر بنا بعض تلك الأسباب.

كان يؤمن بالشورى، فلا يستقل برأيه ولا يبالى أن يأخذ الحكمة من أى وعاء، وهذا يقلل من فرص الخطأ والإهمال.

وكان يحرص على جمع المعلومات من منابعها بشتى الطرق والأساليب، وهذا يجعله يعمل على هدى وبصيرة ولا يسير أبداً وهو مغمض العينين.

وكان يتسم بالحرص الشديد على الأرواح، وهذا يؤدى إلى عدم زج جيوشه فى المهالك دون مسوّغ.

وكان فطناً عالماً بعيد النظر، ومن نتائج ذلك استكمال دراساته العسكرية بدقة واتقان حين وضع الخطط العسكرية مع إدخال أسوأ الاحتمالات فى الحساب.

وكان شجاعاً يعد لكل أمر عدته ثم لا يحجم عن تنفيذ خططه ولا يتردد ولا يتراجع.

وكانت له قابلية بدنية ممتازة تعينه على تحمل المشاق والصعاب بصبر وحزم وإقدام.

وكان يعرف عظم مسئوليته وضخامة عبئها، فلا يتردد فى تحمل أعبائها ولا يتهرب من نتائجها، ولا يلقى بأعباء تلك النتائج على الآخرين.

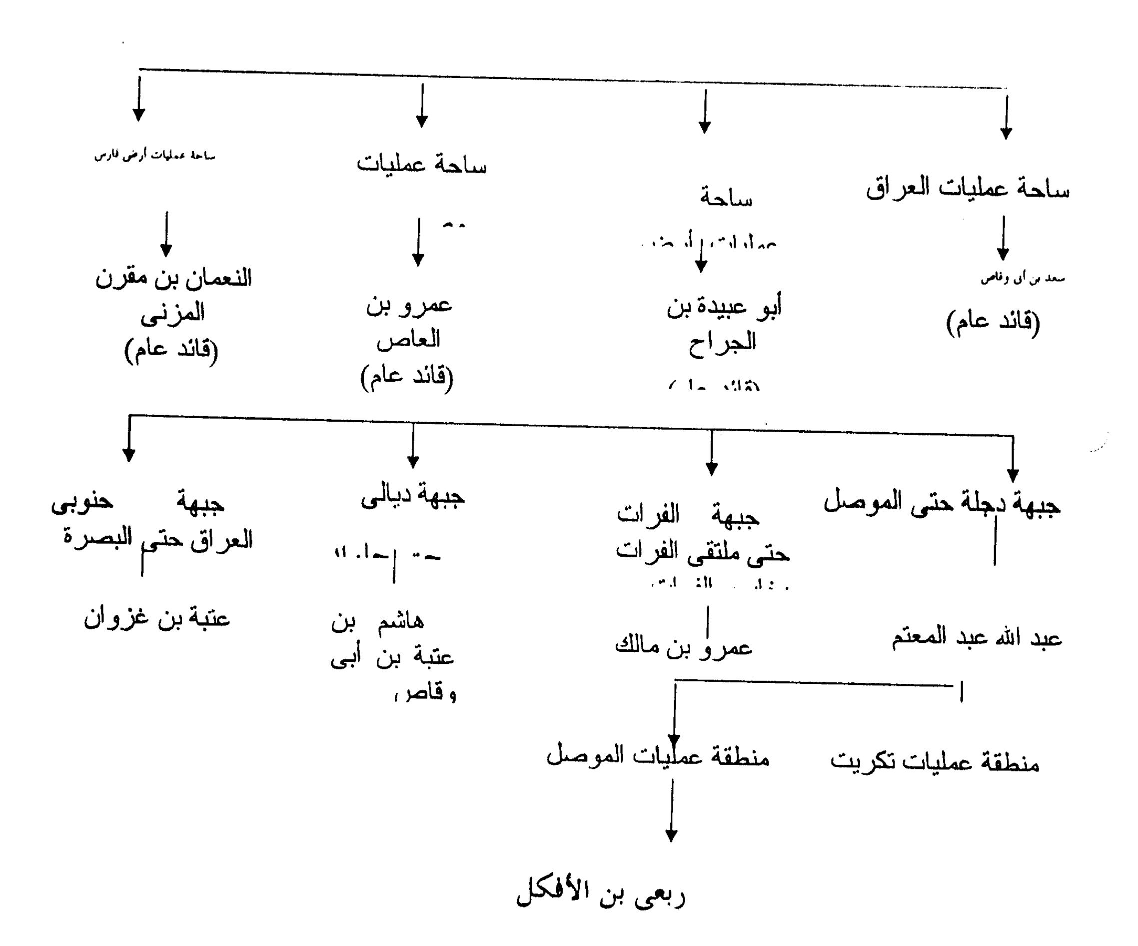
وكانت له تجارب طويلة فى الحرب جندياً وقائداً مرؤساً ومستشاراً خبيراً للرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام ولخليفته أبى بكر الصديق رضى الله عنه من بعده، كما كان خبيراً بمبادئ الحرب مطبقاً لها عالماً بتفاصيلها حريصاً على مراعاتها.

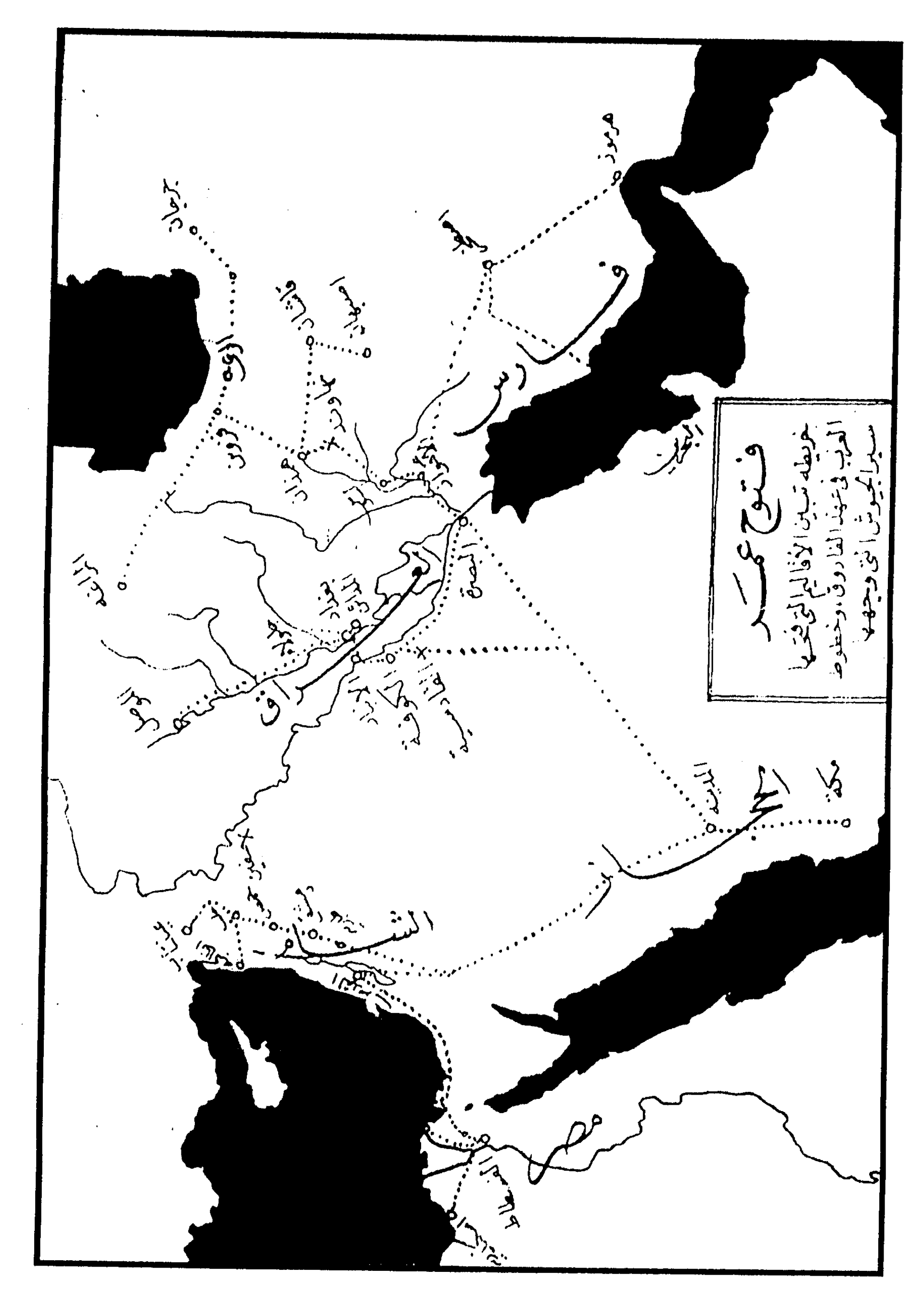
تلك هى الأسس الموضوعية التى تهيئ لكل قائد أنسب فرصة للنجاح فى اعداد الخطط الاستراتيجية، والتى تهيأت لعمر بشكل واضح ملموس قلّ أن نجد له مثيلاً فى تاريخ الحروب فى كل زمان ومكان...

فلا عجب – بعد ذلك – أن تكون خططه الاستراتيجية دقيقة متكاملة عملية بعيدة عن المخاطر، ولا عجب أن تكون نتائجها فتحاً مستداماً لم تتراجع راياته منذ أربعة عشر قرناً حتى اليوم.

لقد كان عهد عمر عهداً ذهبياً للفتح الإسلامى العظيم.

تفصيل
ساحة الحرب




فتوح عمر
خريطة تبين الأقاليم التي فتحها
العرب في عهد الفاروق وخطوط
سير الجيوش التي وجهها
فارس
العراق
الشام
الحجاز
مصر
مكة
المدينة
البحرين
هرمز

استشهاد عُمَر بن الخَطاب

مؤامرة دبرها أعداء الإسلام

*****

كانت الأضواء الأولى من الفجر تنبعث من المشرق وترسل على الكون أشعتها الفضية فتبدد شيئاً من كثافة الظلام المخيم على المدينة، وكان المسلمون قد بدأوا يتوافدون على المسجد زرافات ووحدانا ليقيموا صلاة صبح اليوم السابع والعشرين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين للهجرة، وقد جلس السابقون منهم فى غلس السحر يذكرون الله ويتلون ما تيسر من الذكر الحكيم منتظرين أن يوافيهم أمير المؤمنين ليؤمهم فى الصلاة

أما أمير المؤمنين فكان فى تلك الساعة يتجول فى الأزقة – جرياً على العادة التى ألفها منذ ولى الخلافة – ويطرق براحته الغليظة أبواب الناس ليوقظ النائمين منهم منادياً أمام كل باب: "الصلاة الصلاة، يا عباد الله بادروا إلى طاعة الله". فلما انتهى من تجواله واطمأن إلى أنه أدى هذا الواجب الأولى الذى كان يستفتح به يومه، اتجه شطر المسجد ملتفاً ببردته حاملاً فى يسراه الدرة التى لا تفارقه، وهى قضيب من خيرزان رفيع كان يؤدب به الصبية ويلوح به فى وجوه من تحدثهم أنفسهم بالخروج على أوامر الله، ولعل هذه الدرة كانت هى الصولجان الذى قنع به ذلك الملك الزاهد فى مظاهر الملك وأبهة الملوك.

وأقبل عمر وهو يتمتم بآيات من القرآن ويتلو بعض عبارات الاستغفار ويمشط لحيته بأصابعه واقتحم عتبة المسجد بخطواته الواسعة وسار بين الناس يحييهم فيردون تحيته بأحسن منها، ونهض المسلمون يتأهبون للصلاة، ووقفوا صفوفاً متراصة، وسار عمر بين هذه الصفوف يقوّمها بدرته ويسويها مشيراً إلى هذا ليتقدم خطوة وإلى ذاك ليتأخر خطوة، ثم قصد إلى الصدر واستقبل القبلة وألق الدرة من يده وكبر وتشهد وبدأ الصلاة.

وبينما المصلون سجود يردد كل منهم قول الإمام "سبحان ربى الأعلى" وينتظر أن ينهض عمر من سجدته لينهض الناس وراءه، إذا برجل كان يصلى إلى جانب المنبر قد انقض على الخليفة وبرك عليه واستل خنجراً ذا شعبتين وجعل يطعنه به طعنات سريعة متوالية، وإذا الخليفة يصيح: "آه... لقد عقرنى الكلب"

رفع المصلون رؤوسهم دهشة وذعراً فرأى المتقدمين منهم فيروز أبا لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة ينهض من فوق ظهر عمر وفى يمينه خنجر يقطر دماً، ورأوا عمر يميل على جانبه ويتمدد فوق الأرض وهو يئن أنيناً مصحوباً بحشرجة طويلة ويبسط راحتيه ويقبضهما ويردد الشهادتين ويقول: "هذا قضاء الله فلا حول ولا قوة إلا بالله"

استولى على الناس ذهول شديد شل أيديهم وعقل ألسنتهم فلم يستطيعوا أول الأمر إلا أن يصيحوا صيحة الهول والفزع، والا أن تضطرب صفوفهم ويختل نظامهم. ولكنهم إذ رأوا أمير المؤمنين يتخبط فى دمه الذى بلل ما تحته والقاتل واقفاً جاحظ العينين فاغراً فاه كالمجنون متحفزاً للوثوب على من يدنو منه، هرع بعضهم إلى الجريح يحتضنونه ويكشفون عن جراحه، وانقض الآخرون على العبد يحاولون الأخذ بتلابيبه والقبض عليه.

بيد أن اليائس لا يخاف، ولقد أدرك أبو لؤلؤة أن لا نجاة له من أيدى القوم المتكاثرين عليه إلا إذا أرهبهم وصدهم عن نفسه ليشق بين صفوفهم طريقاً إلى الباب، فأعمل الخنجر فيمن حوله وجعل يضرب يميناً وشمالاً والصيحات تتصعد من كل جانب والناس يفرون من بين يديه، حتى ألهم الله أحدهم فألقى على رأسه عباءة غطت عينيه وعاقت حركته، وأحس العبد أنه لا محالة مأخوذ فطعن قلبه بخنجره طعنه أودت بحياته، فلما طرحوه أرضاً وكشفوا العباءة عن جسمه ألفوه جثة هامدة

****

اختلف أصحاب السير والرواة فى تعليل مقتل عمر فقال بعضهم أن هذه المأساة الفاجعة جاءت نتيجة حقد أحد الموالى عليه، وذكروا أن أبا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة صادف عمر فى السوق يوما وشكا إليه فداحة الخراج الذى فرضه سيده المغيرة عليه وتوسل به فى تخفيف هذا الخراج، فسأله عمر عن مقدار خراجه فقال: درهمان كل يوم، فسأله ما صناعته فقال: حداد ونحاس ونقاش. فانتهره عمر وصاح فى وجهه: "أليس هذا الخراج بكثير على رجل يمتلك كل هذا الصناعات" فذهب العبد يقول: "ما لعدل عمر شمل جميع الناس إلاى؟" وأسرها ضغينة ظلت تأكل قلبه حتى شفاها بجنايته الشنعاء. ويؤيد الرواة هذا التعليل بذكرهم أن عمر قال لأبى لؤلؤة يوماً: "لقد بلغنى أنك تقول لو أردت أن أصنع رحى تدور بالريح لفعلت فهل قلت ذلك حقا؟" فنظر إليه العبد نظرة غيظ وأجاب: "نعم قلت ذلك ولو مد الله فى أجلى لأصنعن لك رحى يتحدث بها أهل الخافقين" فلما انصرف أطرق عمر مفكراً وشيعه بنظرة قلقة وقال: "لقد توعدنى العبد"

وذهب غير أولئك من المؤرخين إلى أن مقتل عمر إنما وقع نتيجة لمؤامرة رهيبة دبرها الأعاجم المقيمون فى المدينة انتقاماً من الخليفة الذى فتح بلادهم وأباد عرشهم وأذل ملوكهم، ولو امتد به الأجل لمد سلطان المسلمين إلى أقصى المشرق وأقصى المغرب ولجعل من العالم كله مستعمرة إسلامية عزيزة الجانب رفيعة المقام.

وما دام العرب لم يكتبوا تاريخهم ولم يدونوا حوادثهم وقت وقوعها أو بعد وقوعها بقليل. فليس يسع المؤرخ اليوم أن يؤكد أى التعليلين أصح وأصدق، بل ليس يسعه حيال تلك الروايات المختلفة إلا أن يوازن بينها ليأخذ بأقربها إلى العقل وأدناها إلى المنطق، مؤيداً استنتاجه بما اتفق عليه أكثر الرواة وبما تناهى إليه من شهادة المعاصرين.

ولقد يند عن تصور الذين درسوا سيرة عمر وعرفوا ما اتصف به من شدة البأس والمراس وما كان له من المكانة بين الناس والهيبة فى نظرهم، أن يجترئ عبد كأبى لؤلؤة على توعده أو أن يقدم على قتله بين جمهرة المسلمين لسبب تافه كذلك الذى يعلل به الرواة مقتل ابن الخطاب

أما مؤامرة الأعاجم على حياة عمر انتقاماً لعزتهم القومية فقد يبدو أمرها عجيباً بعد أن انقضى على فتح بلادهم سبع سنوات. فلقائل أن يقول: ما لهؤلاء الأعاجم قد صبروا واستكانوا هذه الحقبة من الزمان؟ وما الذى أثار العزة القومية فى نفوسهم بعد تلك السنين الطوال؟ ولم لم يفتكوا بعمر أثر قدومهم المدينة وقد كان عمر يتجول كل يوم فى أزقتها وأسواقها وحيداً أعزل وينام على قارعة الطريق فى ظل جدار المسجد بلا حراس ولا أجناد ويخرج إلى الصحراء منفرداً ليستقبل رسل القواد وأمراء الجيوش؟

ولقد تكون لهذا الاعتراض وجاهته إذا صح أن أصحاب المؤامرة كانوا كلهم من الفرس، أو لو وقف سبب تآمرهم عند حد الثأر لكرامتهم الوطنية التى أهدرتها جيوش المسلمين. أما وقد كان قوام هذه المؤامرة خليطاً من الفرس يمثلهم الهرمزان الأعجمى، ومن المسيحيين يمثلهم جفينة النصرانى، ومن اليهود المتمسلمين يمثلهم كعب الأحبار، ومن المجوس يمثلهم فيروز أبو لؤلؤة مولى المغيرة، وأما وقد كان سبب المؤامرة خوف أولئك جميعاً من أن تمتد فتوحات المسلمين بزعامة عمر وحُسن تدبيره وأحكام خططه حتى تغمر كل البلاد وكل الأديان فلا يصبح للعالم حاكم سواه ولا دين سوى الإسلام – فإن الأمر يبدو عندئذ معقولاً لا غرابة فيه.

ومن المعلوم أن الهرمزان كان من قواد الجيش الفارسى وقد هزمه سعد بن أبى وقاص وأسره، وأنه لم يعتنق الإسلام إلا لينجو من القتل، وقد عاهد المسلمين على الولاء لدينهم

وخليفتهم ثم نكث عهده غير مرة وانطلق يحرض مواطنيه ويثير مواطنيه ويثير دهاقينهم على المسلمين، فلما أخفقت جهوده وفشلت مساعيه عاد إلى الإسلام وهو يضمر له الحقد الدفين.

ومعلوم أيضاً أن جفينة النصرانى أتى به سعد بن أبى وقاص من نجران ليعلم أهل المدينة القراءة والكتابة، وقد ظل على نصرانيته ينظر إلى نجاح الإسلام وتقدم فتوحاته بعين الحقد والحسد، حتى إذا بدد المسلمون شمل جيوش الإمبراطور هرقليوس حامى النصرانية ثارت حفيظته وبيت للمنتصرين هذا الكيد العظيم.

وأن كعب الأحبار يهودى عالم داهية رأى راية الإسلام تخفق فوق ربوع اليهود وجيوشه تكتسح الأديان والبلدان، وأيقن أنه لا قوة على الأرض تثبت فى وجه ذلك السيل الجارف، فأسلم وعلى الأصح تظاهر بالإسلام واندس بين المسلمين يفسد عقولهم وعقائدهم بما يلفقه من الأخبار والروايات التى ينسبها كذباً إلى التوراة. وما من شك فى أن هذا الرجل هو مختلق كل الخزعبلات والأساطير والأحاديث التى شابت صفاء الدين الإسلامى وشوشت عقائد المسلمين بعد أن أخذوها منه قضية مقبولة لما كانوا يعرفونه من علمه ويتوهمونه من صدقه وقوة إيمانه

فهل يستغرب بعد ذلك أن يجد الهرمزان فى صاحبيه جفينة وكعب الأحبار حليفين قويين يحركهما نفس الدافع الذى يحركه إلى التخلص من عمر، وأن يجد الثلاثة فى المجوسى الموتور أبى لؤلؤة أداة صالحة لإنقاذ اليهودية والنصرانية والمجوسية من ذلك الخليفة الذى يتهدد أديانهم بالمحو من الوجود؟

وبعد فإن المؤرخين يسوقون من الروايات ما ينهض دليلاً على أن عمر راح ضحية مؤامرة أعداء الإسلام. فلقد ذكر الطبرى أن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق شهد يوم مصرع عمر بأنه بينما كان فى طريقه إلى داره عشية الفاجعة، رأى الهرمزان وجفينة وأبا لؤلؤة يتهامسون ويتناجون، فلما اقترب منهم اضطربوا وسقط من يد أحدهم خنجر ذو شعبتين ونصابه فى وسطه، وهو نفس الخنجر الذى طعن به أبو لؤلؤة أمير المؤمنين. ولقد تحقق عبد الله بن عمر صحة هذه الرواية واقتنع بصدقها فحمل سيفه وانتقم لأبيه بقتل جفينة والهرمزان وابنه أبى لؤلؤة، وأقسم ليقتلن كل من اشترك فى الجريمة بالايعاز أو بالتدبير، فلما بلغ ذلك عمرو بن العاص ذهب إليه ليهدئ من ثورته وأخذ السيف من يده واقتاده إلى دار سعد بن أبى وقاص وحبسه فيها إلى أن سكنت غضبته.

وجاء فى كتاب "أسد الغابة" أن كعب الأحبار أنبأ عمر بما سيقع له قبل وقوعه بثلاثة أيام إذ ذهب إليه وقال: "يا أمير المؤمنين اعهد فإنك ميت فى ثلاثة أيام" فسأله عمر: "وما يدريك؟" قال: "أجد ذلك فى التوارة" فلما كان اليوم الثانى ذهب إليه وقال: "يا أمير المؤمنين انقضى يوم وبقى يومان فاعهد" ولما كان اليوم الثالث ذهب إليه أيضاً وقال: "لم يبق من حياتك يا أمير المؤمنين سوى يوم واحد وهو لك بليلته حتى مطلع الفجر" ولكن عمر لم يشأ أن يصدق ذلك، أو لم يرد ان يحتاط له استخفافاً به وإيماناً منه أن لن يصيبه إلا ما كتب الله له.

وأغلب ظنى أن هذه الرواية موضوعة لفقها اليهود بعد مقتل عمر ليعظموا من شأن كعب الأحبار فى نظر المسلمين، وإلا فلو أن كعب الأحبار أخطر الخليفة بما يقال أنه أخطره به لشدد عليه عمر فى السؤال ولأثار عجبه أن يرد ذكره فى التوراة.

على أن رواية "أسد الغابة" إذا صحت فهى تشعرنا بأن كعب الأحبار كان على علم بما يبيت لعمر وإنما أراد أن يمهد طريق براءته من المؤامرة إذا فشلت بأن يقول: لقد حذرت عمر ولو كنت شريكاً فيها ما حذرته.

***

الآن وقد أوردنا ما قيل فى تعليل مقتل عمر وما يحسن التعويل عليه من تلك الأقوال، نعود إلى الشهيد الأعظم لنرى كيف وفيم أمضى ساعاته الأخيرة، ولنتلقى أبلغ درس فى نسيان النفس والإيمان بالله والاستهانة بالدنيا ألقاه على العالم أعظم أمير حكم المسلمين من فوق ذلك المنبر الرهيب الذى يسمونه فراش الموت.

سقط عمر تحت ضربات أبى لؤلؤة فكان أول ما فعله أن قال: "أخرونى عن القبلة" فلما أرقدوه إلى جانب المنبر وأقبلوا عليه يواسونه ويحاولون تضميد جروحه أشار إليهم بيده أن يكفوا عن ذلك وسأل: "أفيكم عبد الرحمن بن عوف؟" فصاح عبد الرحمن: "ها أنا يا أمير المؤمنين" فقال عمر: "تقدم وصل بالناس يا ابن عوف؟" ثم اعتمد بكوعه على الأرض وحبس بيده احشاءه فى بطنه المبقور وصلى مع الناس صلاة خافتة لم يستطع فيها قياماً ولا ركوعاً ولا سجوداً. ولعمرى لو حاول أبلغ الكتاب أن يوفى هذا النسيان للنفس فى ذلك الموقف العصيب حقه من الإعظام والإكبار لانتقص من جلاله وأزرى بروعته فلندعه إذن لتقدير النفوس صوناً له من عجز الأقلام.

ويستعلم الفاروق عن ضاربة فيقال له إنه أبو لؤلؤة فيفرح ويسر ويقول: "الحمد لله الذى لم يجعل قتلى على يد مسلم يشاركنى فى قولة لا إله إلا الله" ويسأل من حوله أللمسلمين ضلع

فيما وقع له فيقولون كلهم: "والله لقد وددنا أن نفديك بأرواحنا يا أمير المؤمنين" فيتنفس الصعداء ويقول: "الحمد لله".

ويأمر فينقل إلى داره هادئ النفس رابط الجأش ويجتمع الناس حول فراشه يبكون أسفاً وجزعاً كأن لم تصبهم مصيبة قبل ذلك فينتهرهم قائلاً: "ألم تسمعوا قول رسول الله أن اللعنة تصيب الميت بقدر بكاء أهله عليه؟" ويستشار في استدعاء الطبيب فيقول": "ويحكم أيها الناس أأنظر في أمر نفسي قبل أن أنظر في أمور المسلمين؟".

ويقول له كبار الصحابة: "استخلف علينا خليفة يا أمير المؤمنين" فيجيب: "إن أترككم فقد ترككم من هو خير مني (يعني رسول الله) وإن استخلف فقد استخلف عليكم من هو خير مني. ولو كان أبو عبيدة عامر بن الجراح حياً لاستخلفته فإن سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة" ويقترحون عليه أن يستخلف ابنه عبد الله فيقول: "بحسب آل الخطاب أن يحاسب واحد منهم عن أمة محمد، ولقد وددت لو أني نجوت بنفسي من هذا الأمر كفافاً لا عليّ ولا لي" ويراجعونه في وجوب اختيار من يخلفه فيقول: "كنت اعتزمت بعد مقالتي لكم أن أولي عليكم رجلاً أرجو أن يحملكم على الحق (ويشير إلى على بن أبي طالب) ولكني رأيت أن لا أتحملها (أي المسئولية) حياً وميتاً. فعليكم بهؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي أنهم من أهل الجنة" ويذكر ستة أسماء ويوصي أن يجتمعوا ويتشاوروا ويقول": "فليختاروا منهم رجلاً فإذا ولوكم والياً فأحسنوا مؤازرته"

وجاء في كتاب "العقد الفريد" عن ابن عباس أنه قال:

"دخلت على عمر في أيام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدم وعنده جماعة من أصحاب رسول الله فقال له رجل: لا بأس عليك يا أمير المؤمنين، فقال عمر: لئن لم يكن عليّ اليوم بأس ليكونن على بعد اليوم. وأن للحياة لنصيباً من القلب وأن للموت لكربة.. ولما كنت منكم ومن أمركم إلا كالغريق يرى الحياة فيرجوها ويخشى أن يموت دونها فهو يركض إليها بيديه ورجليه.. ولقد تركت زهرتكم كما هي لما لبستها فاخلقتها، وثمرتكم يانعة في أكمامها ما أكلتها، وما جنيت الذى جنيت إلا لكم، وما تركت ورائي الا عدا ثلاثين أو أربعين درهماً.. ثم بكى وبكى الناس معه فقلت له: طب نفسا وابشر يا أمير المؤمنين فوالله لقد مات رسول الله وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وأن المسلمين عنك لراضون. فقال: المغرور والله من غررتموه وإني لأعرف ما لنفسي وما عليها وما حسابي إلا عند الله"

ويشفق على المسلمين من نزوات نفوس الذين قد يخلفونه فيستدعي عليا وعثمان والزبير وسعداً وطلحة ويقول لهم: "اقضوا في أمركم واختاروا واحداً منكم" ثم يقول: "أناشدك الله يا

على إن وليت من أمور الناس أن لا تحمل بنى هاشم على رؤوس المسلمين. وأناشدك الله يا عثمان أن لا تجعل بنى معيط على رقاب الناس. وأناشدك الله يا سعد أن لا تقدم أهلك على سائر العرب، قوموا وتشاوروا واقضوا أمركم وليصل بالناس صهيب"

ويملى وصيته فيقول: "أوصى الخليفة من بعدى بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين الأولين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أن يعرف حقهم ويحفظ كرامتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً فيقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم ويشركهم فى الأمر. وأوصيه بذمة الله وذمة محمد (أى أهل الذمة) أن يفى بعهدهم ولا يكلفهم فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم"

ويدعوا ابنه ويقول له: "يا عبد الله انظر ما على من الديون". فيحصونها ويجدون أنها ستة وثمانون ألف درهم، فيقول: "إن كان فى مال آل عمر ما يكفى فأدوه من مالهم وإلا فسل فى بنى عدى فإن لم تف أموالهم فسل فى قريش ولا تعد عنهم إلى غيرهم" ويطرق برهة ثم يقول: "اذهب إلى عائشة أم المؤمنين يا عبد الله وقل لها ان عمر يقرئك السلام ولا تقل امير المؤمنين فلست اليوم للمؤمنين أميرا، وأنه يستأذنك فى أن يدفن مع صاحبيه (أى مع رسول الله وأبى بكر)"

ولقد ذهب عبد الله إلى عائشة وأبلغها رسالة أبيه فقالت: "كنت أريد هذا المكان لنفسى وانى لأوثر به عمر" وعاد عبد الله فأخبر عمر بما قالت فتهلل وجهه وقال: "الحمد لله فما كان شئ أهم لنفسى من ذلك. والآن إذا قبضت فاحملونى ميتاً واذهبوا بى إلى عائشة وقولوا لها أن عمر يستأذن فى أن يدفن إلى جانب رسول الله وأبى بكر فإن أذنت فادخلونى وإلا فردونى إلى مقابر المسلمين بالبقيع" فلما قيل له أنها أذنت قال: "اخشى أن تكون قد ندمت على ما أذنت أو أن تكون قد أشفقت من ان تخيب رجاء أمير المؤمنين فاعيدوا عليها الكرة وانا لست أميراً للموؤمنين"

ويستدعى الطبيب بعد ذلك فينظر فى جراحه ويسقيه دواء فيخرج الدواء من شق بطنه ويسقيه لبناً فيخرج بلونه من ذات الشق فيصارح الجريح بالحقيقة ويقول: "اعهد يا أمير المؤمنين فليست لى فيك حيلة" فيجيب عمر: "صدقت ولو قلت لى غير ذلك لكذبتك"

وإذ يحس قرب النهاية ويخشى أن يختلف الزعماء على الخلافة بعد موته يستقدم إليه أبا طلحة الأنصارى والمقداد بن الأسود ويقول للاول: "لقد أعز الله الإسلام بك يا أبا طلحة فاختر خمسين رجلاً من الأنصار وكونوا مع هؤلاء الرهط (يريد علياً وعثمان وسعد وغيرهم) حتى يختاروا واحداً منهم" ويقول للمقداد: "كن مع أبى طلحة فإن اجتمع خمسة على رأى واحد وأبى السادس أن ينزل عليه فاشدخ رأسه بالسيف، وان اجتمع أربعة على

رأى وخالفهم الاثنان فاضرب رأسيهما، وإن انقسما فريقين متعادلين فحكموا بينهما عبد الله ابن عمر، فإن لم يرضوا بعبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس"

ويدخل فى دور النزع فلا يقوى على التفكير فى المسائل العامة فينصرف إلى اعتبارات أقل خطراً ويذكر أن الذى قتله علج فيقول: "ألم أقل لكم لا تجلبوا علينا أحداً من العلوج فلم تطيعونى؟" ثم تثقل عليه الحال وتخور قواه فيقول: "انزعوا الفراش من تحتى واجعلونى على الأرض ووسدوا خدى التراب" ويلفظ النفس الأخير وهو يهينم: "ويلى وويل أمى إن لم يغفر لى ربى".

إيه يا عمر ما أعرفك بأقدار الناس وما أجهلك بقدر نفسك! فيم تطلب الغفران وأنت ارفع عند الله مقاماً من أن يسألك عن شئ وأعز لديه قدراً من أن يدخلك الجنة بعد حساب؟!

تأبين عمر بن الخطاب

* قال على بن أبى طالب حين رأى عمر بن الخطاب مسجى على فراش الموت:

"ما على الأرض أحد أحب أن ألقى الله بصحيفته إلى هذا المسجى بينكم"

* قال عبد الله بن سلام: "نعم أخو الإسلام كنت يا عمر. جواداً بالحق، بخيلاً بالباطل، ترضى حين الرضى، وتغضب حين الغضب، عفيف الطرف، طيب الظرف، لم تكن مداحاً ولا مغتاباً"

* أنشد حسان بن ثابت فى رثائه:

ثلاثة برزوا بفضلهم ... نصرهم ربهم إذ نشروا

فليس من مؤمن له بصر ... ينكر تفضيلهم إذا ذكروا

عاشوا بلا فرقة ثلاثتهم ... واجتمعوا فى الممات إذ قبروا

* رثته ابنة أبى حتمة قائلة: "واعمراه! أقام الأود، وأبرأ العمد. أمات الفتن، وأحيا السنن. خرج نقى الثوب. بريئاً من العيب"

* نشدت زوجته عاتكة ابنة زيد بن عمرو:

عين جودى بعبرة ونحيب ... لا تملى على الإمام النجيب

فجعتنى المنون بالفارس الـ ... معلم يوم الهياج والتلبيب

عصمة الناس والمعين عل الد ... هر وغيث المنتاب والمحروب

قل لأهل السراء والبؤس موتوا ... قد سقته المنون كأس شعوب

* وقال حافظ إبراهيم فى عمريته المشهورة:

مولى المغيرة، لا جادتك غادية ... من رحمة الله ما جادت غواديها

مزقت منه أديما حشوه همم ... فى ذمة الله عاليها وماضيها

طعنت خاصرة الفاروق منتقماً من الخليفة فى أعلى مجاليـــها
فأصبحت دولة الإسلام حائـرة تشكو الوجيعة لمـا مـات آسيــها
مضى وخلفها كالطود راسـخة وزان بالعدل والتقـوى مغانيــها
تنبو المعاول عنها وهى قائـمة والهادمـون كثيـر فى نواحيــها
حتــى إذا ما تولاهــا مهدمـــها صاح الزوال بها فاندك عاليــها

صدى وفاته

وتأثر الناس لمقتله

لما أصيب المسلمون فى عمر، كان الناس كأنهم لم تصيبهم مصيبة قبل ذلك! .

عن الأحنف بن قيس، قال:

سمعت عمر يقول: إن قريشاً رءوس الناس، ليس أحد يدخل منهم فى باب إلا دخل معه طائفة من الناس![1]

فلما طعن عمر، أمر (صهيباً) أن يصلى بالناس، ويطعمهم ثلاثة أيام، حتى يجتمعوا على رجل !

فلما وضعت الموائد كف الناس عن الطعام.

فقال (العباس) عم النبى ﷺ:

أيها الناس، إن رسول الله ﷺ قد مات، فأكلنا بعده وشربنا. ومات (أبو بكر) فأكلنا وشربنا؛ فإنه لا بد للناس من الأكل والشرب! .

فمد يده فأكل، فأكلت الناس! .

---

[1] أى: أن قريشاً قدوة وأئمة للناس، والعرب، يتبعونهم فى أعمالهم وتصرفاتهم؛ لذا؛ قال الرسول ﷺ: الأئمة من قريش.

قال الأحنف: فتحققت قول (عمر) في قريش.

رثاء عمر

١- رثاء علي له:

قال ابن العباس:

وضع عمر بن الخطاب على سريره (نعشه)، فأحاط به الناس؛ يدعون ويصلون له قبل أن يرفع، وأنا فيهم.

فلم يرغني إلا رجل قد أخذ بمنكبي من ورائي، فالتفت فإذا هو (علي بن أبي طالب).

فترحم على عمر، وقال:

"ما خلفت أحداً أحب إلي أن ألقى الله بمثل عمله منك! وايم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك!

وذلك أني كنت كثيراً أسمع من رسول الله ﷺ يقول:

"فذهبت أنا وأبو بكر وعمر. وخرجت أنا وأبو بكر عمر. ودخلت أنا وأبو بكر وعمر.

فإن كنت لأظن أن يجعلك الله معهما! "

ثم اتجه علي إلى الناس، وقال:

"والله مع على الأرض رجل أحب إلي أن ألقى الله بصحيفة عمله مثل هذا المسجى بالثوب! " [١]

ثناء عثمان على عمر

[على خلاف طريقتهما في حكم الناس]

---

[١] يود (علي) أن يلقى الله بصحيفة عمل كصحيفة عمر. وهذه شهادة كريمة من ابن عم الرسول ﷺ، صاحب المناقب الجمة لعمر. والمسجى بالثوب: المغطى بالكفن.

قال ابن سيرين: كتب (عمر) إلى (أبى موسى الأشعرى):

إذا جاءك كتابى هذا فأعط الناس أعطياتهم، واحمل ما بقى إلينا مع زياد [يعنى زياد ابن أبيه]. ففعل

فلما كان (عثمان) كتب إلى (أبى موسى) بمثل ذلك، ففعل.

فجاء (زياد) بما معه، فوضعه بين يدى (عثمان).

فجاء ابن لعثمان، فأخذ شيئاً بذاته من فضة، فمضى بها.

فبكى زياد! . فقال له عثمان: ما يبكيك،

قال زياد: "أتيت عمر بمثل ما أتيتك به، فجاء ابن له فأخذ درهماً. فأمر به فانتزع منه، حتى أبكى الغلام

وأن ابنك هذا جاء فأخذ هذه فلم أر أحداً قال له شيئاً ! ".

فقال عثمان: إن (عمر) كان يمنع أهله، وأقرباءه ابتغاء وجه الله! وإنى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله! ولن تلقى مثل عمر! [وكررها ثلاثة مرات].

وقيل لعثمان: ألا تكون مثل عمر؟

فقال: "لا استطيع أن أكون مثل لقمان الحكيم! "[1].

كلمة ابن مسعود فى عمر

عن زيد بن وهب قال:

أتينا (عبد الله بن مسعود)، فذكر عمر، فبكى، حتى ابتل الحصى من دموعه! وقال:

"إن عمر كان حصناً للإسلام؛ يدخلون فيه ولا يخرجون منه. فلما مات عمر انثلم الحصن؛ فالناس يخرجون من الإسلام"[2]

---

(١) يقر عثمان بالعجز عن مجاراة عمر فى أعماله؛ ويصفه بلقمان الحكيم.
(٢) يريد أن الناس يتحللون من تعاليم الإسلام شيئاً فشيئاً؛ فيسرفون فى الحلال حتى يقاربوا الحرام

وقال: "والله ما أحسب شيئاً إلا وقد دخل عليه الحزن لفقد عمر حتى الشجر الشائك!

ولو علمت أن (كلباً) يحب عمر لكان من أحب الكلاب إلى ![1]

وقال: "إني لأحسب عمر بني عينيه ملك يُسدده ويقوّمه.

وإني لأحسب الشيطان يفرق من عمر أن يحدث حدثاً فيرده ! "

وقال: "كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة ! "

---

(١)هذه كلمة مؤثرة من ابن مسعود؛ استمدها من قلبه النقي.

ابن الخطاب

[فى رأى داهية العرب ، وداهية الفرس]

كلمة عمرو بن العاص فى عمر:

قال عمرو: "ما رأيت أحداً بعد نبى الله ﷺ، وأبى بكر – أخوف لله من عمر! لا يبالى على من وقع الحق؛ على ولد أو والد!"

وقال وهو يسير فى موكبه ذات يوم، وقد تذكر (عمر) الذى كان يحاسب الأمراء على المظاهر؛ وذلك بعد وفاته: "لله در ابن حنتمة[1]! أى امرئ كان؟!".

(ورستم) أيضاً:

كان رستم أسطورة بين أبطال فارس، وكان يستهين بالعرب وجندهم، ويرى أنهم أمة متخلفة. ولكنه رأى منهم فى المعارك بطولة لم يكن يتوقعها، ومكايد ظن العرب لا يعرفونها. وأرجع ذلك إلى (عمر) الذى يمد جيشه بالفكرة والنصيحة، والتخطيط للمعارك

فقال فيه قولة مشهورة لمن اتهمه بأنه يهرب من وجه العرب: "إنه هو عمر؛ يكلم الكلاب فيعلمهم العقل! أكل عمر كبدى، أحرق الله كبده".[2]

---

(1) حنتمة: أم عمر

(2) يقصد الكافر بالكلاب أمة العرب (لعنة الله!)؛ ويذكر أن عمر أحرق كبده من الغيظ؛ حين هرم جيشه، وكانت نهايته على يد العرب.

كلمة عائشة رضى الله عنها:

عن القاسم بن محمد، عن عمته عائشه، أنها قالت: "من رأى عمر بن الخطاب علم انه خُلق غناء للإسلام؛ كان والله أجودنا له، نسيج وحده، قد أعد للأمور أقرانها. وإذا ذكر عمر طاب المجلس".[١]

وقالت: "زينوا مجالسكم بالصلاة على النبىﷺ، وبذكر عمر بن الخطاب".

كلمة أم أيمن حاضنة النبىﷺ:

قالت يوم أصيب عمر: "اليوم وَهَى الإسلام!"

***

كلمة الشفاء أم ابن عوف:

قالت: وقد رأت فتياناً يتمهلون فى المشى، ويخفضون الصوت فى الحديث: من هؤلاء؟

فقيل لها: هؤلاء قوم نساك زهاد!

قالت: كان والله عمر إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب اوجع، وهو الناسك حقاً!"

كلمات فى رثائه

١ـ قال (سعيد بن زيد) ابن عمه وصهره:

قال يوم مصرع عمر: "اليوم ثُلم الإسلام ثلمة لا ترتق إلى يوم القيامة!"[٢]

***

(١) كلمات عائشة بليغة وجامعة، معنى: نسيج وحده؛ ليس له فى الناس نظير بعد رسول الله وصاحبه.

(٢) ثلم السيف والسكين: ذهب حده فلم يقطع. ترتق: تصلح.

٢ـ وقال ابن عباس:

كان عمر بن الخطاب كالطائر الحذر؛ كان له فى كل طريق شر كاً!"[١]

***

٣وقال أبو طلحة الأنصارى:

"و الله ما من أهل بيت من المسلمين إلا قد دخل عليهم فى موت عمر نقص فى دينهم أو دنياهم!"

٤ـ وقال حذيفة بن اليمان [صاحب السر]:

"إنما كان مَثل الإسلام أيام عمر، مثل امر مُقبل، لم يزل فى إقبال فلما قتل أدبر فلم يزل فى إدبار![٢]"

***

٥ـ وقال عبد الله بن سلام:

وقد فاتته صلاة الجنازة على عمر ﷺ : "إن كنتم سبقتمونى بالصلاة عليه فلم تسبقونى بالثناء عليه.

ثم قال: "نعم أخا الإسلام يا عمر!؛ جواداً بالحق، بخيلاً بالباطل، ترضى من الرضا، وتسخط من السخط! لم تكن مداحاً، ولا مغياباً؛ بل طيب العرف، عفيف الطرف".

***

---

(١) الطائر الحذر: المتخوف أن يقع فى المصيدة. والشرك: الفخ.
(٢) أى: كان مقتله نقطة تحول من عصر الجماعة والألفة إلى عصر الفتن والمعارك بين طوائف المسلمين.

١ - وصيته للجيش المقاتل:

قال حيوة بن شُريح:

كان (عمر) إذا بعث الجيوش أوصاهم بتقوى الله، ثم قال عند عقد الألوية"

"بسم الله، وعلى عون الله. امضوا بتأييد الله والنصر، ولزوم الحق والصبر.

قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله، ولا تعتدوا؛ إن الله لا يحب المعتدين.

ثم لا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة(١)، ولا تسرفوا عند الظهور(٢)، ولا تتكلموا عند الجهاد(٣)!.

ولا تقتلوا امرأة، ولا هرماً، ولا وليداً، وتوقوا قتلهم إذا إلتقى الجمعان، وعند حُمة النهضات، وفى شن الغارات،

ولا تغلوا عند المغانم، ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا.

وأبشروا بالأرباح فى البيع الذى بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم"

٢ - وصيته لسعد بن أبى وقاص:

وصى عمر (سعداً) حين ولاة قيادة جيش العراق فقال له:

"يا سعد، لا يغرنك من الله أن يقال لك: خال رسول الله، وصاحبه! فليس بين النبى وبين أحد نسب إلا بطاعة الله! فاصنع ما كان يصنع النبى، واترك ما كان يترك! هذه موعظتى لك

***

٣ - وصيته لولده:

قال عمر لابنه: يابنى اتق الله يقك، وأقرض الله يجزك. واشكره يزدك، واعلم أنه لا مال لمن لا رفق له، ولا جديد لمن لا خلق له، ولا عمل لمن لا نية له.

---

(١)لا تمثلوا بالعدو؛ وتشوهوا صورته عند التغلب عليه.
(٢) لا تسرفوا فى الفرح عند الانتصار عليه فإن الله لا يحب الفرحين.
(٣) يوصيهم بالصمت عند الطعن والضرب، فذلك أهيب لهم عند عدوهم.

٤ ـ وقال يوصى الأحنف:

"يا أحنف، من كثر ضحكة قلت هيبته، ومن مزح استُخف به. ومن أكثر من شئ عرف به، ومن كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه قل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه!"

وصايا وحِكم عُمرية

١ ـ قال عمر:

"من عرض نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن.

ومن كتم سره كانت الخيرة فى يده[١].

وضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك من ما يُوقنك.

ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المسلم شراً، وأنت تجد لها فى الخير حملا[٢].

وما كافأت به من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه[٣].

وعليك بإخوان الصدق فاستكثر منهم؛ فإنهم زين فى الرخاء، وعدة عند عظيم البلاء.

ولا تهاون فى الحلف فيهتك الله سترك![٤]

٢ ـ عن وديعة الأنصارى، قال عمر:

"لا تتكلم فيما لا يعنيك[٥]، واعتزل عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا من يخشى الله عز وجل.

ولا تمش مع الفاجر فيعلمك[٦]، ولا تطلعه على سرك، ولا تشاور فى أمرك إلا الذين يخشون الله عز وجل".

---

(١) أى: ملك أمر نفسه، فإن شاء فعل مانواه، وإن شاء تركه، أما من أفشى سره ولم يعمل بما حدث اتهمه الناس بالخداع والكذب.

(٢) يوصى الناس بحسن الظن بإخوانهم لتدوم مودتهم؛ فلا تتهم شخصاً إلا عن يقين.

(٣) يشير إلى الآية الكريمة: ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن..."

(٤) لا تحلف بالكذب ولو مرة احدة؛ إذ تظن الناس لا يطلعون على كذبك، فيكشف الله سترك فيها، ويعدونك كذابا.

(٥) ما لا يعنيك: ما ليس من شأنك، فالزم حدك ولا تتدخل فى شئون غيرك.

(٦) صحبة الأشرار تعلمك من أخلاقهم، فتصبح مثلهم.

٣ ـ عمر يوصى بعدم البطنة: [البطنة: امتلاء البطن بالطعام]

قال عمر: "أيها الناس، إياكم والبطنة من الطعام؛ فإنها مكسلة عن الصلاة، مفسدة للجسد، مُورثة للسقم[١]، وإن الله عز وجل يبغض الحبر السمين[٢].

ولكن عليكم بالقصد فى قوتكم؛ فإنه أدنى من الإصلاح، وأبعد عن السرف، وأقوى على عبادة الله عز وجل.

ولن يهلك عبد حتى يؤثر شهوته على دينه!"[٣].

٤ ـ المجتمع والسفهاء:

قال عمر: أيها الناس، ما يمنعكم إذا رأيتم السفيه يُحزقُ أعراض النساء من أن تمنعوه؟

قالوا: نخاف لسانه!

قال عمر: ذلك أدنى ألا تكونوا شهداء فى الآخرة.[٤]

٥ ـ الرجل فى أهل بيته:

كان عمر يقول: "أحب أن يكون الرجل فى أهله كالصبى، فإذا احتيج إليه كان رجلاً" [أى: كان يحبه وديعاً فى بيته]

***

٦ ـ عمر ومن يتفاخر بالآباء:

بينما عمر ذات يوم يمشى، وبين يديه رجل يخطر، ويقول: "أنا ابن بطحاء مكة!"[٥]

فوقف عمر عليه وقال له:

"إن يكن لك دين فلك كرم. وإن يكن لك عقل فلك مروءة. وإن يكن لك مال فلك شرف. وإلا فأنت والحمار سواء!"[٦]

---

(١) يشير إلى الحديث: "المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء".
(٢) الحبر من الرجال: السمين الناعم الجلد من الشحم.
(٣) القصد: الاعتدال، الذى أمرنا الله به، فلا إسراف ولا بخل.
(٤) يوصيهم عمر بأن يأمروا بالمعروف، وينهوا عن المنكر، ليكونوا شهداء على الناس فى الآخرة.
(٥) البطحاء: المتسع من أرض الوادى؛ يفخر بأصوله ويسارهم.
(٦) الدين والعقل والمروءة؛ تنهى عن التفاخر بما لا طائل فيه؛ وإلا فيتساوى بالحمار.

٧- التؤدة فى أمور الدنيا:

قال عمر: "التؤدة فى كل شئ خير، إلا ما كان من أمر الآخرة![١]".

٨- طريقة الاستغفار:

قال عمر: "ما من امرئ مسلم يأتى فضاء من الأرض فيصلى فيه الضحى، ثم يقول" "اللهم لك الحمد، أصبحت عبدك على عهدك ووعدك، خلقتنى ولم أك شيئا! أستغفرك فإنى قد أرهقتنى ذنوبى وأحاطت بى إلا أن تغفرها، فاغفرها يا أرحم الراحمين!"

ما يقول عبد ذلك إلا غفر الله له ذنبه، ولو كان مثل زبد البحر[٢]! [وزبد البحر: رغوة مائه]

٩- عمر وحقيقة التقوى:

قال عمر: "من اتق الله لم يشف غيظه من الناس!" ومن خاف الله لم يفعل ما يريد! ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون! وما جرع عهد جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ"[٣]

١٠- أفضل الناس:

عن عبد الله بن سليمان: قال عمر لمن حوله: أى الناس أفضل؟ قالوا: المصلون.

قال عمر: إن المصلى يكون براً وفاجراً!

قالوا: الصائمون قال عمر: إن الصائم يكون براً وفاجراً!

قالوا: المجاهدون فى سبيل الله. قال: المجاهد يكون براً وفاجراً!

قال عمر: لكن الورع فى دين الله الذى يستكمل طاعة الله عز وجل![٤]

١١- العلم والعلماء:

عن العلاء بن المسيب، قال عمر: أيها الناس تعلموا العلم، وتعلموا للعلم السكينة والحلم.

وتواضعوا لمن تعلمون. وتواضعوا لمن تعلمون منه.

---

(١) أى: أن التانى مطلوب إلا فى أداء حقوق الله، وعمل الآخرة.
(٢) لو قال ذلك بإخلاص كعمر يصل إلى ما وصل إليه، والمعول عليه النية.
(٣) يحث عمر الناس على الصبر وكظم الغيظ، والعفو عند المقدرة.
(٤) لا ينظر عمر إلى ظواهر الناس، ولكنه يتفحص سرائرهم، فمن المصلين والصائمين والمحاربين من يصنع هذا رياء الناس، وليس من خشية الله. وأفضل الناس من تمكن حب الله فى قلبه؛ فتراه كذلك فى سائر أحواله.

ولا تكونوا جبابرة العلماء؛ فلا يقوم علمكم بجهلكم!"

١٢ـ عمر وأهل القرآن والعلم:

قال عمر: "يا أهل العلم والقرآن، لا تأخذوا للعلم والقرآن ثمنا! فتسبقكم الدناءة إلى الجنة"

١٣ـ عمر ومؤذن القوم:

قدم قوم على عمر، فقال لهم: من مؤذنكم للصلاة؟

قالوا: عبيدنا ومواليَنا!

فجعل (عمر) يقلب كفيه أسفاً، ويقول: إن ذلكم بكم نقص، لو أطقت الأذان مع الخلافة لفعلت!"

***

١٤ـ عمر والصلاة:

كان عمر يقول: إذا رأيتم الرجل يضيِّع من الصلاة فهو لغيرها من حق الله والناس أشد تضييعاً!".

***

١٥ـ ما يحبب عمر في الحياة:

عن يحيى بن جعدة، كان عمر يقول:

"لولا أني أسير في سبيل الله، أو أضع جنبي لله في التراب، وأجالس أو أجاور قوماً يلتقطون طيب القول، كالملتقط لطيب الثمر – لولا ذلك لأحببت أن أكون لحقت بالله!"

عمر فى التاريخ

المثل الأعلى

بوفاة عمر ﷺ ،ختم أروع فصل فى تاريخ الإسلام والمسلمين منذ أيام النبى إلى آخر الدهر ، فلم يعرف المسلمون، وما أراهم سيعرفون فى يوم من الأيام خليفة يشبه عمر من قريب أو بعيد؛ فقد رأيت أنه كان أزهد خلفاء المسلمين فى الدنيا، وأشدهم لها ازدراء وأعظمهم منها نفوراً.

لقد فتح بلاد فارس كلها، وفتح أرض الشام والجزيرة ومصر وبرقة وطرابلس الغرب، ولم يستطع خليفة بعده أن يزيد على ذلك إلا ما كان من فتح إفريقيا أيام عثمان بن عفان، ومن المضى فى هذا الفتح إلى المحيط، ومن فتح الأندلس أيام بنى أمية.

ولا يعرف المسلمون بعد عمر خليفة أو ملكاً جعل بيت المال ملكاً للمسلمين ينفق منه على الجيوش المحاربة، ويعين منه من احتاج إلى المعونة، ويوفر ما بقى منه ليشيعه بين المسلمين رجالهم ونسائهم وأطفالهم، يأخذون منه أعطياتهم كل عام، تسعى إليهم هذه الأعطيات دون أن يتكلفوا مشقة فى طلبها، سواء فى ذلك منهم القريب والبعيد وقد رأيت أنه كان يحمل بنفسه المال إلى البادية القريبة من المدينة المنورة ومكة المكرمة فيعطيه للناس فى أيديهم، وقد رأيت كذلك فى عام الرمادة أنه كان يحمل الطعام على ظهره ويسعى به إلى الأعراب النازلين حول المدينة المنورة، وربما طبخه لهم بنفسه، ولم يعرف المسلمون ملكاً أو خليفة بعده عنى بحماية الذميين والرفق بهم فى أمرهم كله كما عنى به عمر.

ثم لم يعرف المسلمون خليفة أو ملكاً بعده عنى مثله بأمر الدين وإقامة الحدود وتأديب الناس فى الصغير والكبير من أعمالهم، وعلم المسلمين دينهم رفيقاً بهم، حريصاً على أن تستقيم لهم أمور دنياهم، على أن يجنبهم ما يؤخذون به فى آخرتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

فعل هذا كله حتى بلغ منه ما لم يبلغ الخلفاء والملوك فى الإسلام وفى الأرض التى لم تسلم، فلسنا نعرف اليوم بلداً يوفر فيه الرزق على الناس من بيت المال أو من خزائن الدولة، دون أن يمنعهم ذلك من العمل لأنفسهم وللناس ومن التزيد فى الكسب والتوسع فى الغنى.

ولم يكن عمر يعرف قانوناً إلا القرآن الكريم والسُنة الشريفة، ولم تكن له شرطة يستعين بها على حفظ الأمن والنظام، ولكنه ساس المسلمين على نحو جعلهم جميعاً شرطة له فى المدينة المنورة وشرطة لولاته فى الأمصار؛ فليس غريباً وهو الذى فعل هذا كله وأكثر من هذا كله، أن تكون الفاجعة بموته عظيمة والخطب به جليلاً.

قال الأحنف بن قيس: "كنا جلوساً بباب عمر، فمرت جارية فقالوا: سرّية أمير المؤمنين، فقال: ما هى لأمير المؤمنين بسرّية ولا تحل له، إنها من مال الله! فقلنا: فماذا يحل له من مال

الله تعالى؟ فقال: إنه لا يحل لعمر من مال الله إلا حلتان: حلة للشتاء، وحلة للصيف، وما أحج به وأعتمر، وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، ثم أنا بعد رجل من المسلمين؟!"

ولكن ما هو نوع الحلتين اللتين يرتديهما عمر، وما نفقة حجه وعمرته، وما هو نوع قوته وقوت أهله؟؟...

قال أنس بن مالك: "رأيت عمر بن الخطاب وهو يومئذ أمير المؤمنين وقد رقع بين كتفيه برقاع لبدَ بعضها فوق بعض". وقال: "رأيت عمر ابن الخطاب يرمى جمرة العقبة وعليه إزار مرقوع بفرو، وهو يومئذ والٍ" وقال: "رأيت بين كتفى عمر أربع رقاع فى قميص له"

وأنفق عمر فى حجته ستة عشر ديناراً، فقال: "يا عبد الله بن عمر! أسرفنا فى هذا المال!"، وأنفق فى حجته مرة أخرى خمسة عشر ديناراً. وقد خرج إلى مكة فما ضرب فسطاطاً حتى رجع، وكان يستظل بالنطع.

وقدم أبو موسى الأشعرى فى وفد أهل البصرة على عمر فقالوا: "كنا ندخل كل يوم وله خبز ثلاث، فربما وافقناها مأدومة بزيت. وربما وافقناها بسمن، وربما وافقناها باللبن، وربما وافقناها بالقدائد اليابسة قد دقت ثم أغلى بها، وربما وافقناها باللحم الغريض وهو قليل.. فقال لنا يوماً: أيها القوم! إنى والله لقد أرى تعذيركم وكراهيتكم لطعامى، وإنى والله لو شئت لكنت أطيبكم طعاماً وأرفعكم عيشاً، أما والله ما أجهل عن كراكر واسنمة وعن صلا وصناب وصلائق، لكنى سمعت الله عز وجل ثناؤه عير قوماً بأمر فعلوه، فقال، **﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾** {الأحقاف/٢٠}.

وقال الربيع بن زياد الحارثى لعمر: "إن أحق الناس بطعام لين ومركب لين وملبس لين لأنت"، فرفع عمر جريدة معه فضرب بها رأسه وقال: "أما والله ما أراك أردت بها الله، وما أردت بها إلا مقاربتى"

لقد كان عمر يستنفق درهمين كل يوم له ولعياله، ولم يركب دابة عام الرمادة وقال: "والله لا أركبها حتى تحيى الناس". وكانت بطنه تقرقر من الزيت ذلك العام، فكان يقول: "تقرقر!! والله لا تأكله (أى السمن) حتى يأكله الناس"، ولم يقرب امرأة عام الرمادة، حتى أحيا الله الناس.

وكان يقول: "إنى أنزلت نفسى من مال الله منزلة مال اليتيم: إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف".

إن من سمات عظمة عمر أنه لم يهتم ببطنه وجيبه وفرجه وملبسه وكرسيه، بينما جعل كثير من الحاكمين ذلك كل همهم من الحياة.

إنه لم يقل: إن الدنيا تبدلت، وإننى فتحت البلاد وغلبت القياصرة والأكاسرة، فلا بد من مأكل فاخر، ومال وافر، وملبس لين، ومسكن مريح...الخ. بل بقى كما هو على أثر صاحبيه من قبله: النبى وأبى بكر الصديق، فقال فى خطبة له: "... وإنى امرؤ مسلم وعبد ضعيف إلا ما أعان الله عز وجل، ولن يغير الذى وليت من خلافتكم من خلقى شيئاً إن شاء الله، إنما العظمة لله عز وجل وليس للعباد منها شئ، فلا يقولن أحد منكم: إن عمر تغير منذ ولى، أعقل الحق من نفسى، وأتقدم وأبين لكم أمرى، وأيما رجل كانت له حاجة أو ظلم مظلمة أو عتب علينا فى خلق، فليؤذنى، فإنما أنا رجل منكم".

إن الإنسان – إذا كان إنساناً حقاً – تكون له مثل عليا يؤمن بها، وهو بهذا وحده يتميز عن الحيوان.

والمثال الشخصى الذى ضربه عمر للمسلمين فى النزاهة والأمانة، جعل من كل واحد منهم مثالاً حياً للنزاهة المطلقة وللأمانة النادرة.

لما قدم بسيف كسرى على عمر ومنطقته ونفائسه، قال: "إن أقواماً أدوا هذا لذوو أمانة"، فقال على بن أبى طالب. "إنك عففت فعفت الرعية". فلا يلومن مسؤول خان أمانته أو إرتشى، غيره من الناس إذا خان أو إرتشى، فلو أنه كان أميناً نزيهاً لسرت أمانته ونزاهته إلى من يحكمهم وتمكنت منهم.

كان عمر يقول: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم فى الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم... تزينوا للعرض الأكبر".

وكتب إلى أبى موسى الأشعرى بالبصرة: "أما بعد: فإن أسعد الرعاة من سعدت به رعيته، وإن أشقى الرعاة عند الله عز وجل من شقيت به رعيته، وإياك أن ترتع فيرتع عمالك، فيكون مثلك عند الله عز وجل مثل البهيمة نظرت إلى خضرة من الأرض فرعت فيها تبغى بذلك السمن، وإنما حتفها فى سمنها، والسلام عليك". وكتب إلى أبى موسى أيضاً:

"من خلصت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس، ومن تزين للناس بغير ما يعلم الله من قلبه شانه الله عز وجل، فما ظنك فى ثواب الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام"

"... لم أر عبقرياً يفرى فريه" كلمة قالها النبى عليه السلام فى عمر. وهى كلمة لا يقولها إلا عظيم عظماء، خُلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال. وقال أبو بكر الصديق: "ما على ظهر الأرض أحب إلىّ من عمر".

وقال النبىﷺ: "وزيراى من أهل الأرض: أبو بكر وعمر، وإنهما السمع والبصر".

وقيل لعمر: "إنك قضاء"، فقال: "الحمد لله الذى ملأ قلبى لهم رحمة وملأ قلوبهم رعباً". وعوتب عمر فقيل له: "لو أكلت طعاماً طيباً أقوى لك على الحق"، فقال: إنى تركت صاحبى على جادة، فإن أدركت جادتهما لم أدركهما فى المنزل". وكان يلبس وهو خليفة جبة صوف مرقوعة بعضها بأدم، ويطوف بالأسواق على عاتقه الدّرة يؤدب بها الناس، وإذا مر بالنوى وغيره يلتقطه ويرمى به فى منازل الناس ينتفعون به!!

ورآه على بن أبى طالب يعدو إلى ظاهر المدينة المنورة، فقال له: "إلى أين يا أمير المؤمنين؟"، فقال: "قد ندّ بعير من إبل الصدقة، فأنا أطلبه". فقال: "قد أتعبت الخلفاء من بعدك".

لقد أتعب الخلفاء من بعده حقاً، وقد مضت القرون ولم تلد النساء مثله، ولا أراها ستلد مثل عمر! إنه من قوم لا يرون فضائلهم فضائل، ولكنهم يرونها أمانات ائتمنوا عليها من الله لتبقى بهم معانيها فى هذه الدنيا، فهم يزرعون فى الأمم زرعاً بيد الله، ولا يملك الزرع غير طبيعته.

إن فضائل عمر التى يذكرها له التاريخ بإعجاب أى إعجاب وتقدير أى تقدير، كثيرة لا تكاد تعد ولا تحصى.

إنه كان أعظم فاتح فى تاريخ الإسلام كله دون منازع، وكان من رواد الجيش الإسلامى الأولين فى تنظيمه وتسليحه وتدريبه وتجهيزه وقيادته.

كان إسلامه حداً فاصلاً بين عهدين للإسلام: عهد الدعوة سراً قبل إسلامه، وعهد الدعوة علناً بعد إسلامه.

وشهد مع النبى كل غزواته، وقاد فى أيامه بعض السرايا، وثبت فى أصعب المواقف إلى جانب الرسول القائد عليه أفضل الصلاة والسلام: فى (أحد) ويوم (حُنين).

وكان فى أيام أبى بكر الصديق الساعد الأيمن لخليفة رسول الله فى أعماله العسكرية والإدراية، وكان لمبادرته ببيعة أبى بكر يوم السقيفة أثر حاسم فى القضاء على الفتنة الداخلية بين المهاجرين والأنصار فى مهدها.

وكان لرأيه فى جمع القرآن الذى أبداه لأبى بكر وألح عليه لوضعه فى حيز التنفيذ بعد استشهاد كثير من حملة القرآن فى معارك الردة، أثر حاسم فى حفظ القرآن الكريم من الضياع.

وفى أيامه ظهرت عبقريته الفذة فى توطيد أركان الدولة الإسلامية وتوسيع نفوذها وإشاعة الحق والعدل والحرية والمساواة فى ربوعها.

إنه لم ينجح اعتباطاً فى مهمته قائداً وإدارياً... فما هى أسباب نجاحه؟

كانت له عقلية مدركة منظمة: يؤمن بالشورى، ولا يحيد عن العدل المطلق... فكان أول من كتب التاريخ الهجرى، وأول من اتخذ بيت المال، وأول من دون الدواوين، وأول من أمم الأرض المفتوحة، وأول من مصّر الأمصار.

أما أسباب سرعة الفتح الإسلامى واندفاعه وانتشاره فى أيامه فهى: إقامة الوحدة السياسية فى بلاد العرب على أسس سليمة، وبذلك أصبحت (القاعدة) الأمينة التى ترتكز عليها الجيوش فى أيام الفتح قوية رصينة.

وتفتيت الفروق التى كانت قائمة بين العرب أنفسهم، وبذلك أصبحوا أمة واحدة متماسكة أمدوا الجيوش الإسلامية بسيل جارف من القادة والجنود.

وكان عمر أول من جعل الجند فئة مخصوصة وأنشأ (ديوان الجند) للإشراف عليهم بتسجيل أسمائهم وأوصافهم ومقدار أرزاقهم وإحصاء أعمالهم. وعندما انصرف قسم من أولئك الجند بعد الفتح الإسلامى لتكوين الثروة وامتلاك العقارات الثابتة، فطن عمر إلى هذا الخطر وأمرهم بالانصراف إلى الجهاد وضمن لهم أرزاقهم وأرزاق عوائلهم. وإلى عمر يرجع الفضل فى إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجنود أثناء الطريق، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل ولا يرتاحون أثناء الطريق، كما بنى العواصم وأقام الحاميات فى عدة أماكن لصد هجمات الأعداء المفاجئة.

هكذا كان جند المسلمين فى أيام عمر، كل جندى منهم يؤمن بعقيدة واحدة هى الإسلام، له هدف واحد هو إعلاء كلمة الله، مدّرب، مسلح، له عطاء خاص لسد حاجته وحاجة أهله، مطمئن على مصير أهله فى صحرائه أو فى قريته أو فى مدينته، تخصص له الدولة ما تحمله عليه إلى ميدان القتال إذا لم يجد ما يمتطيه، مرتاح فى سفره وله سكن بعد المعركة.

هذا الجندى يقاتل بإمرة قادة ماهرين، فقد كان لعمر قابلية فذة على انتخاب الرجال المناسبين للأعمال المناسبة.

وهذه الجيوش بقياداتها تعمل متعاونة بقيادة عمر قائداً استرتيجياً فذاً من أعظم القادة الاستراتيجيين فى تاريخ الحرب كله، ويحارب حرباً إنسانية بعيدة كل البعد عن الظلم والعدوان.

تلك هى أسباب سرعة إندفاع فتح الإسلامى فى عهد عمر بن الخطاب. وهى أسباب كفيلة بسرعة اندفاع أى فتح فى أى عصر من العصور.

وكان من نتائج الحرب الإنسانية التى خاضها العرب المسلمون فى عهد عمر، والحرية التى كفلها الفاتحون لأهل البلاد المفتوحة فى أمر العقيدة، ما دعا الفرس والروم وغيرهم للإقبال على الإسلام وعلى اللغة العربية. وزاد فى إقبالهم ما فرضه الإسلام من المساواة بين المؤمنين على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم وعاداتهم، وما قرره من أنه لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى، ومن أن المؤمنين إخوة؛ فلا يكمل إيمان أحدهم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، فهذا الإخاء وهذه الحرية والمساواة أدت كلها إلى انتشار جو ضاعف من قوة الوحدة فى الدولة الإسلامية، وتضاعف فى ظله نشاط كل جزء من أجزائها...

وهكذا بدأت وحدة عربية تحت لواء الإسلام فى أيام النبى وأبى بكر الصديق، ثم أصبحت فى عهد عمر بعد الفتح وحدة إسلامية شاملة دينها الإسلام ورائدها السلام، ودخل غير المسلمين فى دين الله أفواجاً، وأقبلوا على اللغة العربية تعلماً وتدريساً حتى أصبح بعضهم من أكبر أئمة اللغة العربية ومن أعظم روادها.

هذه بعض أعمال عمر التى جعلته ينشئ دولة ويقيم وحدة وينشر لغة ويرفع بنياناً.

إنه نسى نفسه وذكر رعيته وأخلص لله، فخسر نفسه وربح الدنيا والآخرة.

قال عبد الله بن عباس: "كان عمر كلما صلى صلاة جلس للناس، فمن كانت له حاجة نظر فيها، فصلى صلوات لا يجلس فيها، فأتيت الباب فقلت: يا يرفا! أبأمير المؤمنين شكوى؟ قال:

لا. فبينا أنا كذلك إذ جاء عثمان فدخل يرفا ثم خرج علينا، فقال: قم يا ابن عفان، قم يا ابن عباس، فدخلنا على عمر وبين يديه صُبر من مال، على كل صُبرة منها كتف، فقال: إني نظرت فلم أجد بالمدينة أكثر عشيرة منكما، خذا هذا المال فاقسماه بين الناس، فإن فضل فضل فرداه. فأما عثمان فجثا، وأما أنا فجثيت لركبتي فقلت: وإن كان نقصاناً رددت علينا؟ فقال: شنشنة من اخشن؛ (يعني حجراً من جبل)، أما كان هذا عند الله إذ محمد ﷺ وأصحابه يأكلون القد[1]؟ قلت بلى، لو فتح عليه لصنع غير الذى تصنع! قال: وما كان يصنع؟ قلت: إذاً لأكل وأطعمنا. قال: فرأيته نشج حتى اختلف أضلاعه، وقال: لوددت أني خرجت منه كفافاً. لا على ولا لي".

وقال ابن عباس: دخلت على عمر حين طعن فجعلت أثنى عليه، فقال: بأى شئ تثنى علىّ؟ بالإمرة أو بغيرها؟ قلت: بكل. قال: ليتنى أخرج منها كفافاً لا أجر ولا وزر".

وقال ابن عباس: "قلت لعمر: مصَّر الله بك الأمصار وفتح بك الفتوح، وفعل بك وفعل!. فقال: لوددت أنى أنجو منه لا أجر ولا وزر". ولما حضرته الوفاة قال: "بالإمارة تغبطوننى؟ فوالله لوددت أنى أنجو كفافاً لا علىّ ولا لى" .

وقيل له وهو على فراش الموت: "أبشر يا أمير المؤمنين لبشرى الله تعالى بصحبة رسول الله ﷺ وقدم فى الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة"، فقال: "وددت أن ذلك كفاف لا علىّ ولا لى" .

وقال عبد الله بن عامر: "رأيت عمر أخذ تبنة من الأرض فقال: ليتنى كنت هذه التبنة، ليتنى لم أخلق، ليت أمى لم تلدنى، ليتنى لم أكن شيئاً، ليتنى كنت نسياً منسياً".

كل تلك الانجازات التى أنجزها عمر، وهويتمنى أن يخرج منها كفافاً لا له ولا عليه. فكيف بالذين لم ينجزوا شيئاً ثم يملأون الدنيا صراخاً ودعاوى؟؟.

رضى الله عن القائد الفاتح، الفارس المغوار، البطل الكرار، القوى الأمين، القاضى العادل، الحاكم العبقرى، الفقيه المحدث، العالم العامل، الذكى الألمعى، التقى النقى، الخليفة الورع، المجتهد المشرع، الفاروق عمر بن الخطاب العدوى القرشى.

---

(1) القد: الشئ المقدود. والقديد: اللحم قطع طولاً وملح وجفف فى الهواء والشمس

عمر بن الخطاب

المثل الأعلى للحاكم السياسى والإدارى

كان ملك المسلمين فى خلافة أبى بكر الصديق ملكاً ضيقاً لا يتجاوز جزيرة العرب، وقد قسم إلى ولايات صغيرة وعمالات متقاربة لم تكن بابى بكر حاجة إلى استحداث أساليب لحكمها، فسار على النهج الذى حكمها به النبى، وسهل عليه مهمة حكمها أن العرب فى سائر أرجاء الجزيرة كانوا متوافقين فى نوع المعيشة متشابهين فى الأخلاق والعادات، مما يجعل تطبيق نظام حكم واحد عليهم أمراً من أيسر الأمور.

فلما ولى عمر بن الخطاب الخلافة وبسط بفتوحاته السريعة سلطان المسلمين على مصر وفلسطين والشام والعراق، واجه العرب حالات جديدة ومشاكل لا عهد لهم بمثلها – فهذه موارد للإيراد تدر على المدينة أموالاً غزيرة لا بد من تنظيم الوسائل لجبايتها وحفظها وانفاقها، وهذه جيوش متباعدة تعددت أمامها ميادين القتال وتغيرت أساليب الحرب ولا مندوحة عن تموينها وإيجاد المراكز وتوفير الميرة لها، وتلك مشكلات الفتح وما تستتبعه من وجوب تقرير العلاقات بين الغالبين والمغلوبين وفرض الضرائب على المسلمين وغير المسلمين، وأحوال فى الزواج وطرائق فى التقاضى وأنواع من الجرائم لم يألفها العرب من قبل ولم ينص عليها فى القرآن، وتلك فتن فى الداخل ينبغى قمعها ومؤامرات فى الخارج يحسن اتقاؤها وصلات بالدول المجاورة تجب رعايتها والمحافظة عليها، وتلك شعوب نافرة متذمرة أكرهت على ترك دينها أو افتداء عقائدها فلا أمن ولا طمأنينة إلا بتألفها وضم شتاتها حول راية الإسلام، وذلك دين يريد صاحبه أن يفرض على تلك الشعوب ولكن بالتى هى أحسن فلا غصب ولا إكراه ولا اعنات

واجه المسلمون تلك الحالات والمشكلات فى خلافة عمر فلم يكن ثم بد من تغيير مناهج الحكم واستنباط أساليب فى الإدارة أوفق لسياسة الظروف الجديدة وأليق برعاية شؤون تلك الأقطار الواسعة الأرجاء المتباينة العادات والأخلاق والمدنيات واللغات والأديان. وما من شك فى أن هذه المهمة السامية كانت تتطلب ممن يتولاها مواهب ومؤهلات أقلها الالمام بجغرافية الأقاليم المفتوحة وبطبائع أهلها، والدراية بأصول السياسة والتشريع، والخبرة بشؤون الحكم والإدراة، والإحاطة بالأحوال المحلية فى كل قطر لاختيار الوالى الصالح له وسن التشريعات الملائمة لسكانه، وأنه لمما يثير إعجاب التاريخ بل لمما يبهر عقول المؤرخين أن رجلاً كعمر بن الخطاب نشأ على الفطرة ومات على الفطرة، فلم يتربّ أى تربية سياسية تؤهلة للحكم والإدارة، ولم يتلق أى علم من علوم الدنيا يستنير به فى سياسة الدولة، ولم يخبر بالمران ولا بالاحتراف قيادة الرجال والشعوب وتسيير الشئون العامة، قد استطاع ان ينهض بتلك المهمة الشاقة، وأن يحمل أعباء الحكم فى إمبراطورية ناشئة مختلفة العناصر مترامية الأطراف، وأن ينجح إلى أقصى حدود النجاح فى توطيد دعائم

الدين الجديد وفى ترسيخ قواعد الأمن والنظام وفى التمكين للفتح بين أقوام مختلفى الأجناس والأديان.

ولو كان العرب دونوا سير عظمائهم فى حياة أولئك العظماء أو بعد وفاتهم أو تركوا لنا فيما تركوا شيئاً عن نشأة عمر وشبابه، لاستطعنا على ضوء هذه المعلومات أن نحلل شخصية الرجل لنستبين سر عظمته ولنعلل ذلك النجاح الذى أحرزه وصار به المثل الأعلى للحاكم السياسى والإدارى على مدى العصور، ولكن العرب لم يدونوا شيئاً والمتأخرين من مؤرخيهم أ غفلوا هذه الناحية الهامة فى تاريخ عظماء المسلمين، لم يحدثونا عن عمر حديثاً مستفيضاً إلا بعد دخوله فى الإسلام. ولذلك قد تظل عظمة هذا الرجل البديع لغزاً مستعصياً على الفهم والتحليل إذا لم نرجع أسبابها إلى ثلاثة عوامل أساسية أثرت فى حياته وقادت خطاه وأنارت بصيرته ووجهته ذلك التوجيه وهى: حُسن الإسلام وحسن الخلق وحسن الفطرة

فأما الإسلام الحسن فقد هذب طبعه وصقل روحه وزهده فى الدنيا وبث فيه الوفاء لله والشعور بالواجب ونسيان الذات وافناء النفس فى سبيل الدولة والرعية. وأما الخلق الحسن فقد صيره القدوة العليا للناس فى الفضائل الإنسانية، حتى لقد رضى عماله بشدته اعتماداً على عدالته وتحملوا بطشه إيماناً بنزاهته واحتذوا حذوه فى الصبر والزهد والعدل والقناعة، فكانوا خير عمال عرفهم المسلمون. وأما الفطرة الحسنة فقد عوضته ما فاته من علوم الدنيا وسهلت عليه فهم الأمور وسبر أغوار الرجال والشعوب واستنباط الأحكام من الشرع والسُنّة وتطبيقها مع مراعاة أحوال الزمان والمكان، حتى قال فيه عبد الله بن مسعود: "لو وضع علم عمر فى كفة ووضع علم أحياء العرب فى كفة لرجح بهم علم عمر"

وانا لنتتبع سيرته منذ ولى الخلافة إلى أن أسلم روحه لخالقها فلا نراه انحرف يوماً عن الاهتداء فى احكامه بهدى القرآن وسُنة الرسول، ولا جاد مرة عما يوجبه الخلق الفاضل القويم، ولا تصرف فى أمر تصرفاً غاشماً ينم على طيش أو جهل أو غباء، حتى لقد استحق قول على بن أبى طالب فيه يوم رآه مسجى على فراش الموت: "ما على وجه الأرض رجل أريد أن ألقى الله بصحيفته إلا هذا المسجى" وقول سعيد بن زيد وهو يبكيه: "إن موت عمر قد ثلم الإسلام ثلمة لا ترتق إلى يوم القيامة"

حدّث الأحنف قال: "كنا جلوساً بباب عمر وقد سألناه: ماذا يحل لأمير المؤمنين من مال الله؟ فقال: "أنا أخبركم بما أستحله منه. بردة فى القيظ وبردة فى الشتاء، وما أحج به وما أحج

عليه، وقوتى وقوت عيالى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم، ثم أنا بعد ذلك رجل من المسلمين يصيبنى ما يصيبهم"

ذلك رأيه فيما ينبغى أن يتخلق به الحاكم ليكون قدوة فى الزهد والقناعة للولاة والمحكومين. ولقد كانت حياته طوال سنى خلافته العشر مصداقاً عملياً لذلك المبدأ القويم

كان العطاء الذى فرضه لنفسه لا يكفيه فأراد يوماً أن يقترض مالا من أحد أصحابه فقال له صاحبه: وما الذى يمنعك أن تقترض من بيت المال يا أمير المؤمنين؟ فأجاب: "أخشى إذا مت أن يغفلوا عن تقاضى ما اقترضت، أما أنت فلن تغفل عنه"

وكان لا يخص نفسه دون سائر الناس بميزة فى ملبسه ومركبه ومسكنه، بل كان يعتبر نفسه خادم القوم وراعى مصالحهم، يلتف فى كسائه ويحمل القربة وينام فى ظل جدار المسجد. ولله ما أعظمه وهو يطوف ببيوت فقراء المسلمين فى المدينة ويقرع أبوابها سائلاً النساء: ألكن حاجة. أتريد احداكن أن تشترى شيئا؟ فيرسلنه فى حوائجهن يقضيها لهن من الأسواق ومن لم تجد عندها مالا تشترى به اشترى لها من ماله الخاص. بل لله ما أعظمه وهو يسير خلف البريد إذا أتى من أحد الثغور أو من ميدان القتال ويقف بالأبواب قائلاً: "أزواجكن فى سبيل الله وانتن فى بلد رسول الله. إذا كان عندكن من يقرأ فيها، وإلا فاقربن من الأبواب حتى اقرأ لكن" ثم يقول: "إن الرسول (البريد) يخرج يوماً كذا فاكتبن حتى نبعث بكتبكن" ثم يدور عليهن بالدواة والقراطيس والقلم ويقول: "ادنين من الأبواب لأكتب لكن ما تشأن أن تقلنه لأزواجكن" ويجمع الرسائل بعد ذلك ويسلمها إلى البريد

وكان إذا ولى عاملاً على إحدى العمالات خرج يشيعه ويوصيه فيقول له: "إنى لم استعملك على المسلمين إلا لتقيم بهم الصلاة وتقضى بينهم بالعدل وتقسم بالحق، فإن فعلت فأنت أخى وأنا أخوك، وإن لم تفعل فبينى وبينك حدود الله". وكان يستدعى الولاة ليوافوه فى الحج حيث يجتمع المسلمون فإذا اجتمعوا ناداهم قائلاً: "أيها الناس إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ له الحق، ولا أضعف من القوى حتى آخذ الحق منه. وإنى لم أبعث عمالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم، فمن فعل به شئ من ذلك أو ظلم فليقم"

وكانت طريقته فى الإدارة إطلاق الحرية للعامل فى الشؤون المحلية وتقييده فى المسائل العامة ومراقبته فى سلوكه وتصرفاته. ويقول الجاحظ فى كتاب التاج: "إن علم عمر بمن نأى عنه من عماله كعلمه بمن بات معه فى مهاد واحد وعلى وساد واحد، فلم يكن فى قطر من الأقطار ولا فى ناحية من النواحى عامل أو أمير جيش إلا وعليه عين لا يفارقه، فكانت

ألفاظ من بالمشرق والمغرب عنده فى كل ممسى ومصبح، وأنت ترى ذلك فى كتبه إلى عماله حتى كان العامل منهم يتهم أقرب الخلق إليه وأخصهم به". وكان يبعث فى طلب بعض عماله من وقت لآخر ليستجلى حقيقة أحوالهم وخبيئة أمورهم، فإذا علم أن أحدهم قارب المدينة خرج لملاقاته فى الطريق ليعرف من ملبسه ومركوبه أظل على ما كان عليه قبل اسناد المنصب إليه أم أثرى وظهرت عليه علامات النعيم، فإن كانت الأولى أبقى عليه وظيفته وإن كانت الأخرى عزله منها، وكان يحصى عليهم أموالهم قبل توليتهم فإذا زاد لأحدهم مال بعد ولايته صادره عليه. ومن أمثلة ذلك أنه استعمل عتبة بن أبى سفيان على كنانه، فـ لما قدم عتبة المدينة بمال سأله عمر: من أين لك هذا يا عتبة؟ فقال: "مال خرجت به وتاجرت فيه" فقال عمر: "بعثتك والياً ولم ابعثك تاجراً وإن التجارة والولاية لا تتفقان. اجعل هذا المال فى بيت مال المسلمين".

وانتهى إليه أن أبا عبيده عامله على الشام يسبغ على عياله النعم ويتولاهم بالخير الكثير فانقص العطاء الذى كان يجريه عليه. وبلغه أن عمر بن العاص عامله على مصر قد بدت عليه وعلى أهله أمارات الغنى واجتمع لديه متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن له عندما ولى مصر. فاستقدمه وسأله فى ذلك فقال: " إنها يا أمير المؤمنين أثمان خيل تناتجت وسهام اجتمعت وثمرة اقتصاد طويل" فقال عمر: "انظر رأس مالك ورزقك فخذهما ورد الباقى إلى بيت المال". ومر يوماً فى طريق فوجد بناء يبنى بالحجارة والجص فسأل: لمن هذا؟ فقيل له: "إنه لعاملك على البحرين" فصاح: "الله أكبر. أبت الدنانير إلا أن تخرج أعناقها. ضموا كل هذا إلى بيت المال"

وكتب إلى أبى موسى الأشعرى كتاباً اتخذه الخلفاء من بعده دستوراً للحكم قال فيه:

"أما بعد فإن للناس نفرة أعوذ بالله أن تدركنى، وإياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة. أقم الحدود ولو ساعة من نهار، وإذا عرض لك أمران احدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الله فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى. وأخف الفساق واجعلهم يداً يداً ورجلاً رجلاً. وعد مرضى المسلمين واشهد جنائزهم وافتح لهم بابك وباشر أمورهم بنفسك، فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملاً. وقد بلغنى أنه فشت لك ولأهل بيتك هيئة فى ملبسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصب فلم يكن لها هم إلا السمن، فإنما حتفها فى السمن، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته، وأشقى الناس من شقى به الناس والسلام"

وكان يحب أن تقوم المحبة بين الناس مقام القانون فلا يكثروا من التقاضى والرجوع إلى الوالى فى خصوماتهم فخطبهم يوماً، وقال: "اعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تتحاكموا إلىّ، فإنه ليس بينى وبين أحد من الناس هوادة. وإنى لحبيب إلىّ صلاحكم عزيز علىّ عتبكم، وأنتم أهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء به الله إليه"

وكان يرد الشفاعة والوساطة حتى إن مولى عمر توسط لديه يوماً فى أن يكتب إلى عامله فى العراق ليكرم صديقاً له رحل إليها فانتهره عمر وقال: "أتريد عاملى على أن يظلم الناس، وهل صاحبك إلا رجل من المسلمين يسعه ما يسعهم؟" وكان يوزع الأعمال على المتخصصين فيها فيقول: "أيها الناس من أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت، ومن أراد ان يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل، ومن أراد ان يسأل عن المال فليأتنى فإن الله جعلنى له خازناً وقاسماً"

أما سياسته حيال النصارى واليهود فتتلخص فى هذه القواعد الحكيمة: "إنما أعطيناهم العهد على أن نخلى بينهم وبين كنائسهم يقولون فيها ما بدا لهم" وأن لا نحملهم مالا يطيقون. وإن أرادهم عدو بسوء قاتلنا دونهم، وعلى أن نخلى بينهم وبين أحكامهم إلا أن يأتون راضين بأحكامنا فنحكم بينهم وأن غيبوا عنا لم نتعرض لهم"

ومما انصرفت إليه عنايته رضوان الله عليه ما اقتضته حالة التوسع فى الفتوح ووجوب استحداث الأوضاع الجديدة فى الإدارة. فهو أول من دون الدواوين على مثال دواوين الفرس والروم. وكان الديوان أول الأمر هو الدفتر يكتب فيه رجال الجيش وأهل الأعطية، ثم صار المكان الذى يحفظ فيه كل ما تعلق بحقوق الدولة من الأعمال والأموال، ثم أطلق بعد ذلك على جميع السجلات وعلى المكان الذى يجلس فيه القائمون عليها. ويقول اليعقوبى إن عمر استحدث نظام السجون وسجن الحطيئة على الهجو وسجن ضبيعاً لتشككه فى بعض آيات القرآن.

ووضع عمر أول ديوان فى الإسلام للخراج والأموال بدمشق والكوفة والبصرة، وأمر أن تكتب دواوين الشام بالرومية ودواوين العراق بالفارسية ودواوين مصر بالقبطية. وأجاز أن يتولاها النصارى والمجوس لعلمهم بأصولها. وهو أول من أحصى المسلمين وأول من جعل الأرزاق مشاهرة وفرق الجيوش على الولايات وجعل لكل جيش مركزاً وقيادة. وهو أيضاً أول من أرخ بالتاريخ الهجرى وصك وختم أسفل الصكاك.

وكان يحب الشورى ولا يستبد برأيه فإذا جاءته قضية معضلة قال لعبد الله بن العباس: "إنها قد طرأت علينا أقضية وعضل وأنت لأمثالها" وكان يستشير فضلاء المسلمين

بالمساجد فى المسائل العامة ثم يعرض رأيه وآراءهم على مجلس شوراه المؤلف من أعيان الصحابة، فما استقر عليه رأيهم أمضاه. وهو مبتكر نظام التفتيش فى الإسلام فقد كان يبعث أناساً لتقدير الخراج وآخرين لإحصاء الناس وغيرهم لمساحة الأرض ولمراقبة جباية الأموال. وكان شعاره فى كل ذلك العدل والرحمة والرفق بالناس حتى لقد قال لعامل أرسله لمساحة أرض العراق وتقدير الخراج عليها: "أخاف أن تكون قد حملت الأرض مالا تطيقه. لئن سلمنى الله لأدعن أرامل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدى أبداً" وقال: "اللهم اشهد على أمراء الأمصار فإنى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسُنة نبيهم ويعدلوا عليهم ويقسموا فيئهم بينهم ويرفعوا إلىّ ما أشكل عليهم من أمرهم"

وعمر أول من استقضى القضاة ووضع أساس القضاء النظامى، فلقد كانت المدينة فى أيامه أشبه بمدرسة يتخرج فيها القضاة والمشرعون والمجتهدون فيوزعهم على الأمصار يقضون فيها بالشرع والسُنة والقياس متخذين عدل عمر وحبه للمساواة وخضوعه لأحكام الحق نبراساً يهتدون بنوره وقدوة يقتدون بها عند الفصل فى أمور الناس. وفى الكتاب المشهور الذى كتبه عمر إلى أبى موسى الأشعرى فيما ينبغى أن يكون عليه القاضى والقضاء ما يدل القارئ على سمو إدراك الرجل لمعنى العدالة وطرائق تطبيقها فلقد جاء فى ذلك الكتاب:

"... أما بعد فإن القضاء فريضة وسُنة متبعة فافهم إذا أدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له. ساو بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك

"البينة على من ادعى واليمين على من أنكر. والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً. ولا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل

"الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب الله ولا سُنة رسوله، ثم اعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها، واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهى إليه، فإذا أحضر بينته فيها وإلا استحللت عليه القضية فذلك أنفى للشك وأجلى للعمى

"المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حق أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً فى ولاء أو نسب، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والإيمان.

"إياك والقلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم به الله الأجر ويحسن الذكر، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شانه الله، فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته؟ وبعد فإنه لم يزل فى الناس وجوه (وجهاء) يرفعون حوائج الناس فأكرمهم فبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف فى الحكم والقسمة"

ذلك هو الدستور الذى وضعه عمر للقضاء وأن فيه لمجالاً واسعاً للتأمل والتدبر والتفكير. أما حبه المساواة فيتبين من ابتدائه بمساواة نفسه بسائر الناس. ابتاع فرساً وركض به ليختبره فأصاب رجل الفرس عطب ظنه عيباً كان فيه قبل أن يبتاعه فقال لبائعه: "خذ فرسك واردد إلىّ نقودى. فقال الرجل: إنما بعتك فرساً سليماً فلا أرد إليك ثمنه أو تجعل حكماً بينه وبينك" فاحتكما إلى شريح، فقال شريح: "يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت أو رد كما أخذت" فأطرق عمر برهة ثم قال: "وهل للقضاء إلا هكذا؟ اذهب يا شريح إلى الكوفة فقد وليتك قضاءها"

ويروى أبو الفداء فى تاريخه أن رجلاً من بنى فزارة وطئ فى الحج على رداء جبلة بن الأيهم من ملوك غسان فلطمه جبلة لطمة هشمت أنفه. ورفع الفزارى شكواه إلى عمر فجاء عمر بجبلة وخيره بين أن يفتدى نفسه وأن يلطمه الرجل كما لطمه. ولقد غضب جبلة وقال: "كيف ذلك يا أمير المؤمنين وأنا ملك وهو من السوقة؟" فأجاب عمر: "إن الإسلام جمعكما وسوى بين الملوك والسوقة فى الحدود". وكان إذا نهى الناس عن أمر جمع أهله وقال لهم: "إنى نهيت الناس عن كذا وكذا وأن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا ضاعفت له العقوبة"

ولقد جعل عمر الجامعة الإسلامية أساساً لسياسته وجعل الجامعة العربية أساساً للجامعة الإسلامية، فأوصى بأهل البادية لأنهم أصل العرب وأراد أن يعمل على اعزازهم فقال: "قبيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضاً وقد وسع الله عليهم" وفدى سبايا العرب من الجاهلية والإسلام إلى أيامه عملاً بالحديث المأثور: "لا سباء فى الإسلام" وكتب إلى عماله: "لا تجلدوا العرب فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تغفلوا عنهم فتحرموهم" وحرض عرب الحجاز على الهجرة إلى الشام والعراق ليختلطوا بعربهما فتزول ما بين أولئك وهؤلاء من الفروق فى الطباع واللهجات. ولم يسمح للعجم بالهجرة إلى المدينة لعلمه أنهم أدرى من العرب بالتجارة والصناعة والزراعة فإذا سكنوا المدينة انتزعوا هذه الموارد من أيدى أهلها. وحرم على المسلمين اقتناء الضياع والزراعة كما حرم عليهم اقتناء المال لأن أرزاقهم وأرزاق عيالهم وعبيدهم ومواليهم تدفع لهم من بيت المال. وكانت حجته فى ذلك أن يظلوا جنداً للدولة لا يقعدهم الزرع والحصد واستثمار الأموال عن الحرب والجهاد فى سبيل الله.

عمر والمُثل العليا

إن حلم العلماء بالإنسان الأعلى

قد تحقق فى عمر بن الخطاب!!

الإنسان الأعلى هو حلم الإنسانية من قديم. وهو يتمثل لنا قوى الجسم قوى النفس معاً. وقد عملت المدنيات القديمة على تنشاته. ولا سيما الاغريق الأقدمون، فكان كل اغريقى يأخذ بنصيب من الثقافة الفنية والرياضية البدنية. وكان الفلاسفة يمجدون الأجسام القوية الجميلة، وكان أصحابها الفتيان يتتلمذون للفلاسفة ويستمعون لبحوثهم العميقة من إلهية وطبيعية... وأخيراً هذه هى المدنيات الحديثة – وحسبنا الإشارة إلى نظم التربية فى الدول الغربية– تسعى سعيها مطرداً كان أو عنيفاً بما أقامته من النظم والأوضاع وما أحدثته من المذاهب والانقلابات، كل دولة على طريقتها بين القصد والشطط، إلى تحقيق هذا المثل للإنسان الأعلى

وبعد فلننظر إلى عمر بن الخطاب كما وصفه واصفوه، لنتبين بالمقابلة كيف تحقق عند العرب هذا المثل الأعلى كما ينشده ناشدوه.

كان عمر قوياً، شديد الأسر، طوالاً مشرفاً على الناس يفرعهم، وكان لطوله كأنه راكب، جسيماً، أصلع، آدم شديد الحمرة – وإنما تغير لونه عام الرمادة لعكوفه على أكل الزيت وتحريمه على نفسه السمن واللبن حتى يخصب الناس ويزول عنهم ما نزل من قحط. وكان مسبل اللحية فى أطرافها صهوبة من الحناء، وفى عارضيه خفة. وكان أعسر أيسر يعمل بكلتا يديه. وكان إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع. ويروى عن فروسيته أنه يأخذ أذنه اليسرى بيده اليمنى ويجمع باليسرى جراميزه (ما ينتشر من ثيابه) ويثب على فرسه فكأنه خلق على ظهره

وينبت الإنسان الأعلى عادة فى المنبت الكريم حيث تغذوه الطينة الحرة والأعراق الأثيلة، فيجتمع له ذخر أسلافه من كريم الصفات وحر الخلال. وهيهات تكون الصفة المكتسبة كالصفة الموروثة، لأن التطبع بالفضائل لا يكون إلا بالمعاناة وحمل النفس على مكروهها، وليس يتحول التطبع بها طبعاً متأصلاً إلا بعد مخالطتها للنفوس أجيالاً بعد أجيال، فما من طبع كريم فى نفس إنسان إلا وهو موروث، وأما ما ليس موروثاً فهو ناقص لأنه مجرد بداية فلا غرو أن يلين للغمز ولا يثبت على العجم. فأبناء الكرام نشأوا من صغرهم على الأنفة وعزة النفس، وتعودوا السيادة، ولم يعرفوا الخنوع، وحماهم جاه أهليهم الامتهان فلم

تستذلهم الحاجة وطلب القوت، ولم يبلد شعورهم دوام الكد فى خدمة الغير كالدواب المسخرة من غير إرادة ولا اختيار، فإذا أفاد هؤلاء لأجسامهم قوة عضلية فإنها قوة بغير فتوة، وإذا أفادوا لمعاشهم الغنى فإنهم من الحرص عليه أدنى إلى المسالمة وارتضاء المساومة فى الحق والشرف. أما الكرام أبناء الكرام فإنهم فى طلبهم للعلم والثروة والقوة يطلبون السيادة

ولقد كان عمر من أشراف العرب، فقومه من عدى ولهم فى قريش منزلة رفيعة، وكانت السفارة فيهم والاحتكام إليهم إذا نشب فى قريش خلاف أو وقعت حرب بينهم وبين غيرهم. وكان فى حال صغره يرعى غنم أبيه، ثم اشتغل بالتجارة بحر ماله وقدم الشام متجراً غير مرة فى الجاهلية، ومازالت هذه صناعته فى الجاهلية والإسلام حتى ولى الخلافة فتركها اشتغالاً عنها بمصالح المسلمين، وكان يشترك فى حلقات المصارعة بسوق عكاظ كما أنه من الأقلين الذين كانوا عند مجئ الإسلام يعرفون القراءة والكتابة. وبالجملة كان عمر فارساً صنديداً، ومصارعاً جليداً، وخطيباً مفوهاً.

وكان العرب فى الجاهلية يسلمون سراً ويجتمعون فى دار الأرقم فى أصل جبل الصفا مستخفين، لقلتهم وشدة قريش عليهم، فما أسلم عمر حتى راح يطوف بمجالس المشركين معلناً إسلامه هنا وهناك متعرضاً للخصومة والمضاربة. وقد أقبل على الرسول مطالباً بإظهار الدين فخرج رسول الله فى صفين من المسلمين حمزة فى أحدهما وعمر فى الآخر حتى دخلوا الكعبة، ومن يومئذ سمى الفاروق. ولم يؤثر أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفيا، إلا عمر فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده أسهماً واختصر عنزته (عكازة لها زج فى أسفلها) ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعاً متمكناً ثم أتى المقام فصلى متمكناً ثم وقف على الحلق واحدة واحدة، وقال لهم: "شاهت الوجوه! لا يرغم الله إلا هذه المعاطس. من أراد أن تثكله أمه، ويؤتم ولده، ويرمل زوجته، فليلقنى وراء هذا الوادى". وكان عمر يؤثر القتال مع قلة الأعوان على صلح يراه غير شريف كصلح الحديبية. وكان مع حبه للشورى لا يستوحش من الوقوف وحده والاضطلاع بمسئولية الرأى يراه بمفرده، واختلف مع الرسول وخليفته أبى بكر فى مصير أسرى بدر إذ كانت مشورته فيهم القتل، وفى نظام توزيع الأعطيات من بيت المال إذ كان حكمه عدم التسوية والتفضيل بالسابقة فى الدين، وفى عزل خالد بن الوليد سيف الإسلام فى أوج انتصاره، وكذلك فى تطبيق بعض الأحكام الشرعية مما قضت به السنة كتحريم المتعة ووقوع الطلاق الثلاث، وغير ذلك من الأمثلة على أنفته وعزة نفسه واستقلال شخصيته كثير يضيق المقام عن سردها لأنها تنتظم سيرته كلها.

وإلى هذا فلا بد للإنسان الأعلى من الألم ليصهر معدنه ويصفيه ويجعله كالنصل المذكر المسقى، ولا نعنى بالألم ما يرزح تحته المساكين ولا يملكون معه غير الضراعة والأنين، بل

نعنى ما يكتوى به الحر المعافى بين حين وحين فيطبعه على الاحتمال والجلد ويحدوه إلى المقامة والعناد، ويحفزه إلى التمرد والاستعلاء. وعلى هذا الوجه يكون الألم مصدر العظمة، فلا ينزل نزول الحتم الذى لا مرد له كالصخر الساحق الأصم، بل هو كالقوة الشاعرة، تغالبك وتصاولك وتصاولها وتعنف بك وتطمع فى قهرها. واكثر ما يكون هذا الألم معنوياً، ينشأ عن عدم موافقة الوسط، وهى حال تقتضى المجاهدة والمدافعة، وتفيد قوة العزيمة وشدة الشكيمة وتزيد فيهما، وهما عتاد الإنسان الأعلى وعدته. وقد عرف عمر بن الخطاب هذا الألم وأفاد منه شدة على شدته حتى ليس وراءها مزيد. ثم أن الألم وأن أصاب الإنسان الأعلى فى شخصه فإنه يفقد عنده معناه الشخصى، ويختلط بكل ما يشكو منه الأحياء، فإذا هو تألم للحالة العامة يدعوه للجهاد لا كالمظلوم المهين يدفع عن نفسه بل جهاد المصلحين بكل ما فى هذا الجهاد من سمو وشرف.

والإنسان الأعلى محفوز بطبعه إلى الإهتمام بما فيه صلاح الأجيال المقبلة واسعادها، شديد الشعور بحقوقها عليه والتزاماته نحوها، فهو لا يعيش لنفسه ولا لتوفير الراحة والهناءة لأنصاره وأهل زمانه. بل هو لا يبرح مطلعا إلى المستقبل كأهل الكشف وأصحاب الرؤى، ويزيد أنه يسعى لتحقيق أحلامه ويعمل على جعلها حقيقة واقعة عن قريب. فهو خيالى وعملى إلى أقصى الحدود. وليس يخلو عظيم من هذا العنصر الدينى ولو زعم أنه بغير دين. فهو أبداً عامر القلب بالإيمان بمستقبل الإنسان، معنى بالغاية البعيدة العالية، مقبل فى سبيلها على البذل والتضحية، وكما يقسو رجال الدين على بعضهم فيلحق الأذى بأجسامهم، وقد يقضى على حياتهم، وهو – فى هذا – أشد ما يكون رحمة بهم لأنه ناظر إلى خلاص نفوسهم، فكذلك يفعل الإنسان الأعلى فيعنت أبناء جيله ويحملهم على المكاره ويحبب إليهم الاستشهاد لتخلص نفوسهم وينعموا بالحياة الباقية فى الأجيال الآتية. ولا معدى لمن يعنيه مستقبل الإنسانية أن يجعل حياة الجنس فوق الأفراد، ويقدم خير الجنس ومصالحه على قد ما يعانونه من مشاق وآلام.

وقد كان عمر أمير المؤمنين أول من حمل الدرة مصطحبا لها فى غدوه ورواحه، يضرب بها فى كل مناسبة من يرى تاديبه لسوء رأى أو تقصير، فتارة ينخس بها وتارة يخفق، ولا يحجم أن يعلو بعذبتها رأس الكبير قبل الصغير. فهى كثيراً ما كانت تتكلم عنه، وكثيراً ما كان يعتمد عليها فى توكيد زجره وانتهاره. وكان لا يدعها حتى فى المسجد حيث يقوم بين الصفوف فيقول: "استووا!" ثم لا يكبر حتى يستقبل الصف المتقدم بوجهه فإن رأى رجلا متقدماً فى الصف أو متأخراً ضربه بالدرة. وكانوا إذا ذكروا غضبه قالوا إنه أمر عظيم! ولا عجب فإن كل عظماء التاريخ ينطوون على هذه المادة المنفجرة. وللعظيم حرص شديد على التزام حد الشرع لا تأخذه فى ذلك هوادة

ولم يكن عمر يأخذ بهذه الشدة الأبعدين دون الأقربين. بل كان إذا أراد أن يأمر المسلمين بشئ أو ينهاهم عن شئ مما فيه صلاحهم بدأ بأهله فجمعهم فقال: "إنى نهيت الناس عن كذا وكذا، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم، وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله إلا أضعفت عليه العقوبة". وكان هو نفسه أشرب الناس للخمر فى الجاهلية فما زال فى الإسلام يهيب بالنبى ويبتهل إلى السماء: "اللهم بيّن لنا فى الخمر بياناً شافياً" حتى نزلت الآية بتحريمها، وقد بلغ مقته لها أن جعل الحد فيها ثمانين جلدة.

وقد أنتجت هذه الروح الجادة أثرها فى الناس فأخذوا الحياة مأخذ الجد. وبهذه الروح أقبلوا على الفتوح فى الشام وفلسطين ومصر وفارس، وغلبوا الروم فى أدنى الأرض واستولوا على ملك الأكاسرة. كما أنهم أقبلوا فى الوقت نفسه على تمصير الأمصار ونشر العمران، فشقت الطرق، وأقيمت الجسور، وحفرت الترع، وكتب التاريخ الهجرى، ورصدت الدواوين لإحصاء المسلمين وضبط موارد الدولة وتوزيع الأعطيات، ومسحت أراضى السواد، وأنشئت دور الضيافات والمؤونة، وضربت النقود، ووضعت ولاية الحسبة للإشراف على الأسواق ومراقبة الأسعار، وعززت الحصون، وجعلت المرابطة من الجند فى الثغور، وعنى بالمناظر المرفوعة على رءوس الجبال ونظم الحرس والشرطة، وبنيت السجون للمفسدين، واستعمل البريد فى نقل الرسائل كما سبق ذكره.

وقد كان عمر يخشى على المسلمين من ليونة العيش والترف حتى كان يشترط على عماله ألا يركبوا بروذاً، ولا يأكلوا نقياً، ولا يلبسوا رقيقاً. وقد غضب على سعد بن أبى وقاص وهو فاتح دولة فارس حين سمع أنه بنى له فى الكوفة قصراً ليكون داراً للإمارة وأنه يمتنع عن الناس بالأبواب والحجاب. ويروى أنه دخل ابن لعمر بن الخطاب عليه وقد ترجل ولبس ثياباً حساناً فضربه عمر بالدرة حتى أبكاه، فقالت له ابنته حفصة: "لم ضربته؟" قال: "رأيته قد أعجبته نفسه فأحببت أن أصغرها إليه". وكان لباس عمر أمير المؤمنين نفسه ثوباً جافياً مرقوعاً. وكان تقشفه يشق أحياناً على صحابته وقد قالت له ابنته مرة فى حنو ومرارة: "لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك، وأكلت طعاماً هو ألين وأطيب من طعامك!". وقد قنع من بيت المال بالكفاف له ولعياله، وحلة للشتاء وحلة للصيف، وراحلة عمر للحج والعمرة، ودابة لحوائجه وجهاده. وكان عمر يقوم أحياناً فى اليوم الصائف الشديد الحر الشديد السموم متزراً ببرد أسود وقد لف رأسه آخر، بدهن إبل الصدقة بالقطران ويعدها ويكتب ألوانها وأسنانها ويدخلها الحظيرة!

على أن هذا الذى عرف فى خُلق عمر من الشدة والعنف لا يناقض الرحمة ولا ينفيها. وان فى نفس العظيم دائماً لشدة، لأن اهتمامه بالعظائم والمساعى الجسام يشغله عن الالتفات إلى سفاسف الآلام. كما أن شدته تأتى لا محالة مع الأقوياء تحدياً لقوتهم. فإن عرض له

موضع كريم للرحمة كان احنى الناس وأسرعهم إلى الإغاثة. وقد اشتهرت عنه حكايتان في أثناء عسه بالليل وفيهما في الكفاية تروى أحدهما خبر وقوعه على امرأة ومعها صبيان لها يتضاغون جوعا، وكيف انطلق عمر متأثرا من فوره إلى دار الصدقة وعاد يحمل غرارة فيها لهم مؤونه. والأخرى عن انطلاقه بزوجته أم كلثوم لتقوم في خدمة اعرابية من أهل البادية تمخض في خيمتها وليس عندها أحد. والرحمة لا تأخذ ابن الخطاب في دينه، فإن مثل هذه الرحمة تدل على ضعف في الحاسة الإخلاقية. وكان عمر في روعه وتقواه يكره النفاق والتنطع في الدين ولا يجهل الطبيعة البشرية ومداخل الشر إليها، وقد ذكر قوم عنده رجلاً فقالوا: "يا أمير المؤمنين! فاضل لا يعرف من الشر شيئا". فقال: "ذاك أوقع له فيه". وقد كانت الرحمة عند عمر مرادفة للإغاثة وهي من طباع الرجل القوى، أما الترقق فهو نقص في الرجولة لا يعرفه الإنسان الأعلى

ونحن – بعدما تقدم – في غنى عن القول بأن حلم الإنسانية بالإنسان الأعلى قد تحقق في عمر بن الخطاب. وما برح الأفراد العظام في متطاول الأحقاب يردون ثقتنا بالنفس البشرية ويحققون بين حقبة وأخرى حلم الإنسان الأعلى، فيطلع العظيم منهم كأنه المصادفة الموفقة ساقها للدنيا طالع سعيد. ولكن هذا الحلم – وا أسفاه – بعد تحققه في عالم الوجود، لا يلبث أن يعود إلى عالم الأطياف شأن كل موجود

عمر الرجل

للمستشرق الانجليزى الاستاذ رينولد نيكلسون

كل مفكر منصف تأسره وتبهره من عمر بن الخطاب أخلاق سامية قويمة، وعقلية راجحة ناصعة، فلا يمنعه اختلاف الدين أو الجنس من أن يقر للفاروق بعظمته وعبقريته كما أقر بها لفيف من أعلام المستشرقين المنصفين فى مقدمتهم الاستاذ رينولد نيكلسون فى هذا المقال:

"تنيف مدة الخلافة الإسلامية على ستة قرون وربع قرن (أعنى منذ ٦٣٢هـ - ١٢٥٨م) وتنقسم إلى ثلاثة عصور يتميز بعضها عن بعض، فلا تتساوى فى آمادها ولا تتحد فى خصائصها. وأولها هى التى بدأت بانتخاب أبى بكر أول خليفة للمسلمين سنة ٦٣٢م وانتهت باغتيال على الخليفة الرابع وصهر النبى عام ٦٦١م. وهؤلاء الخلفاء الأربعة هم المعروفون بالخلفاء الراشدين لأنهم اقتفوا تماماً سنة النبى، واتخذوا المدينة المنورة قاعدة حكمهم، وجروا على منواله مستعينين بصحابته العظام الذين كانوا يؤلفون من بيهم شبه مجلس تشريعى

ربما كان رفض محمد أو اغفاله تعيين خليفة له من بعده أعظم خطراً من تعقيبه ولداً من صلبه. ولم يكن نظام الملكية الوراثية مألوفاً لدى العرب، ولم يكن اختصاص أسرة النبى بحق مقدس قد أصبح من الأفكار السائدة، فتحتم إذ ذاك على المجتمع الإسلامى اختيار رئيسه – جرياً على السُنة التى شب عليها العرب فى جاهليتهم عند اختيارهم شيخ القبيلة. وكان أولى الناس بهذا الأمر ثلاثة قرشيون هم أبو بكر والد عائشة أحب زوجات الرسول إلى نفسه، وعمر بن الخطاب، وعلى بن أبى طالب ابن عم النبى وزوج ابنته فاطمة، فكانت تربطه بالنبى رابطة النسب والقرابة. أما أبو بكر فكان أسنهم، وقد زكاه عمر ووقعت البيعة العامة، وإن لم يخل الأمر من ظهور بوادر فئة مناهضة.

وخلفه عمر بن الخطاب، وهنا ينبغى علينا أن نقف قليلاً مستعرضين شخصية هذا الرجل الجليلة، الذى عده أكابر المسلمين فيما تلا من الزمان صورة جامعة لكل الفضائل التى ينبغى أن يتحلى بها الخليفة. ومن المحتمل أنه قد بولغ فى مدحه وتقديره، ولكنّ ما ورد بشأنه من الآثار ينم على أية حال عن شخصية فذة، وصورة رائعة للرجل وعصره، فقد قال أحدهم:

"رأيت عمر يأتى يوم العيد ماشياً حافياً، أعسر أيسر، متلبباً برداً قطرياً، مشرفاً على الناس كأنه على دابة".

وقص أحد موالى الخليفة عثمان بن عفان: أنه ركب خلف عثمان حتى أتى على حظيرة الصدقة فى يوم شديد الحر شديد السموم، فإذا رجل عليه إزار وقد لف رأسه برداء، يطرد الإبل ويدخلها الحظيرة – حظيرة إبل الصدقة – فقال عثمان: "هذا والله القوى الأمين". وكان من عادة عمر أن يجول فى الأسواق ويقرأ القرآن ويحكم بين المتخاصمين أنى وجدهم. وقد سأل كعب الأحبار أحد جيران عمر بن الخطاب: "كيف الدخول على أمير المؤمنين[1]" فقال: "ليس عليه باب ولا حجاب، يصلى الصلاة ثم يقعد فيكلمه من شاء"

وقد خطب عمر الناس مرة فقال: "والذى بعث محمداً بالحق، لو أن جملاً هلك ضياعاً بشط الفرات خشيت أن يسأل الله آل الخطاب" واعتلى المنبر ذات مرة خطيباً فقال: "لئن عشت إن شاء الله لأسيرن فى الرعية حولاً، فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى، أما عمالهم فلا يرفعونها إلىّ، وأما هم فلا يصلون لى، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين، والله لنعم الحول هذا!"

ومما يروى عنه أنه جاء إلى باب عبد الرحمن بن عوف فقرعه، فجاءته امرأته ففتحته ثم قالت له: "لا تدخل حتى أدخل البيت فأجلس مجلسى" فلم يدخل حتى جلست ثم قالت: "ادخل" فدخل ثم قال: "هل من شئ" فأتته بطعام فأكل وعبد الرحمن قائم يصلى فقال له: "تجوز أيها الرجل" فسلم عبد الرحمن حينئذ ثم أقبل عليه فقال: "ما جاء بك فى هذه الساعة ياأمير المؤمنين" قال: "رفقة نزلت فى ناحية السوق خشيت عليهم سراق المدينة فانطلق معى لنحرسهم." فانطلقا فأتيا السوق فقعدا على نشز من الأرض يتحدثان، فرفع لهما مصباح فقال عمر: "ألم أنه عن المصابيح بعد النوم؟" فانطلقا فإذا قوم على شراب لهم، فقال: "انطلق فقد عرفته". فلما أصبح أرسل إليه فقال عمر: "يا فلان، كنت وأصحابك البارحة على شراب" فقال: "ومن أعلمك يا أمير المؤمنين؟" قال: "شئ شهدته" قال: "أو لم ينهك الله عن التجسس؟" فتجاوز عنه.

وكان عمر إذا استعمل والياً كتب له عهداً، وأشهد عليه رهطاً من المهاجرين والأنصار واشترط عليه ألا يركب برذوناً ولا يأكل نقياً، ولا يلبس رقيقاً، ولا يتخذ باباً دون حاجات

---

[1] كان عمر أول من لقب بأمير المؤمنين وقد ورد فى (التاج ص ٨٨) أن المغيرة قال لعمر: "يا خليفة الله" فقال عمر: "ذاك نبى الله داود" قال: "يا خليفة رسول الله" قال: "ذاك صاحبكم المفقود" قال: "يا خليفة خليفة رسول الله" قال: "ذلك أمر يطول" قال: "يا عمر" قال: "لا تبخس مقامى شرفه أنتم المؤمنون وأنا أميركم" - المترجم

الناس. وكان من مألوف عادات عمر أن يخرج مشيعاً الولاة الذين استخدمهم فيقول لهم: "إنى لم استعملكم على أمة محمد ﷺ على اعشارهم ولا أبشارهم وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق. وتقسموا بينهم بالعدل. وإنى لم أسلطكم على أبشارهم ولا على أعشارهم، ولا تجلدوا العرب فتذلوهم، ولا تجمروها فتفتنوها، ولا تغفلوا عنها فتكفروها، جودوا القرآن، وأقلوا الرواية عن محمدﷺ، وأنا شريككم" وإذا شكا إليه عامل اقتص منه وجمع بينه وبين شكاه فإن صح عليه أمر يجب عليه أخذه به، أخذه به

وكان عمر أول من أدخل الديوان فى الإسلام، دوّن فيه أسماء العرب حسب قبائلهم، وعين لهم أعطياتهم، وقد ذكر "الفخرى" أنه لما كانت سنة خمس عشرة من الهجرة (٦٣٦م) وهى خلافة عمر رأى أن الفتوح قد توالت وأن كنوز الأكاسرة قد ملكت وأن الحمول من الذهب والفضة والجواهر النفسية والثياب الفاخرة قد تتابعت، فرأى التوسيع على المسلمين وتفريق تلك الأموال فيهم، ولم يكن يعرف كيف يصنع وكيف يضبط ذلك، وكان بالمدينة بعض مرازبة الفرس فلما رأى حيرة عمر قال له: "يا أمير المؤمنين إن للأكاسرة شيئاً يسمونه ديواناً، جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه لا يشذ منه شئ، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق إليها خلل" فتنبه عمر وقال: "صفه لى" فوصف المرزبان، وفطن عمر لذلك ودون الدواوين، وفرض لزوجات الرسول صلوات الله عليه وسلامه ولسراريه وأقاربه حتى استنفد الحاصل، ولم يدخر فى بيت المال شيئاً، قالوا فقام إليه رجل وقال: "يا أمير المؤمنين، لو تركت فى بيت المال شيئاً يكون عدة لحادث إن حدث" فزجره عمر قائلا: "كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقانى الله شرها، وهى فتنة لمن بعدى، إنى لا أعتمد للحادث الذى يحدث سوى طاعة الله ورسوله، فهى عدتنا التى بلغنا بها ما بلغنا". ثم رأى عمر أن يجعل العطاء على حسب السبق إلى الإسلام وإلى نصرة الرسول.

وقال عمر للناس: "والله ما أدركنا الفضل فى الدنيا، ولا نرجو ما نرجو من الأخرة من ثواب الله على ما عملنا إلا بمحمد فهو شرفنا، وقومه أشرف العرب، ثم الأقرب فالأقرب. إن العرب شرفت برسول الله ولعل بعضها يلقاه الله إلى آباء كثيرة، وما بيننا وبين أن نلقاه إلا نسبه، ثم لا نفارقه إلى آدم إلا آباء يسيرة مع ذلك، والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال وجئنا بغير عمل فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة. فلا ينظر رجل إلى قرابة وإنما لما عند الله، فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه"

وجدير بعمر أن يقال فيه ما قيل فى كرمويل من أنه "أفرغ الممالك القديمة فى قالب جديد" وكأنه المقصود تماماً بقول أحد شعراء الإنجليز: "إن المنشآت التى تثمر القوة لجدير التوفر على رعايتها". وفى ظل النظام الذى سنه عمر انتظمت الأمور فى بلاد العرب بعد أن

طهرت من أدران الشرك وأصبحت مورداً خصباً، وقاعدة ثابتة لتموين الجيوش الإسلامية الدائمة، وصار العرب المقيمون فى المقاطعات المفتوحة أساساً لتموين القوات الحربية على الإقامة فى معسكرات كبيرة، والانفاق عليهم مما يجبى من غير المسلمين، وكان من نتائج هذه المعسكرات أن قامت مدينتان ذواتا أثر بارز فى التاريخ الأدبى هما "البصرة" عند ملتقى دجلة بالفرات، و "الكوفة" التى ظهرت إبان ذلك الحين أيضاً على الفرع الغربى للفرات وعلى مقربة من الحيرة

ولقد كان مصرع عمر علىَ يد مولى فارسى يدعى فيروز، اغتاله وهو قائم يصلى بالناس فى المسجد الجامع، وبموته ذوت العزة الحربية، وأخذت فى التقلص أيام الخلافة العادلة السعيدة، وبجانب مزاياه البارزة التى تشرف وتشرئب فى ثنايا ما أوردناه سالفاً من الأخبار عنه وإن كان من المحتمل أيضاً أن تكون قد أضيفت إليها صور لإبلاغها حد الكمال – كان عمر جامعاً بين البساطة والقصد، مؤدياً عمله لا عن رهبة، ولا جرياً وراء رغبة، شديداً إلى أقصى غايات الشدة رغم شفقته على الضعفاء، وحكماً عادلاً شديداً على نفسه أكثر من شدته على غيره. وقد ولد ليكون حاكماً، وكان مثال الرجولة فى كل سيرته، وإذا أنعمنا النظر فيما حدث اثر مقتله من شغب، فإن المرء لا يسعه إلا الاعتراف بصحة القول الذى قاله أحد الحكماء بعد خمسة قرون من هذا الحادث: وهو "أن سعادة الإسلام أدرجت فى أكفان عمر ابن الخطاب"

عن كتاب "تاريخ العرب الأدبى"

A Literary History Of The Arabs

عمر بن الخطاب

وأثرهُ فى التقَدم الإنسَانى

يتفق أصدقاء الإسلام وخصومه على أن عمر بن الخطاب قد لعب دوراً خطير الشأن فى التاريخ العالمى وله تأثيراً بليغاً فى سيرة الحضارة، فقد قدم للعالم ديناً ممتازاً واضح الحدود سامى التعاليم بريئاً من الغوامض التى تنبو على العقل، وشريعة سمحة لا تفرض على الإنسان ما يبهظه ويخرج عن طاقته ولا تحاول أن تخرجه من أفق انسانيته، وبث أفكاراً جليلة طريفة عن الإخاء الإنسانى والمساواة بين الناس تثير رواقد الضمير وتحرك فى النفس حب الخير والعدل، وأكبر فضل فى نجاح قضية الإسلام وانتصار مبادئه يرجع إلى ثلاثة رجال: أولهم وأعظمهم شأناً وأضخمهم أمراً وأروعهم شخصية هو النبى محمدﷺ صاحب الرسالة، ثم أبو بكر الصديق صديقه وصفيه، ثم عمر الفاروق خليفته الثانى. ولست أنكر فضل غيرهم من أفذاذ الرجال الذين قدموا للإسلام خدمات كبيرة وتضحيات هامة، ولكن هؤلاء الثلاثة هم واضعوا الأساس. فالنبى محمد هو الذى أخرج العرب من فوضى الجاهلية إلى نور الإسلام وأطلقهم من أسر الأوهام والتقاليد التى كانت تستمد أهميتها من عصور عريقة فى القدم، ونهض بأعباء الرسالة وما تتطلبه من مجهود شاق واقدام وتضحية، وقد كانت المعركة التى دارت بينه وبين الوثنية تعرض حياته للخطر. ولكنه كان ممتلئ النفس بالحب الالهى متقد الجوانح بالحماسة المقدسة، فاندفع فيها بكل ما أوتى من قوة حتى انتصر دينه وتوطد أساسه

ولقد كانت حياة العرب فى الجاهلية حياة مرحة مطلقة العنان نافرة من القيود، حياة لذة وغرور وطيش. كان الحرب والسلب والنساء والخمر والميسر هى مناط أهوائهم ومدار حركتهم وكانت هذه الحياتة الطروبة لا تمر بها أفكار جدية ولا يشوب صفاءها تأمل دينى ولا يزعجها التطلع إلى معرفة الحق ولا يقلقها الشعور بالنقص والحاجة إلى الإصلاح، وكان الإهتمام بالحاضر الراهن والاستمتاع به واجتناء ثمرة النصر فى الميدان هى أكبر غاية فى حياة العربى الجاهلى المترددة بين الأبيقوريه الكاملة والمادية الكثيفة، والكارهة للنسك والزهادة والشعور بالواجب

وقد سما الإسلام بالعرب وأوسع أفاقهم الفكرية وعمق نفوسهم، وجعلهم يشعرون بوجود هذه القوة الرهيبة المستورة المجهولة المسماة "الله"، وغرس فيهم الفضيلة والنبل وجعلهم مضرب المثل فى الإقدام والبطولة، وأرسلهم إلى العالم رسل حضارة جديدة ودعاة دين خالد

وقد كانت رابطة القبيلة وآصره القرابة هى الصلة الوحيدة التى تربط الجماعات فى هذا المجتمع العربى المفكك، ولم يكن فى وسع العربى أن يدرك أى واجب اجتماعى أو أن يفهم أى وحدة سياسية غير قائمة على العصبية والقرابة.

وكان نجاح مبادئ الإسلام والعمل على تطبيقها يقتضى توهين عصبية القبيلة، وإزالة هذا الضيق فى الشعور والعطف، وتحطيم حواجزه وتوسيع نطاقه ومحاولة استبداله بشعور عام شامل الإخاء فى الدين والمساواة فى الحقوق، وقد وفق النبى ﷺ فى تحقيق ذلك إلى مدى بعيد ولم يكن فى وسع الإنسان أن يعمل أكثر مما عمله فى هذا الصدد. وبخلق هذه الروح الجديدة وإيجاد هذا الشعور الأخوى والإحساس بالوحدة فى المآرب والغايات، جهز النبى العرب للدور العظيم الذى لعبوه بعد ذلك فى التاريخ

وكان بقاء هذه الوحدة قائمة متماسكة يتطلب اليقظة المستمرة والجهد المتواصل، لأنها كانت فى جوهرها شديدة المخالفة للغرائز القومية الموروثة والميول القديمة المغلغلة، وقد أدركت النبى الوفاة وهو يقوم بعملية المزج ويتعهدها بسياسته الرشيدة وروحيته الفياضة ويحاول أن يسمو بالعرب فوق منازع العصبيات وثوائر النعرات

ولشدة استيلاء النبى على عقول أصحابه وسمو مكانته فى نفوسهم لم يستطيعوا أول الأمر أن يصدقوا بوفاته، وكان من العسير أن يتصوروا أن هذا الرجل الذى جلا شكوكهم بنور العقيدة وهذب نفوسهم باشراق الالهام وأحدث بينهم هذا الانتقال الثورى يمضى به الموت كسائر البشر، وقد أذهل نعيه عمر الركين المجرب فجعل يقول: "إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله توفى، وأنه والله ما مات ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، والله ليرجعن رسول الله فيقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات" ولكنه لم يلبث أن ثاب إليه رشده وأدرك حقيقة الموقف عند سماع كلمة أبى بكر الحكيمة، وظهرت حينذاك رجولة أبى بكر فى أروع صورها، وقد كادت تتصدع الألفة بين المسلمين وتنحل الروابط التى قضى النبى زهرة حياته فى تقويتها وأطل من جديد الخلاف القديم بين الأنصار والمهاجرين، وكاد ينذر بهبوب العواصف الهوجاء لولا أن أشرقت شخصية أبى بكر وظهرت براعة عمر العملية فى تناول الموقف. فقد استطاع عمر أن يحل الأزمة ويحسم العلة بمبادرته إلى بيعة أبى بكر، تلك البيعة التى استمرت رمزاً للانتخاب المشروع وآية التسليم والخضوع للخليفة المختار، وأثر هذا العمل تأثيراً كبيراً حمل الآخرين على مبايعة أبى بكر، وفى اليوم التالى كانت البيعة العامة، وبذلك قضى عمر على هذا الخلاف الخطر الذى كاد يودى بالإسلام فى إبان ترعرعه

ولما انتشرت أخبار وفاة النبى بدأت الثورات فى بعض الأطراف، وظهر ادعياء النبوة، وحاولت بعض القبائل أن ترتد عن الإسلام، وتاقت قبائل أخرى إلى الخلاص من ضريبة الزكاة، وهمت الوثنية المنهزمة أن ترفع رأسها المائل فى مكة. ولكن كل هذه العقبات الشائكة

والأخطار الماحقة ذابت وتلاشت ازاء نصاعة إيمان أبى بكر وفائق شجاعته وعزمه المصمم وثباته العجيب!

وقد اختار أبو بكر عند وفاته عمر ليخلفه، وقد دل هذا الاختيار على بُعد نظر أبى بكر فقد كان اسناد الخلافة إلى عمر غنماً عظيماً للإسلام، لأن عمر كان رجلاً قوى الأخلاق شديد الشعور بالمسئولية صارماً فى حدود العدالة جم النشاط دائم الحركة، فأدار الفتوح باقتدار، وكان يعس بنفسه ويرتاد المجتمعات ويتفقد أحوال الشعب

ولتقدير موقف عمر وبيان أثره أقول إن الإسلام برغم سمو تعاليمه وتشبعه بالروح الديموقراطية لم يستطع أن ينسخ نظام القبيلة ولم يمحه كل المحو، وبذلك لم يتيسر له تطبيق فكرة المساواة القائمة على فكرة الحكومة الدينية كل التطبيق، بحيث تزيل الخلافات الحزبية وتقطع دابر التنافس بين مختلف القبائل، وظل الفرد يتصل بالأمة عن طريق القبيلة وظلت القبائل محتفظة بكيانها دون أن تفنى وحدتها أو تتحلل ذاتيتها وتندغم فى أمة، وإنما اضطرت القبائل أن تتنزل مكرهة للحكومة عن حق إعلان الحروب الداخلية لأن أول غرض وجدت من أجله الأمة هو القضاء على المنازعات الداخلية، ولعمر نصيب كبير من الفضل فى استنهاض القبائل وضم مختلف صفوفها لغزو العدو الأجنبى ونشر مبادئ الإسلام، وهو القائل عندما استنفر قبائل العرب لمنازلة الفرس: "سأضرب ملوك الفرس بملوك العرب" ولقد كان النظام والطاعة والخضوع شيئاً غير مألوفاً عند العرب، ولكن قوة الإسلام وشدة تعلقهم به هى التى خفضت من كبريائهم وحببت إليهم الطاعة والنظام ولقد ضرب لهم عمر فى هذه الفترة الدقيقة مثلاً منقطع النظير من التشبع بالروح الإسلامية والاستمساك بالعدالة المطلقة، ووضع تنفيذ تعاليم الإسلام فوق كل اعتبار.

ولما انتصر العرب وخضدوا شوكة الفرس والروم، أخذت أفواج الناس تعتنق الإسلام عن إخلاص وعقيدة، والبعض عن غير إخلاص وعقيدة وإنما بدافع المصلحة. وأوقف اليونان والفرس والأقباط مواهبهم على خدمة الدين الجديد، وأخذت قيود العصبيات وروابط التقاليد تنحل تحت تأثير الإسلام، وبدأت أمة جديدة فى الظهور تربطها روابط الدين وتجمعها جامعة اللغة وتدعمها الكفايات المختلفة الموروثة الكامنة فى الأقوام الذين تكونت منهم، وكان مجهود عمر فى سياسته الأخيرة متجهاً إلى مزج هذه المواد المتنافرة التى ألقاها القدر بين يديه القويتين، فدون الدواوين ورتب المالية ووضع أساس الإيرادات والمصروفات، وفرض الرواتب للعمال والقضاة، وحرم على المسلمين اقتناء الضياع والزراعة على أن يدفع بيت المال أرزاقهم استبقاء لروح الجهاد فى نفوسهم وخشية أن يقعد بهم الترف أو تشغلهم

المصلحة عن التفرغ لأمر الدين. وكان عمر يرمى من وراء ذلك إلى أن يبقى أهل الذمة وأرضهم مصدراً للمال الذى يستلزمه إتمام الجهاد وإعلاء كلمة الدين الإسلامى

ولقد ملأ النبىﷺ نفوس العرب حماسة ويقيناً، واستطاع أن يرفعهم إلى المستوى الروحى الرفيع الذى تزول فيه الأحقاد وتفنى الصغائر والمصالح الخاصة، واستطاع أبو بكر أن يصون الإسلام ويدرأ عنه الأخطار بعد غياب شخصية النبى وانقطاع الوحى، وأن يحول جهود المسلمين إلى المجرى المناسب ويوجههم التوجيه المثمر، وسيطر عمر بن الخطاب على ميول العرب يصرفها كيف شاء واستطاع كبحها فى وقت نشوة الانتصار وزهو الفتح، ولم تستطع الطاعة التامة ولا النفوذ المترامى ولا المال المتدفق أن يستهوى لبه ويصده عن طريق الزهد وسبيل التقوى. فالإسلام مدين بانتصاراته وفتوحه لروحية النبى وسمو مبادئ الإسلام، ولحزم أبى بكر وصفاء عقيدته، ولصلابة عمر ونشاطه الجم وهمته القعساء. وعمر بهذه المثابة أحد من ساهموا فى حركة التقدم الإنسانى الواسعة ومهدوا سبيله واستحثوا سيره.

*****

المراجع

١ - تاريخ الإسلام السياسى ونشأة الدولة الإسلامية — تأليف: أمين سعيد

٢ - موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية — تأليف: د. أحمد شلبى

٣ - عمر بن الخطاب وأصول السياسة والإدارة الحديثة — تأليف: سليمان الطماوى

٤ - الفاروق القائد — تأليف: محمد شيت خطاب

٥ - عبقرية عمر — تأليف: عباس محمود العقاد

٦ - تاريخ الخلفاء الراشدون — تأليف: جلال الدين السيوطى

٧ - بين يدى عمر — تأليف: خالد محمد خالد

٨ - الشيخان — تأليف: طه حسين

٩ - الخلفاء الراشدون — تأليف: محمد إسماعيل إبراهيم

١٠ - العشرة المبشرون بالجنة — تأليف: محمود البرشومى

١١ - الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ﷺ — تأليف: هارت مايكل

١٢ - مع المصطفى فى عصر البعث — تأليف: بنت الشاطئ

١٣ - حياة محمد — تأليف: محمد حسين هيكل

١٤ - سيرة النبى ﷺ — تأليف: أبو عبد الله بن اسحاق

١٥ - أطلس تاريخ الإسلام — تأليف: د. حسين مؤنس

١٦ - تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى — تأليف: حسن ابراهيم

١٧ - سيرة عمر — تأليف: أحمد التاجى

١٨ - مجلة الهلال — تأليف: دار الهلال

١٩ - الفاروق عمر — تأليف: محمد حسين هيكل

٢٠ - الطبقات الكبرى — تأليف: ابن سعد

٢١ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة — تأليف: عز الدين بن الأثير

٢٢ - فتوح الشام — تأليف: الواقدى

٢٣ - تاريخ الطبرى — تأليف: ابن جرير الطبرى

٢٤ - نهاية الأرب فى فنون الأدب — تأليف: النويرى

٢٥ - فتوح البلدان — تأليف: البلاذرى